الأوائل

ابو هلال العسكري

الباب الأول

أول ما تحرك أمر قريش: وأخذ شأنهم يرتفع وذكرهم ينتشر حين قدم قصي مكة من أمه فاطمة بنت سعد بن شبل الأزدي أزد شنوءة، وكان كلاب أبو قصي تزوجها فولدت له زيداً وهو قصي وزهرة ثم هلك كلاب، وزهرة قد شب وزيد صغير، فقدم ربيعة بن خزام العذري مكة، فتزوج فاطمة وحملها إلى قومه وحمل زيداً لصغره، فولدت فاطمة لربيعة رزاحاً وشب زيد فسمته قصياً لبعد داره- والقصو البعد- فنازع رجلاً من عذرة، فقال له العذري: إلحق بقومك فلست منا، فأتى أمه فسألها عن قومه، فأخبرته بما كان من أمرها وأمره فشخص مع الحجاج إلى مكة، فلم يلبث أن اجتمع مع أبي غبشان سليم بن عمرو الخزاعي على شراب، فلما سكر أبو غبشان اشترى منه قصي ولاية البيت بزق خمر وقعود، فقيل: أخسر من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، وأندم من أبي غبشان، وأحمق من أبي غبشان، وأندم من أبي غبشان، فجرت أمثالاً. قال بعضهم:

باعت خزاعة بيت الله إذ سكرت	بزق خمر فبئست صفقة البادي
باعت سدانتها بالخمر وانقرضت	عن المقام وظل البيت والنادي

وقال آخر:

أبو غبشان أظلم من قصي	وأظلم من بني فهر خزاعة
فلا تلحوا قصياً في شراه	ولوموا شيخكم إذ كان باعه

وقال آخر:

إذا فخرت خزاعة في قديم	وجدنا فخرها شرب الخمور
وبيعا كعبة الرحمن جمعاً	بزق بئس ما افتخر الفجور

وقال آخر:

باعت خزاعة بيت الله صاحبه	بزق خمر فلا فازوا ولا ربحوا

فتحزبت خزاعة على قصي، فاستنصر أخاه من أمه رزاحاُ فأقبل بمن معه، وجمع قصي كنانة فنفوا خزاعة عن مكة، وجمع قريشاً من رؤوس الجبال وشعابها، فأنزلهم الأبطح فسمي مجمعاً. قال مطرود:

قصي أبوكم كان يدعى مجمعاً به جمع الله القبائل من فهر

ثم قال أبو تمام:

أألدريس ضاع المجد بعدك كله ورأى الذي يرجوه بعدك أضيع

مشوا في زوايا نعشه وكأنما قريش قريش يوم مات مجمع

ويبسط كفاً في الخطوب كأنما أناملها في الجود والبأس أذرع

ففتش قصي عن أجلة قومه فسمي قريشاً والتقريش التفتيش. قال الحرث بن حلزة:

أيها المبلغ المقرش عنا عند عمرو وهل لذاك بقاء

وقيل: كان قريش إسماً للنضر بن كنانة واشتاق من التقرش وهو التكسب، وكانت قريش تجاراً، وقيل التقرش التجمع، وكانت صوفة تجيز الناس من عرفة إلى جمع ومن جمع إلى منى، فإذا رمى الناس الجمار أخذت ناحيتي العقبة، فيقولون أجيزي صوفة، فلا يجوز أحد حتى تجوز صوفة، وكانوا يرون ذلك ديناً، فاعترضهم قصي بمن معه وانهزمت صوفة وخلت مكة والموسم لقصي؛ فكان أول من نال الملك من ولد النضر ابن كنانة. فقال رزاح بن ربيعة:

جلبنا الخيل مضمرة تعادي من الأعراف أعراف الجناب

إلى غوري تهامة قادرينا بني الذفراء في قاع يباب

وقام بنو علي إذ رأونا على الأسياف كالإبل الظراب

فأما صوفة الخنثى فخلوا منازلهم محاذرة الضراب

وقال رزاح أيضاً:

أجبنا قصياً على نأيه على الخيل تردي رعيلاً رعيلاً

نسير بها الليل حتى الصباح ونكمي النهار إلى أن يزولا

فهن سراعاً كورد القطا يورعن ميلاً ويركضن ميلا

بأبناء سعد وأسباعها نجوب الحزون ونطوي السهولا

فصبحن مكة قبل العطاط فدسن خزاعة دوساً وبيلا

خبطنهم بصلاب النسور كخبط العزيز القوي الذليلا

ومن قبل ذلك ما قد جعلن لصوفة منهن يوماً طويلا

وكنا له جنة في اللقاء وسيفاً بيمنى يديه صقيلا

فلما استوى أمر مكة لقصي بنى دار الندوة، فكانت قريش تقضي فيها أمورها، فلا تنكح ولا تشاور في أمر ولا حرب إلا فيها وهي دار الإمارة، وبابها في المسجد حيال الكعبة.

ثم قال لقريش: أنتم جيران الله والحجاج زوار الله، فهم أضيافه وأحق الأضياف بالكرامة أضيافه فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج، ففرض عليهم فرضاً يدفعونه إليه، فيصرفه في إقامة الحجاج، فجرى ذلك إلى اليوم؛ إلا أن الخلفاء هم الذين يقيمونها.

وكان قصي في زمن بهرام جور، وهو بهرام بن يزدجرد، وقصي أول من احتفر بالأبطح سقاية للحجاج وسماها العجول وقال:

سقى الله العجول برغم عاد وكانت من زيادته العجو لا

فلم يزل يشرب منها حتى سقط فيها رجل من بني جعيل فعطلت، وكانت زمزم زمن جرهم، وهو أول من ثرد الثريد بعد إبراهيم عليه السلام، وعاب بعض الشعوبية العرب باتخاذ الثريد وقال: لا بد أن يفضل من العرب إذا أكلوا فضلة مرق تجعل لمسكين قال: فأرادت العرب ألا يبطل عليهم ذلك فثردوا فيه، قال: وليس من طعام العجم.

واحتج بما أخبرنا به أبو احمد بن الحسين بن عبد الله بن سعيد عن الجلودي عن محمد بن زكريا عن محمد بن عبيد الله بن محمد بن علي قال: قال حصين لفيروز أحب أن أتغذى عندك. قال: فما تشتهي؟ قال: ثريداً، قال: إني أكره أن أضع على مائدتي طعام الكلاب ولكني أتحمل ذلك لك.

قال أبو هلال أيده الله تعالى: لو كان الثريد طعاماً خبيثاً مكروهاً لكان ما يقال فيه شائعاً، فأما وهو طعام مشتهى طيب، فلا اعتراض على العرب في اتخاذ طعام طيب وليس ترك العجم إياه قدحاً فيه، فكم من شيء مختار قد تركته العجم غفلة عنه أو جهلاً به، وليس ثردهم في المرق يدل على أنهم أرادوا منع ما يفضل منه.

أول من أخذ الإيلاف لقريش هاشم بن عبد مناف: والإيلاف؛ كتاب أمان يؤمنهم بغير حلف. فأما الولاف: فتدارك لمعان البرق ولا يكاد يخلف.

والآلاق: بالقاف أن يلمع لمعة بعد لمعة، وربما أخلف.

أخبرنا غير واحد عن ابن دريد وغيره عن أبي حاتم العبثي ومحمد بن سلام قال: كانت قريش تجاراً، وكانت تجارتهم لا تعدو مكة وما حولها، فخرج هاشم بن عبد مناف إلى الشام فترل بقيصر وكان يذبح كل يوم شاة ويصنع جفنة ثريد ويدعو من حوله. وكان من أتم الناس وأجملهم فذكروا ذلك لقيصر

فأحضره فلما رآه استجهره وكلمه فأعجبه فلما رأى مكانه عنده قال: أيها الملك! إن قومي تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمنهم فيقدمون عليك بما تستظرف من أمتعة الحجاز فيكون أرخص لكم، فكتب كتاب أمان لمن يخرج منهم، فخرج هاشم به فكلما مر بحي من العرب اخذ من أشرافهم الأمان حتى قدم مكة فأتاهم بأعظم شيء أوتوا به قط بركة. فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج معهم هاشم يجوزهم ويوفيهم أيلافهم حتى ورد بهم الشام، وفي ذلك يقول القائل:

تحمل هاشم ما ضاق عنه　　　وأعيا أن يقوم به ابن فيض

ثم خرج المطلب بن عبد مناف إلى اليمن، فأخذ من ملوكهم عهداً لمن أتجر إليهم من قريش، وكان أكبر ولد أبيه ويسمى الفيض وهلك بردفان من اليمن. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة وأخذ لهم إيلافاً ثم ورد مكة وهلك بها وقبره بالحجون، وخرج نوفل بن عبد مناف وكان أصغر ولد أبيه فأخذ لهم عهداً من كسرى ثم قدم مكة ورجع إلى العراق فمات بسلمان، فاتسعت قريش في التجارة وكثرت أموالها، فبنو عبد مناف أعظم قريش بركة في الجاهلية والإسلام. وفيهم يقول الشاعر:

كانت قريش بيضة فتفلقت　　　فالمحّ خالصة لعبد مناف

وقال مطرود بن كعب يرثيهم:

يا عين جودي وأذري الدمع وانهملي　　　وأبكي على البيض من سر المغيرات

وأبكي لك الويل أما كنت فاقدة　　　لعبد شمس بشرقي الثنيات

وهاشم في ضريح وسط بلقعة　　　تسفي الرياح عليه وسط عرات

تبكين عين العلا إذ كان مصرعه　　　سمح السجية بسّام العشيات

وكان هاشم يسمي أبا فضلة، واسمه عمرو.

وروى بعض الشيوخ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: خرجت وجماعة من قريش إلى العراق في تجارة، فلما دنونا من الأرياف خرج قوم فقطعوا علينا فدخلنا المدائن مخففين قال: فكنت أطوف بها أطلب رجلاً يفهم عني ما أقول فأسترشده في أمرنا فلا أجد، حتى مررت بصائغ سقطت مطرقته، فقال: بسم الله وأخذها فدنوت منه، فذكر أنه نصراني من أهل الحيرة فشكوت إليه ما لقينا، فقال: سر إلى باب الملك فإن المتظلم لا يمنع منه، فلما أدخلت إليه وذكرت امرنا دفع لي ألف درهم وأخرجت، فعدت في اليوم الثاني فتكلمت فدفع إلي ألف درهم أخرى وأخرجت، وكذلك في اليوم الثالث، فلما أمرت بالخروج وقد دفع إلي ألفا أخرى أومأت إليه إني لم أحضر لطمع، فعلم أن الترجمان يخون ويؤدي خلاف

ما أورد عليه فأحضر ترجماناً آخر فأدى ما قلت فقال: لا تبرحوا البلد فلم نلبث إلا قليلاً حتى أدخلنا إليه، فإذا اللصوص والترجمان مكتوفون بين يديه وأمتعتنا موضوعة، فقيل لنا: هل تفقدون شيئاً منها قلنا مقرعة فطالبهم بها، فقالوا: لا نعرف لها موضعاً ونعوضهم عنها مقرعة فضة،ثم اشترى منا تجارتنا بربح وافر فذكرت ما أعطيت في الأيام الثلاثة، فقيل: هي لك لا يسترد ما أعطيناه وأقمنا حتى أصلحنا أمورنا وخرجنا، فإذا اللصوص والترجمان مصلوبون في المكان الذي قطعوا علينا فيه.

أول من سن الدية مائة من الإبل عبد المطلب

أخبرنا جماعة من مشايخنا قالوا: لقي عبد المطلب من قريش أذى كثيراً حين أقام سقاية زمزم وحسدوه حسداً شديداً لانصراف الناس إليها عن غيرها لمكانها من المسجد الحرام، ولأنها بئر إسماعيل عليه السلام، فنذر لئن ولد له عشرة نفر بلغوا معه حتى يمنعوه ليذبحن أحدهم لله عند الكعبة، فلما توافى بنوه عشرة جمعهم ثم أخبرهم بنذره ودعاهم إلى الوفاء لله به فأطاعوه وقالوا: كيف نصنع؟ قال: ليأخذ كل رجل منكم قدحاً وليكتب عليه اسمه ثم ليأتني به ففعلوا، فدخل بهم على هبل وكان أعظم أصنام قريش يضربون عنده بقداحهم لحوائجهم، فقال عبد المطلب للسادن: اضرب على بني هؤلاء بأقداحهم ودخل الكعبة، فقام يدعو الله فضرب بها عليهم، فخرج القدح على عبد الله وكان احب ولده إليه، وكان هو وأبو طالب لفاطمة بنت عمرو بن عابد المخزومي، فأخذ عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به إلى اساف ونائلة وهما وثنا قريش اللذان تنحر عندهما ذبائحهم ليذبحه فقامت إليه قريش فقالوا: لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه، ولئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه فما بقاء الناس على هذا ولو كان فداه أموالنا وانطلق إلى الحجاز فإن فيه عرافة فاستخرها، فانطلق حتى قدم عليها فقالت: كم الدية فيكم؟ قال: عشر من الإبل. قالت: فارجع إلى بلادك ثم قرب صاحبك وعشراً من الإبل واضربن عليه وعليها بالقداح فإن خرجت عليه فزده عشراً من الإبل حتى يرضى ربك، فإن خرجت على الإبل فانحرها عنه فقد رضي ربك ونجى ولدك، فخرج حتى أتى مكة ثم قرب عبد الله وعشراً من الإبل وضرب فخرجت القداح على الإبل فقالت قريش: قد انتهى رضي ربك فقال:والله ما أنصفت ربي خرجت على عبد الله تسع مرات فلم أذبحه وخرجت على الإبل مرة فأذبحها. لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات فضربوا فخرجت القداح على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها بائس ولا سبع، وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خمس سنين من هذه القصة.

أول من سن الدية كذلك النضر بن كنانة

وذلك أنه قتل أخاه فوداه مائة من الإبل فجرت سنة.

قال الكميت:

أبونا الذي سن المئين لقومه	ديات وعداها سلوفاً مئينها
فسلمها واستوثق الناس للذي	تعلل لما سن فيها حروبها
غنائم لم تجمع ثلاثاً وأربعاً	مسائل بالإلحاق شتى ضروبها

وقال أبو اليقظان: أول من سنها كذلك أبو سيارة العدواني، وهو الذي كان يفيض بالناس من المزدلفة إلى منى على حمار أسود أربعين سنة. فقالت العرب: "أصح من عير أبي سيارة". فجرت مثلاً. قال؛ وكان من دعائه: اللهم حبب بين نسائنا وبغض بين رعاتنا واجعل المال في سمحائنا. وكان خالد بن صفوان والفضل الرقاش يختاران ركوب الحمير، ويجعلان أبا سيارة قدوة فيه، قال بعضهم لخالد وهو على حمار: ما هذا الركب؟ قال: عير من نسل الكداذ أضم السربال مفتول الأجلاد محملج القوائم يحمل الرحلة ويبلغ العقبة ويقل داؤه ويخف دواؤه ويمنعني أن أكون جباراً في الأرض أو أكون من المفسدين، ولولا ما في الحمار من المنفعة ما امتطى أبو سيارة ظهر عير أربعين سنة.

وأما الفضل؛ فإنه سئل عن ركوبه الحمار فقال: أقل الدواب مؤونة، وأسهلها جماحاً، وأسلمها صريعاً، وأحفظها مهوى، وأقربها مرتعاً. يرى راكبه وقد تواضع بركوبه ويسمى مقتصداً وقد أسرف في يمنه، ولو شاء أبو سيارة أن يركب في الموسم جملاً مهرياً أو فرساً أعوجياً لفعل، فسمع كلامه أعرابي فقال: الحمار شنار والعير عار منكر الصوت بعيد الفوت متزلق في الوحل متلوث في الضحل. إن وقفته أدلى، وإن أطلقته ولى. مسايره مشرف وراكبه مقرف، كثير الروث قليل الغوث، سريع إلى الفواره بطيء في الفاره. لا ترقأ به الدماء ولا تمهر به النساء ولا يحلب في إناء. وقال بعضهم في وصف بغلة تطأطأت عن خيلاء الخيل وارتفعت عن ذلة العير.

أول من خضب بالوسمة من قريش عبد المطلب

حدثنا الشيخ أبو أحمد قال: حدثنا محمد بن يحيى عن الفضل بن الحباب عن الرياش عن العتبي قال: وفد عبد المطلب على بعض ملوك اليمن فرآه قد شاب، فأمر له بخضاب أسود فاختضب به، فلما رآه عبد المطلب حسناً قال:

فلو دام لي هذا الشباب حمدته	وكان بديلاً من حبيب قد انصرم

تمتعت منه والحياة قصيرة ولا بد من موت يليه أو هرم

أول ما عظم أمر قريش فسميت آل الله وقرابينه

حين هزم الله جيش الفيل، وكان من أول حديثهم أن تبعاً دخل في اليهودية في أيام قباد، وكان لدوس رجل من يهود نجران ضيعة يخرج بنوه إليها ليلاً، فيجرون فيها من الماء أكثر مما يخصها، فاجتمعت نصارى نجران فقتلوهم وطلبوا أباهم دوساً فأعجزهم فقالوا له: أقبل، فقال: لا يقبل المرء على الموت فذهبت مثلاً، فقالوا: إلى أين عن لهوك وغنائك؟ فقال: الأحياء يعون. فسار حتى دخل على ذي نواس وكان تهود فشكى إليه ما أصيب به، فخرج إلى أهل نجران فحاصرهم ثم عاهدهم فلما تمكن منهم أوقع بهم وهم مغترون فلم ينج منهم إلا الشريد، فلحق بعضهم بالنجاشي ومعه الإنجيل قد أحرق أكثره، فلما رآه ساءه فكاتب ملك الروم بذلك واستدعى من جهته سفناً يحمل فيها الرجال إلى اليمن، وبلغ ذاك ذا نواس فصنع مفاتيح كثيرة، فلما دنا منه جيش الحبشة أرسل إليهم بها، وقال: هذه مفاتيح خزائن اليمن فخذوا المال والأرض، وإنا طوع لكم فاطمأنوا وترقوا في المخاليف يجبون، فأرسل ذا نواس إلى المقاولة إذا كان يوم كذا فأذبحوا كل ثور أسود فيكم، فعلموا الذي أراد فقتلوهم، فلم يبق منهم إلا القليل، وبلغ النجاشي ذلك فجهز إليهم سبعين ألفاً عليهم أبرهة ومولى بن حزام، وأمرهم ألا يقبلوا صلحاً، فعلم ذو نواس أنه لا قبل له بهم، فركب حتى أتى البحر فأقحم فرسه فيه فغرق وملكت الحبشة اليمن. ونزل أبرهة صنعاء في قصر غمدان، فكتب إليه النجاشي: من نزل مترل الملوك تجبر فاهدم ما أشرف من حيطان غمدان حتى توازي به حيطان بلدك ففعل، ثم انصرف عامة الجيش إلى الحبشة وأقام بها أبرهة ملكاً مستبداً بالأموال، فبعث إليه النجاشي بأرياط، فلما نزل به دعاه إلى المبارزة فطمع أرياط فيه وكان أقوى منه، وكمن له أبرهة عبداً من عبيده فلما بادره أرياط وثب العبد فطعنه فقتله وصفت اليمن لأبرهة وحكم العبد فقال: أريد ألا تدخل امرأة على زوجها حتى أبتدئ بها، فقال: ففعل بذلك زماناً حتى ثارت عليه أهل اليمن فقتلوه، فقال لهم أبرهة: قد آن لكم أن تكونوا أحراراً، فلما عرف النجاشي عصيان أبرهة حلف على وطء بلاده وجز ناصيته وإراقة دمه، فحلق أبرهة شعره وأخذ جزءاً من دمه وبعضاً من تراب بلده، وكتب إلى النجاشي: إنما أنا عبدك، وقد بلغت عني الكذب، وقد جززت ناصيتي وبعثت بها إليك وبدمي لتريقه وتراب أرضي لتطأه فتبر بيمينك، فأعجبه ذلك وأمسك عن الإساءة إليه، فاستجمع ملك اليمن لأبرهة وبني كنيسة صنعاء على علوة من غمدان، فاشتغل ببنائها عشر سنين، فلما أتمها رأى الناس شيئاً لم يروا مثله قط، وأراد صرف حجاج العرب إليها حتى دخلها نفر من بني كنانة من قريش وأحدثوا

بها، فغضب أبرهة وعزم على غزو مكة وهدم الكعبة، فخرج بجيش كثيف وتبعه الفساق من خثعم عليهم نفيل بن حبيب وبنو أمه من بني الحرث بن كعب، فسار حتى نزل الطائف وفيها بيت يعبد فعزم على هدمه، فقال له مسعود بن معتب: إن رأيت أن تمضي لقصدك فإذا رجعت رأيت فينا رأيك فخرج نحو مكة، فلما شارفها أخذ أموال قريش فاستاقها وهم بالمسير، فخرج إليه أبو طالب وكان له ولأهله فيها إبل فقال: خل عنها فلها من لو أراد منعها منعها فأمر له بإبله وخرج حتى قام بفناء البيت يدعو الله تعالى ويقول:

لا هم أن المرء يمنع رحله	فامنع حلالك
لا يغلبن صليبهم	ومحالهم أبداً محالك
إن كنت تاركهم وكعبتنا	فأمر ما بدالك

ثم سار أبرهة فلما انتهى إلى المغمس نكص الفيل فزجروه وأدخلوا الحديد في أنفه حتى خزموه فلم يتحرك، ثم طلعت عليهم طير أكبر من الجراد فقذفتهم بحجارة في أرجلها فولوا هاربين، ثم هلك أكثرهم وفيهم أبرهة، فلما دفع الله عن قريش شرهم قالت العرب: قريش آل الله وقرابينه، قال الحارث بن أبي ظالم:

فإن يك منهم اصلي فمنهم	قراش للإله بنو قصي

وقال أبو الصلت الثقفي في شأن الفيل:

إن آيات ربنا باقيات	ما تمارى بهن إلا الكفور
حبس الفيل بالمغمس حتى	ظل يحبو كأنه معقور

وقال أبو قيس بن الأسلت:

وعندكم منه بلاء مصدق	غداة أبي مكتوم مهدئ الكتائب
كتائبه بالسهل تمشي ورحله	على العدمان في رؤوس المراقب
فلما أجازوا بطن نعمان ردهم	جيوش الإله بين ساف وحاصب

وولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد خمسين يوماً من طارقة الفيل. قدم الفيل مكة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من محرم، وولد النبي يوم الاثنين لثمان خلون من شهر ربيع الأول، وهو اليوم العشرون من نيسان سنة ثمانمائة واثنتين وثمانين من سني ذي القرنين والشمس في الثور.

قال أبو الحسن النسابة: رواه لنا أبو أحمد عنه ولد عليه السلام يوم الاثنين السابع عشر من من ذي ماه وهو اليوم العاشر من نيسان، وقد مضت من ملوك أنو شروان أربع وثلاثون سنة وثمانية أشهر، وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "ولدت في زمن الملك العادل أنو شروان". ومن أيام ملوك الروم على عهد قسطة، ومن أيام ملوك اليمن في أول سنة من ملك أبرهة كذا. قال: وهو مخالف لما تقدم، ومن أيام ملوك العرب بالعراق لثماني سنين وثمانية أشهر من ملك أبي هند عمرو بن هند، وملك الشام يومئذ أبو الريان الحارث الوهاب.

أول من أوقد النار بالمزدلفة حتى يراها من يندفع من عرفة فهي توقد إلى الآن قصي:

وهي إحدى نيران العرب، ونيران العرب هي نار الاستمطار ونار التحالف ونار الأهبة للحرب ونار الطرد ونار الحرس ونار السعالى ونار الأسد ونار القرى ونار السليم ونار الفداء ونار الوسم.

فأما نار الاستمطار: فكانوا في الجاهلية الأولى إذا احتبس المطر يجمعون البقر ويعقدون في أذناها وعراقيبها السلع والعشر ويصعدون بها في الجبل الوعر ويشعلون فيها النار ويزعمون أن ذلك أسباب المطر.

قال أمية بن أبي الصلت:

سلع ما ومثله عشر ... ما عائل ما وغالب البيقورا

وقال الورك الطائي:

لا دردر رجال خاب سعيهم ... يستمطرون لذي الأذناب بالعشر

أجاعل أنت بيقوراً مسلعة ... ذريعة لك بين الله والمطر

البيقور والباقور والبقر سواء.

وأما نار الحلف: فإنهم كانوا يوقدونها ويعقدون حلفهم عندها ويذكرون منافعها ويدعون بالحرمان والمنع من خيرها على من ينقض العهد ويحل العهد ويهولون على من يخاف على الغدر. قال أبو هلال: وإنما كانوا يخصون النار بذلك دون غيرها من المنافع لأن منفعتها تختص بالإنسان لا يشركه فيها شيء من الحيوان. قال أوس بن حجر:

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه ... كما صد عن نار المهول حالف

وكانوا يقولون عند عقد الحلف الدم الدم الهدم الهدم- بالفتح- وما بل بحر صوفة وما رسا ثبير أو غيره من الجبال. كل قبيلة كانوا يذكرون الجبال التي يعرفونها.

وأما نار الطرد؛ فإنهم كانوا يوقدونها خلف من يمضي ولا يشتهون رجوعه. قال شاعر قديم:

وجمة أقوام حملت فلم يكن لتوقد ناراً خلفهم للتندم

والجمة: الجماعة يمشون في الدم والصلح.

قال بشار:

صحوت وأوقدت للجهل ناراً ورد عليك الصبا ما استعارا

وأما نار الأهبة للحرب: فإنهم كانوا إذا أرادوا حرباً أو توقعوا جيشاً أوقدوا ناراً على جبلهم ليبلغ الخبر أصحابهم فيأتونهم. قال عمرو بن كلثوم:

ونحن غداة أوقد في خزاز رفدنا فوق رفد الرافدينا

وإذا جد الأمر أوقدوا نارين. قال الفرزدق:

لولا فوارس تغلب ابنة وائل نزل العدو عليك كل مكان

ضربوا الصنائع والملوك وأوقدوا نارين أشرقتا على النيران

وأما نار الحرس: فكانت في بلاد عبس، فإذا كان الليل فهي نار تسطع وفي النهار دخان يرتفع، وربما ندر منها عنق فأحرق من صوبها فحفر لها خالد بن سنان فدفنها فكانت معجزة له، وأهل النظر ينكرون نبوته ويقولون إنما كان أعرابياً من أهل البادية والله تعالى يقول: "وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم من أهل القرى".

وقال خليد العبثي:

وأي نبي كان من غير قرية وهل كان حكم الله في كرب النخس

وقال:

كنار الحرتين لها زفير تصم مسامع الرجل السميع

وأما النار التي تنسب إلى السعالي: فهو شيء يقع للمتغرب والمتقفر. قال أبو المطران عبيد بن أيوب:

لله در الغول أي رفيقة لصاحب دو خائف متقفر

أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالي نيراناً تبوح وتزهر

وأما نار الصيد: فنار توقد للظباء لتعشى إذا نظرت إليها، ويطلب بها أيضاً بيض النعام. قال الطفيل:

عوارب لم تسمع تنوح مقامه ولم تر ناراً ثم حول محرم

سوى نار بيض أو غزال بقفرة اغن من الخنس المتاجر توأم

وأما نار الأسد: فإنهم يوقدونها إذا خافوه، وهو إذا رأى النار استهالها فشغلته عن السابلة. قال بعضهم إذا رأى الأسد النار حدث له فكر يصده عن إرادته، والضفدع إذا رأى النار تحير وترك النقيق، وتنبأ بعضهم فقيل له: ما علامتك وكان بقربه غدير فيه ضفادع تنق ليلاً؟ قال: آمر ضفادع هذا الغدير بالسكوت فتسكت، ثم قال لغلامه: خذ السراج وامض فقل لها فلتسكت فسكتت لما رأت السراج، ففتن القوم. وكان مسيلمة قد عمد إلى بيضة فجعلها في خل ثم أدخلها قارورة ضيقة الرأس وتركها فجفت فيها وعادت إلى هيئتها، وكذلك تكون، وأتى بها جماعته وأهل بيته فدعاهم إلى تصديقه فكذبوه فأخرجها، فلما نظروا إليها تحيروا وصدقوه، وهم أعراب جهال لا يعرفون وجوه الأمور، وأخذ حماماً مقاصيص ودخل بيتاً. وزعم أنه يناجي الله لينبت أجنحتها في الحال، فغرز في أجنحتها ريشاً أعده عنده ثم أخرجها وخلاها فطارت فزادت فتنة القوم، وكانوا من أجهل الناس، ومن جهلهم أنهم اتخذوا إلهاً من الحيس فعبدوه دهراً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه، فقال رجل من بني تميم يهجوهم:

أكلت حنيفة ربها — زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم — سوء العواقب والتباعه

وأما نار الحباحب: فكل نار لا أصل لها مثل ما ينقدح من نعال الدواب وغيرها. قال أبو حية:

وأوقد نيران الحباحب والتقى — غضاً تتراقى بينهن ولا وله

والعرب تسمي البرق ناراً. قال الشاعر:

نار يعود بها للعود جدته — والنار تلفح عيداناً فتحرق

ونار اليراعة: وهو طائر صغير إذا طار بالليل حسبته شهاباً، والطرب من الفراش إذا طار بالليل حسبته شرارة، وتقول العرب: أكذب من تلمع وهو حجر يلمع من بعيد وإذا دنوت منه لم تر شيئاً.

ونار القرى: توقد للأضياف. قال الشاعر:

له نار تشب بكل ريح — إذا النيران جللت القناعا

وما أن كان أكثرهم سواماً — ولكن كان أرحبهم ذراعا

وأخذه الأشجع فقال:

تروم الملوك مدى جعفر — ولا يصنعون كما يصنع

وكيف ينالون غاياته — وهم يجمعون ولا يجمع

وليس بأوسعهم في الغنى — ولكن معروفه أوسع

وقال أبو ميادة:

يداه يد تنهل بالخير والندى		وأخرى شديد بالأعادي ضريرها

وناراه نار زان كل مدفع		وأخرى يصيب المجرمين سعيرها

وقال الأعشى:

يشب لمقرورين مصطلياتها		وبات على النار الندى والمحلق

والمحلق: الممدوح. وكان هذا البيت يستحسن حتى قال الحطيئة:

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره		تجد خير نار عندها خير موقد

فعفى على الأول. هكذا قالوا، وعندي أن الأول أحسن وأعذب.

ونار الحرب: مثل وليس بحقيقة.

ونار السليم: توقد للملدوغ إذا سهر، وللمجروح إذا نزف، وللمضروب بالسياط، ولمن عضه الكلب الكلب لئلا يناموا فيشتد بهم الأمر حتى يؤديهم إلى الهلكة قال المجروح:

أبا ثابت أنا إذا يسبقوننا		ستركب خيل أو ينبه نائم

ندامية تعشى الفراش رشاشها		يبيت له ضوء من النار جاحم

والمتروف إذا نام أصابه الكزاز.

ونار الفداء وذلك أن الملوك إذا سبوا القبيلة خرجت إليهم السادة للفداء والاستنهاب، فكرهوا أن يعرضوا النساء نهاراً فيفتضحن، وفي الظلمة فيخفي قدر ما يحسبون لأنفسهم من الصفى فيوقدون النار لعرضهن، وذلك قول الأعمش:

وهذا الذي أعطاه بالجمع ربه		على فاقة وللملوك هباتها

نساء بني شيبان يوم أوارة		على النار إذا تجلى له فتياتها

ونار الوسم: يقال للرجل ما نارك؟ أي ما سمة إبلك. وقرب بعض اللصوص، إبلا للبيع فقيل له: ما نارك وكان قد أغار عليها من كل وجه، وإنما سئل عن ذلك لأنهم يعرفون ميسم كل قوم وكرم إبلهم من لؤمها فقال:

يسألني الباعة أين نارها		إذ زعزعوها فسمت أبصارها

كل نجار أيل نجارها		وكل دار لأناس دارها

وكل نار العالمين نارها وقال آخر:

يشفون آبالهم بالنار والنار قد تشفي من الأوار

يقول لما رأوا نارها خلوا لها المنهل فشربت لعز أصحابها.

أول من سمى الجمعة جمعة وكانت تسمى عروبة كعب بن لؤي: وذلك أنه جمع قريشاً وخطبهم فقال: اسمعوا وعوا وتعلموا تعلموا وتفهموا تفهموا ليل داج ونهار ساج والأرض مهاد والسماء بناء والجبال أوتاد والأولون كالآخرين كل ذلك إلى بلى. فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم وثمروا أموالكم وأصلحوا أعمالكم فهل رأيتم من هالك رجع أم ميت نشر الدار أمامكم والظن خلاف ما تقولون زينوا حرمكم وعظموه وتمسكوا به ولا تفارقوه، فسيأتي له بناء عظيم وسيخرج منه نبي كريم. ثم قال:

نهار وليل واختلاف حوادث سواء علينا حلوها ومريرها

يؤبان بالأحداث حين تآويا وبالنعم الضافي علينا ستورها

صروف وأنباء تقلب أهلها لها عقد ما يستحل مريرها

على غفلة يأتي النبي محمد فيخبر أخباراً صدوقاً خبيرها

ثم قال أيضاً:

يا ليتني شاهد النجوى لدعوته خير العشيرة يبغي الحق جذلانا

ولعروبة نظائر من الأسماء التي كانت تستعمل ثم ترك استعمالها، فمن ذلك أسماء الأيام كلها وعروبة منها، فقد كانوا يسمون الأحد الأول والاثنين أهون والثلاثاء جبار والأربعاء دبار والخميس مؤنس والجمعة عروبة والسبت شيار، وأنشد الأعشى:

أآمل أن أعيش وأن يومي بأول أو بأهون أو جبار

أو التالي دبار أو فيومي بمؤنس أو عروبة أو شيار

وكانوا يقولون الأتاوة، فتركوها وقالوا الخراج والمكس، فتركوه وقالوا الضريبة وقالوا أنعم الله صباحك ومساك، وتركوا أن يقولوا للملك أبيت اللعن وأن يقولوا للصاحب والسيد والملك أرباباً وأن يقولوا للجارية غلامة وللمرأة رجلة وكل ذلك كان مستعملاً في الجاهلية. قال امرؤ القيس:

ألا أنعم صباحاً أيها الطل البالي

وقال الحارث بن حلزة:

ربنا وابننا وأفضل من يمشي ومن دون ما لديه السناء .

وقال آخر: يهان لها الغلامة والغلام.

وقال آخر: لم يراعوا حرمة الرجلة.

وقد حدثت في الإسلام معان وسميت بأسماء كانت في الجاهلية لمعان آخر، فأول ذلك القرآن والسورة والآية والتيمم قال تعالى: "فتيمموا صعيداً طيباً" أي تحروه، ثم كثر ذلك حتى سمي التمسح تيمماً، والفسق وهو الخروج من طاعة الله تعالى، وإنما كان ذلك في الرطبة إذا خرجت من قشرها، والفارة إذا خرجت من جحرها وسمي إظهار الإيمان مع أسرار الكفر نفاقاً، والسجود لله إيماناً وللوثن كفراً، و لم يعرف أهل الجاهلية من ذلك شيئاً. ومنه تسمية الرجل الذي أدرك الجاهلية والإسلام مخضرماً وأصله من خضرمت الغلام أي ختنته، والأذن إذا قطعت من طرفها شيئاً وتركته ينوس. وكان زمان الجاهلية قطع عليه، وقال بعضهم الخضرمة الإبل التي نتجت من العراب واليمانية، فقيل رجل مخضرم إذا عاش في الجاهلية والإسلام، وهذا أعجب القولين إلي. وكان أهل الجاهلية يقولون رجل صرورة إذا بلغ النهاية في العبادة، فصار ذلك في الإسلام الحجبة. ومن الأسماء المستحدثة تسمية الفرج المتع والعورة، وأصل العورة الانكشاف والإمكان، يقال أعور الفارس إذا بدا موضع منه للطعن والضرب، وأعور البيت إذا أمكن السراق. وفي القرآن: "إن بيوتنا عورة" أي معورة ممكنة لمن أرادها، وعورة الثغر المكان الذي إذا انكشف وظهر للعدو خيف من جهته، ومن ذلك الغائط والنجو والعذرة لذيل الإنسان والملامسة للنكاح إلى غير ذلك مما يطول شرحه.

أول قسامة كانت: ما أخبرنا به أحمد قال: أخبرنا الهذلي قال: أخبرنا أبو عبد الله الجهني قال: كان من حديث عمرو بن علقمة وخداش بن عبد الله أن خداشاً خرج إلى الشام في ركب قريش واستأجر عمرو بن علقمة بن المطلب بن عبد مناف، فلما كان ببعض الطريق نزلوا مترلاً، وانطلق خداش بظهره يرعاه، وترك عند عمرو ناقة مهزولة وأمره أن يعلفها وفي عنقها حبل، فمر قوم على عمرو فاستعانوه وقد شردت أبلهم فطرح لهم الحبل الذي في عنق الناقة فلما جاء خداش قال: أين الحبل؟ فأخبره أنه أعاره رجلاً، فقال: ما حملك على ما صنعت وقد نزلنا أرضاً لا نجد فيها مستعاناً فضربه بعصا فشجه فضمن من ضربته وجعل يجد وجعاً كأنه يترل إلى صدره، فكتب عمرو كتاباً إلى أبي طالب وأبي سفيان بن حرب وبني عبد مناف أنه كان من أمري كذا وكذا، فإن رجع إليكم ولست معه فقد قتلني فاطلبوا بدمي، ثم استعرض قوماً فدفعه إليهم فبلغوا بني عبد مناف، فلما قدم خداش وليس معه عمرو سألوه عنه، فقال: مات، فقالوا: كذبت بل قتلته، فطلبوا العقل، فأبى عليهم، فقال: ما مكث إلا أياما حتى مات فتحاكموا إلى الوليد بن المغيرة وهو يومئذ حكم قريش،فقضى على خداش ورهطه بالقسامة أن يحلف

خمسون رجلاً ما قتلنا صاحبكم فحلفوا كلهم إلا حويطب بن عبد العزى افتدت أمه يمينه بأربعين أوقية ورقاً والأوقية أربعون درهماً، وكان أكثر قريش ريعاً بمكة فهلك الذين حلفوا جميعاً وورثهم حويطب فذلك قول أبي طالب:

أفي فضل حبل لا أباك ضربته	بمنسأة قد جاء حبل وأحبل
هلم إلى حكم ابن صخرة إنه	سيحكم فيما بيننا ثم يعدل
كما كان يقضي في أمور تنوبنا	فيعمل للأمر الجسيم فيفضل

وصخرة هي أم الوليد، فقال أبو الوليد أحد بني عامر بن لؤي:

أتدعو إلى حكم بن صخرة آنفاً	أماه لحكم العبد والعبد أنذل
خداش إذا ما هاجت الحرب فارس	وعند بني سجع بمكة يعمل
أبا طالب ما كنت تعلم أنه	خداش إذا ما كان يوم محجل

قال العباس بن عبد المطلب في ذلك وقد روى لغيره:

أيا قومنا إن تنصفونا فأنصفت	قواطع في إيماننا تقطر الدما
تركناهم لا يستجلون بعدنا	لدى رحم من سائر الناس محرما
وزعناهم وزع النوامس بالقنا	وكل سريجي إذا هز صمما
فلا ترجونّا حاصن بعد طهرها	لئن نحن لم نثار من القوم علقما
أبا طالب لا تقبل النصف منهم	وإن أنصفوا حتى تعق وتظلما

وغلط عمر بن شبة من هذا الخبر في ثلاثة مواضع قال: المقتول علقمة بن المطلب وهو عمرو بن علقمة وإنما زل لما سمع قول العباس: "لئن نحن لم نثأر من القوم علقماً" وإنما أراد عمرو بن علقمة فلم يستوله البيت فذكر علقمة اضطراراً، وقال علقمة: أين أخت أبي طالب وليست تعرف لأبي طالب أخت كانت عند المطلب بن عبد مناف، ثم قال وقضى فيه الوليد وهو غلط ولا يشك أهل الأخبار أنه قضى بالقسامة وأنه أول قسامة قضى بها.

أول من خلع نعليه لدخول الكعبة الوليد بن المغيرة: فخلع الناس نعالهم في الإسلام، وكانت قريش يقولون: لا وثوبي الوليد الخلق منهما والجديد، وكانوا عملوا له تاجاً ليتوجوه به، فجاء الإسلام فانتقض أمره وكان من قبل يسمى ريحانة قريش. أخبرني بعض البصريين قال: دخل رجل منا مشهداً بالبصرة فمشى بنعليه حتى تخطى إلى المحراب فوثب عليه القوم يضربونه فقال: اسمعوا عذري فإن تصورتموه وإلا

فشأنكم. أنا رجل منكم يعني من الشيعة وقد جعلت لله على نفسي ألا أمر بهذا المشهد إلا أدخله متبركاً به متقرباً إلى الله فيه، واخترت هذا الوقت وأنا جنب فلم أخلع نعلي لئلا تمس رجله أرضه فخلوه واعتذروا إليه فلم أر أجهل منهم. نقموا عليه ما هو في سعة من فعله وعذروه في المحظور، ومثله ما سمعت أصحابنا يتحدثون أن جماعة دخلوا على بعض المتكلمين ببغداد فوجدوه يأكل في يوم من شهر رمضان فلما أنكروا عليه قال: أخبركم أني لست أشك في الله تعالى، ولكني أشك في النبوة فبلغ بعض الشيوخ قوله فقال: ما رأينا رجلاً نقم عليه الفسق واعتذر بالكفر غيره.

وقريب منه ما أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الجوهري قال: أخبرنا عمر بن شبة عن صلت بن مسعود عن أحمد بن شبوية عن سليمان بن عبد الله بن معمر قال: قدم معاوية مكة أو قال المدينة فأتى المسجد فقعد في حلقة فيها ابن عمر وابن عباس وعبد الرحمن بن أبي بكر، فأقبلوا إليه وأعرض ابن عباس عنه فقال: وأنا أحق بهذا الأمر من هذا المعرض وابن عمه فقال ابن عباس: و لم التقدم في الإسلام أم سابقة مع رسول الله أم قرابة منه؟ قال: لا ولكن ابن عمي المقتول ظلماً. قال: فهذا أحق به يريد ابن أبي بكر. قال: إن أباه مات موتاً. قال: فهذا أحق به يريد ابن عمر. قال: إن أباه قتله كافر قال: فذاك أدحض لحجتك أن المسلمين عتبوا على ابن عمك فقتلوه في كلام هذا معناه.

أول من حرم الخمر في الجاهلية الوليد بن المغيرة

وقيل: أول من حرمها قيس بن عاصم وكان يأتيه خمار فيبتاع من الخمر ولا يزال في جواره حتى ينفذ ما عنده فشرب ذات يوم فسكر سكراً شديداً، فجذب ابنته وتناول ثوبها وانهب ماله ومال الخمار وانشأ يقول وهو يضربه:

من تاجر فاجر جاء الإله به	كأن لحيته أذناب أجمال
جاء الخبيث بمنساية تركت	صحبي وأهلي بلا عقل ولا مال

فلما صحا أخبرته ابنته بما صنع وما قال، فآلى أنه لا يذوق الخمر أبداً وقال:

رأيت الخمر صالحة وفيها	خصال تفسد الرجل الحليما
فلا والله أشربها صحيحاً	ولا أسقي بها أبداً سقيما
ولا أعطي بها ثمناً حياتي	ولا أدعو لها أبداً نديما

ودخل حارثة بن بدر الغساني على زياد وفي وجهه أثر، فقال له زياد ما هذا الأثر في وجهك قال: ركبت فرساً لي أشقر فحملني حتى صدم بي الحائط، فقال له زياد: إنك لو ركبت الأشهب لم يصبك مكروه، وقيل لإعرابي لا تشرب الخمر. قال: لا أشرب ما يشرب عقلي.

وممن اشتدت رغبته في الخمر حتى بلغت الغاية ابن هرمة دخل على المنصور فأنشد:

له لحظات من خفا في سريرة	أذاكرها فيها عقاب ونائل
فأم الذي أمنت أمنه الردى	وأم الذي حاولت بالثكل ثاكل

فأعجب بها المنصور وقال: ما طلبتك؟ قال: تكتب إلى عاملك بالمدينة إلا يجلدني إذا وجدني سكراناً. قال: لا أعطل حداً من حدود الله. قال: يحتال لي؛ فكتب إلى عامله من أتاك بإبن هرمة سكراناً فأجلده مائة وأجلد ابن هرمة ثمانين، فكان العون إذا مروا به يقول من يشتري مائة بثمانين فيتركونه ويمضون.

ومما يجري مع هذا ما أخبرنا به أبو أحمد قال: أخبرنا الكرماني قال: أخبرني أبو جعفر بن العييني عن أبيه، قال: حدثنا دعبل الشاعر أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس في مجلس لهم، فقال له أبو نواس مجلسنا هذا قد شهد اجتماعنا فيه ولهذا اليوم ما بعده، فليأت كل امرئ منكم بأحسن ما قاله فلينشدناه فأنشد أبو الشيص:

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي	متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة في هواك لذيذة	حباً لذكرك فليلمني اللوم
اشتبهت أعدائي فصرت أحبهم	إذ كان حظي منك حظي منهم
وأهنتني فأهنت نفسي صاغراً	ما من يهون عليك ممن يكرم

فجعل أبو نواس يعجب من هذا الشعر حتى لا يكاد ينقضي عجبه، وأسلم مسلم أبياتاً من شعره الذي يقول فيه:

موف على مهج في يوم ذي رهج	كأنه أجل يسعى إلى أمل

فقال له أبو نواس: هات يا أبا علي وكأني بك قد جئتنا بأم الفلا:

لا تعجبي يا سلم من رجل	ضحك المشيب برأسه فبكى

فقلت كأنك كنت في نفسي ثم سألوه أن ينشدهم فأنشدهم:

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند	وأشرب على الورد من حمراء كالورد
كأساً إذا نزلت في حلق شاربها	أبصرت جمراً بها في العين والخد

والخمر ياقوتة والكأس لؤلؤة ... من كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها ... خمراً فما لك من سكرين من بد
لي نشوتان وللندمان واحدة ... شيء خصصت به من دونهم وحدي

قال: فقاموا فسجدوا له. قال: أفعلتموها أعجمية. لا كلمتكم ثلاثاً وثلاثاً وثلاثاً، ثم قال تسعة أيام وهجر الأخوان كبيرة وفي هجر بعض يوم استصلاح للفاسد وعقوبة على الهفوة، ثم التفت إلينا فقال: أعلمتم أن رجلاً عتب على أخ له في المودة، فكتب إليه المعتوب عليه: يا أخي إن أيام العمر اقل من أن تحتمل الهجر. قال أبو هلال فأخذ هذا المعنى بعضهم فقال:

الدهر أقصر مدة ... من أن يمحق بالعتاب

وقال في معناه:

لا تعن الدهر على مبتل ... يرجوك أن تكفيه الدهر
وعد إلى الوصل فعمر الفتى ... أقصر أن يحتمل الهجر

أول من قطع في السرقة الوليد بن المغيرة

قطع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الإسلام وجاء به القرآن في قوله تعالى: "والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما" وكانت قريش تحكم بذلك. وروى العلماء أن بيت مقيس بن عبد القيس السهمي كان مألفاً لشبان قريش وكان له قينتان يقال لهما أسماء وعثمة يغنيانهم، وكان ديك ودبيك الخزاعيان يخدمانهم، فنفد شرابهم ذات يوم ونفقتهم، فعمد أبو لهب وكان من جملتهم إلى غزال كان في الكعبة فتناوله ليلاً وكسره وأخذ ما فيه من ذهب وياقوت، وكان له قرطان وهبهما لأسماء وعثمة ثم صاروا إلى عبر نزلت بالأبطح تحمل الخمر فاشتروا كل خمر فيها فشربوا شهراً، ثم مر العباس بن عبد المطلب بدور بني سهم عشياً فسمع القينتين تغنيان بقول الشاعر:

إن الغزال الذي كنتم وحلتيه ... تقنونه لخطوب الدهر والغير
طافت به عصبة من شر قومهم ... أهل التقى والعلى والبيت ذي الستر
واستقسموا فيه بالأزلام علكم ... أن تحضروا بمكان الرأس والأثر

فعرف العباس أبا طالب فجاء في نفر حتى دنوا من الباب فسمعوا أبا سامع يقول للقينتين غنياهم بقولي:

أبلغ بني النضر أعلاها وأسفلها ... إن الغزال وبيت الله والركن

أمست قيان بني سهم تقسمه لم يفل عند نداماهن في الثمن

وقهوة مرة تغلي التجار بها غانية عتقت في الدن من زمن

فلما صحوا هرب بعضهم وأخذت القينتان فوجد عندهما القرطان فقالتا: إنما نحن أمتان فخليتا وأخذ ديك فقطعت يده وتجافوا عن أبي لهب لشرفه، وكان الغزال أهداه إلى البيت اسفنديار الفارسي حين سمع بذكر البيت يحج إليه.

أول من كسا البيت: أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن العباس قال: حدثنا الفضل بن عبد العزيز قال: حدثنا إبراهيم الجوهري قال: قال الواقدي: حدثني حزام بن هشام عن أبيه قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسب أسعد الحميدي وهو تبع، وقال أنه أول من كسا البيت وزاد غيره، فقال هو أبو كرب وهو أول من جعل للبيت مفتاحاً وقال:

وكسونا البيت الذي حرم الله ملاء معصدا وبرودا

ونطاعاً من الخصاف فرشنا وجعلنا لبابه إقليدا

وقال فهاتان منقبتان لليمن ليس في العرب لهما أخت ولا سنة.

حدثنا بإسناده عن الواقدي قال: حدثني إسماعيل بن إبراهيم بن أبي ربيعة عن أبيه قال: كسي البيت في الجاهلية الانطاع، ثم كساه النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية، ثم كساه عمر وعثمان القباطي ثم كساه الحجاج ديباجاً. والصحيح أن أول من كساه الديباج ابن الزبير، وقيل يزيد بن معاوية، وقيل عبد الملك، وأول من خلق البيت ابن الزبير، وأول من أحرمه يزيد بن معاوية وهم الذين كانوا يسترون البيت.

أول من نسأ النسيء القلمس

وهو حذيفة بن عبد بن فقيم وتوارثه بنوه فكان آخرهم الذي أدرك الإسلام أبو ثمامة.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا عبد الله عن الفضل عن إبراهيم عن الواقدي قال: كانت العرب إذا فرغوا من حجهم اجتمعوا بمنى إليه يعني القلمس، فأحل لهم من الشهور ما أحل وحرم ما حرم، فأحلوا ما أحل وحرموا ما حرم، وكان إذا حرم أربعة الأشهر ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي حرم الله حرموها، فإذا أراد أن يحل منها شيئاً أحل المحرم فأحلوه وحرم مكانه صفراً فحرموه لتواطئ عدة أربعة الأشهر، فلما أرادوا الصدر اجتمعوا إليه فقال: إني أحللت دماء المحلين من طيء وخثعم فاقتلوهم حيث

ثقفتموهم، وإنما أحل دماء طيء وخثعم لأنهما يصيبان الناس في الأشهر الحرم. قال جزل الطعان يفتخر بالنسيء:

لقد علمت معد أن قومي كرام الناس إن لهم كراما
وأي الناس فأتونا بوقر وأي الناس لم يعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معد شهور الحل نجعلها حراما

أول من بوب بمكة باباً حاطب بن بلتعة

وفيه نزل قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة" وكان كتب إلى أهل مكة يعرفهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد غزوهم، فأنزل الله تعالى هذه السورة واحتج بها المرجئة وقالوا: هذا فعل مثل هذا الفعل و لم يخرج من الإيمان، قيل لهم قال الله تعالى في آخر الآية: "ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل" أفتسمونه ضالاً فإن قالوا نعم قلنا في الخروج من اسم الإيمان مثل ذلك، فإن قيل هذا يعني أنه من يفعل بعد النهي والوعيد قلنا مثله.

أول من سقف بها بيتاً وكانوا ينزلون العريش

وأول من اتخذ بها روشناً بديل بن ورقاء الخزاعي، وهو أول من بنى بها بيتاً مربعاً، وكانوا لا يبنون بها بيتاً مربعاً لأن الكعبة مربعة فلا يبنون بها بيتاً رفعاً لشأنها وتشريفاً لأمرها، وأول من بنى بها بيتاً سعد بن سهم، فقال عبد الله بن وداعة يفتخر:

وسعد السعود جامع الشمل إنه بدا الحلف والأحلاف أهل خلاف
وأوثق عهد الحلف والود بينهم بأمر حصيف فيهم ونصاف
وذلك ما أرسى ثبير مكانه وما بل بحر صوفة بنطاف
وأول من بوب بمكة بيته وسور فيها مسكناً بأثاف
وأكرم من تحت السماء أبوة وأمجد أما عطفت بعطاف
فذاك ابن نعم شاد غير مكلف ولكن بأفضال وفضل عفاف

والنطاف: جمع نطفة وهي الماء يقال نطفة عذبة أي ماء عذب.

ومن أوائل أفعالهم حلف الفضول: أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو عمر القاضي قال: حدثنا عبد الله بن شبيب عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن عبد الله بن عروة، عن حكيم بن حزام، وأخبرناه عن الطوس، عن

الزبير بن بكار، عن رجل، عن محمد بن حسن، عن محمد بن فضالة، عن هشام بن عروة، عن عائشة. وأخبرناه عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة يزيد بعضهم على بعض فجعلت أحاديثهم حديثاً واحداً أن رجلاً من بني زبيد من مذحج قدم مكة بسلعة فباعها من العاص بن وائل وكان شريفاً فظلمه ثمنها، وأبت الأحلاف عبد الدار ومخزوم وجمح أن يعينوه عليه فأوفى الزبيدي على أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش حول الكعبة فصاح بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ببطن مكة نائي الدار والنفر

ومحرم شعث لم يقض عمرته يا للرجال وبين الحجر والحجر

هل مخفر من بني سهم لحضرته فعاذل أن ضلال آل معتمر

إن الحرام لمن تمت حرامته ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقال الزبير بن عبد المطلب: ما لهذا مترك فاجتمعت زهرة وتيم وأسد في دار عبد الله ابن جدعان وصنع لهم طعاماً فتحالفوا ليكونن يداً على الظالم للمظلوم حتى يردوا حقه إليه وعلى التأسي في المعاش فقالت قريش: قد دخل هؤلاء في فضل من الأمر ثم أتوا العاص بن وائل فانتزعوا سلعة الزبيدي من يده فدفعوها إليه وقال الزبير وكان صاحب هذا الحلف:

إن الفضول تحالفوا وتعاقدوا ألا يبيت ببطن مكة ظالم

وورد رجل من خثعم مكة ومعه بنت له يقال لها "القتول" من أحسن الناس وجهاً فعلقها نبيه بن الحجاج وغلب عليها أبويها، فأتى أبوها حلف الفضول فحالوا بينها وبينه. قال نبيه: اتركوها عندي الليلة، فقالوا: ما أجهلك ولا شخب ناقة فقال نبيه:

لولا الفضول وحلفها والخوف من عدوانها

لدنوت من أبياتها ولطفت حول خبائها

وشربت فضلة ريقها ولنمت في أحشائها

وقال:

راح صحبي ولم أحي القتولا لم أودعهم وداعاً جميلا

إذا بدا للفضول أن يمنعوها قد أراني ولا أخاف الفضولا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: قد شهدت مع عمومتي في دار ابن جدعان من حلف الفضول ما لو دعيت عليه اليوم لأجبت، وما احب أن سينقضي ولي حمر النعم. ثم كان بين الحسين عليه السلام وبين معاوية كلام في أرض للحسين، فقال الحسين لابن الزبير: خيره في ثلاثة والرابعة الصلح: أن يجعلك أو ابن عمر بيني وبينه، أو يقر بحقي ثم يسألني أن أهبه له، أو يشتريه مني فإن أبى فوالذي نفسي بيده لأهتفن عليه بحلف الفضول فقال ابن الزبير: والله لئن فعلت وأنا قاعد لأقومن أو قائم لأمشين أو ماش لأشتدن حتى تفنى روحي مع روحك، ثم خيره بين ابن الزبير أو ابن عمر فقال معاوية: لا حاجة لنا في الصلح واشتراها منه. هكذا رواه لنا أبو أحمد عن الطوسي بإسناده الذي تقدم ورواه لنا أيضاً في كتاب أمر المدينة أن هذه القصة كانت للحسين مع الوليد بن عقبة بن أبي سفيان وهو يلي المدينة.

أول من أهدى البدن إلى البيت إلياس بن مضر

وهو أول من وضع الركن بعد ذهابه في الطوفان، وقال بعض المفسرين إياه عنى الله تعالى في قوله: "سلام على آل ياسين" يعني إلياس بن مضر وأهل دينه جميعهم بالياء والنون كأن كل واحد منهم إلياس. وقال بعضهم إلياس والياسين بمعنى واحد كما تقول ميكال وميكائيل وقرئ على آل ياسين يعني محمداً صلى الله عليه وسلم.

أول من غير الحنيفية وبحر البحيرة
وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحلم عمرو ابن لحي:

وهو عمر بن ربيعة أبو خزاعة، وهو أول من ولي البيت منهم، ثم رحل إلى قومه بالشام، ورأى الأصنام تعبد فأعجبته عبادها، وقدم مكة بهبل ودعا الناس إلى عبادته وإلى مفارقة الحنيفية، فأجابه الجمهور وأكثره من لم يجبه حتى استقر لهما أراد منه.

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "أطلعت في النار فرأيت عمرو بن لحي يجر قصبه فيها"- والقصب المعات.

وكان الأصل في عبادة الأوثان أن قوماً من الأوائل اعتقدوا أن الكواكب تفعل أفعالاً تجري في النفع والضر مجرى أفعال الآلهة على حسب ما يعتقده بعض أهل التنجيم، فاتخذوا عبادها ديناً وأراد ملوكهم ورؤساؤهم توكيده في أنفسهم والزيادة فيه عندهم، وذلك أن الملك يحتاج إلى الدين كحاجته إلى الرجال والمال. لأن الملك لا يثبت إلا بالتبعة والتبعة لا تكون إلا بالإيمان والإيمان لا يكون إلا لأهل الأديان. إذ لا يصح أن يحلف الرجل إلا بدينه ومعبوده ومن لا يعتقد معبوداً لا يوثق بيمينه ولا يطمأن إلى عهده وعقده

إلى غير ذلك مما يتعلق من أمر الملك بالدين، فصنعوا لهم الأصنام على صور الكواكب التي يعبدونها بزعمهم ليشاهدوها من قرب، فتحلوا في نفوسهم وتزكوا محبتها في قلوبهم، ثم انتشر ذلك في أكثر الأرض وعم جل الأقاليم. وسمعت المشايخ يذكرون أن بعض المراكب أخطأ السمت الطريق في بعض البحار حتى انتهى أهله إلى جزيرة وإذا فيها ناس لم يعرفوا قط أن في الأرض ناساً غيرهم، وعرف بدلائل المكان أن أحداً منا لم يخلص إليهم قط، وإذا هم يعبدون الأصنام ووقفوا من جهتهم بالإشارة إلى أن السبب الذي دعاهم إلى عبادتها هو الذي ذكرناه في أمر الكواكب، وهذا من أعجب ما في هذا الباب والله أعلم.

وزعمت العرب أنها تعبد الأصنام لتشفع لها عند الله، وهذا مثل ما حكى عن بعض السؤال أنه كان يقول: "اللهم أرزق الناس حتى يعطوني" فقال له أبو الحارث حميد: ما لك تسأل الله سفتجة بالرزق. سل الله يرزقك، وكان ينبغي للعرب أن يعبدوا الله ليرحمهم ولا يحتاجون إلى إقامة شفيع.

وعمرو بن لحي أول من بحر البحيرة وسيب السائبة وجعل الوصيلة والحام.

والبحيرة: الناقة إذا نتجت خمسة أبطن فإن كان الخامس أنثى بحروا أذنها أي شقوها، وكانت حراماً على النساء لحمها ولبنها وإن كان ذكراً نحروه للآلهة ولحمه للرجال دون النساء.

والسائبة: البعير يسيب بنذر يكون على الرجل أن سلمه الله من مرض أو بلغه منزلة أن يفعل ذلك فلا يحبس عن رعي ولا ماء ولا يركبه أحد.

والوصيلة: من الغنم كانوا إذا ولدت الشاة سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكراً ذبح فأكل منه الرجال والنساء وإن كان أنثى تركت وإن كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها فلم تذبح لمكانها، وكان لبنها وجميع منافعها حراماً على النساء وإن وضعته ميتاً اشترك في أكله الرجال والنساء.

وقالوا: السائبة الأنثى من الإبل يسيبها الرجل لآلهته ومن البقر والغنم فيكون ظهورها وأولادها وأصوافها وأوبارها وأشعارها للآلهة وألبانها للرجال دون النساء.

والحامي: الفحل إذا ركب ولد ولده وقالوا إذا نتج من صلبه عشرة أبطن قالوا حمي ظهره فلا يركب ولا يمنع من كلأ ولا ماء.

الباب الثاني

محتوياته

أول ما قيل الجاهلية

جاءت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن أباً لي أصيبت في الجاهلية فأنزل الله تعالى: "الجاهلية الأولى" وكانت قريش تسمى في الجاهلية العالمية لفضلهم وعلمهم. قال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبي لهب:

ألسنا أهل مكة عالمياً وأدركنا السلام بها رطاباً

والسلام، الحجارة والعرب تزعم أن الحجارة كانت رطبة لينة. قال ابن العجاج:

قد كان ذلك زمن القحطل والصخر مبتل كطين الوحل

وقال مقاتل بن سليمان: أثرت قدم إبراهيم عليه السلام في الصخر كتأثير أقدام الناس في ذلك الزمان في الصخور، إلا أن الله تعالى سوى تلك الآثار وعفاها ومسحها ومحاها سوى أثر قدم إبراهيم عليه السلام تكرمة له وإرادة لتخليد ذكره، وكانوا يقولون إن كل شيء كان يعرف وينطق قال أمية:

بآية كان ينطق كل شيء وخان أمانة الديك الغراب

ويقولون: إن الأشجار لم يكن لها شوك قال الشاعر:

وكان رطيباً يوم ذلك صخرها وكان حصيداً طلحها وسيالها

وإن ذلك إنما تغير حين عصى ابن آدم في قتله أخاه، وإن الأرض لما شربت من دم المقتول عوقبت بعشر خصال أنبت فيها الشوك. وصير فيها الفيافي. وخرق فيها البحار. وملح طعمها. وطعم أكثر مياهها. وخلق فيها الهوام والسباع. وجعلت قرار العاصين. وصير جهنم فيها. وجعل ثمرها لا يأتي إلا في حين. وجعلت توطأ بالأقدام. ثم لم تشرب بعد دم ابن آدم دم أحد من ولده ولا غير ولده. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأبي مريم الحنفي وكان قتل أخاه زيداً يوم اليمامة: "إني لأشد بغضاً لك من الأرض للدم". فقال أبو مريم: أو يضر بي ذلك؟ قال: لا. قال: فلا أبالي. ويقال: إن الحية كانت مثل الجمل وكانت تطير، فدخل فيها إبليس فطارت به حتى أدخلته الجنة فأغوى آدم فصيرت ملعونة. قال عدي بن زيد:

وكانت الحية الرقطاء إذ خلقت كما ترى ناقة في الخلق أو جملا

قال: فعوقبت بقص جناحيها وقطع أرجلها وأعراء جلدها وشق لسانها وإلقاء عداوة الناس عليها ونسب الكذب والظلم إليها، فقيل؛ أكذب من حية وأظلم من حية، وكذبها أن تنطوي في الرمل على الطريق فتصير كأنها طبق خيزران. ومنها حيات بيض تستدير فتحسب خلاخيل أو أساور وذلك لتغري الناس

فتهلكهم، وظلمها أنها لا تمر بحجر فتدخله إلا هرب صاحبه منه وخلاه إلى غير ذلك من حشو كثير وتخليط طويل عريض.

أول من خطب على العصا والراحلة

قس بن ساعدة الأيادي

وهو أول من أظهر التوحيد بمكة وما حولها مع ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل، ولو لم يكن من فضل قس إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم روى عنه لكفاه فخراً.

أخبرنا أبو أحمد عن أبيه، عن عسل بن ذكوان، عن يحيى بن عبد الحميد الوراق، عن أبي معاوية عن الأعمش عن مسلم بن مسروق عن عبد الله قال: قدم وفد أياد على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "ما فعل قس بن ساعدة"؟ قالوا: هلك يا رسول الله. فقال: كأني أنظر إليه بسوق عكاظ يخطب الناس على جمل أحمر ويقول: أيها الناس اسمعوا وعوا من عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت ليل داج ونهار ساج وسماء ذات أبراج ونجوم تزهر وبحار تزخر وجبال مرساة وأرض مدحاة وأنهار مجراة إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً ما بال الناس يذهبون فلا يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا فناموا يقسم قس بالله قسماً لا إثم فيه إن له ديناً هو أرضى له وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه أنكم لتأتون من الأمر منكراً ثم أنشأ:

في الذاهبين الأولين	من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للموت	ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها	يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إلي	ولا من الباقين غابر
أيقنت أني لا محالة	حيث صار القوم صائر

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: "يعرض هذا الكلام يوم القيامة على قس بن ساعدة فإن كان قاله لله فهو من أهل الجنة" .

وهو أول من قال "أما بعد". أخبرنا أبو القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم عن العقدي عن بعض رجاله قال: أوصى قس بن ساعدة ولده فذكر الله ثم قال: "أما بعد" - وهو أول من قالها - فإن المعا تكفيه البقلة وترويه المرقة، ومن عيرك شيئاً ففيه مثله، ومن ظلمك يجد من يظلمه، وإن عدلت على نفسك عدل

عليك من فوقك، وإذا نهيت عن شيء فابدأ بنفسك، ولا تجمع ما لا تأكل، ولا تأكل ما لا تحتاج إليه، وإذا أخرت فلا يكونن كترك إلا فعلك، وكن عف العيلة، مشترك الغنى، تسد قومك، ولا تشاور مشغولاً وإن كان حازماً، ولا جائعاً وإن كان فهما، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً، ولا تدع في عنقك طوقاً لا يمكنك نزعه إلا بشق نفسك، وإذا خاصمت فاعدل، وإذا قلت فأقصر، ولا تستودعن سرك أحداً فإنك إن فعلت ذلك لم تزل وجلاً، وكان المستودع بالخيار إن جنى عليك كنت أول ذلك وإن وفى لك كان الممدوح دونك.

أول من قال أما بعد

وقالوا: أول من قال "أما بعد" داود عليه السلام وهو قوله تعالى: "وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب" . اخبرنا أبو أحمد عن الصولي عن زياد بن الخيل عن إبراهيم بن المنذر عن عمر بن عبد العزيز عن أبي الزناد عن أبيه عن بلال بن أبي بردة عن وجد أبي موسى انه قال: فصل الخطاب "أما بعد" . وقال الشعبي كذلك، ومعناه أنه يفصل بين الحمد لله وغيره مما يبتدأ به وبين ما يجيء بعده من القول. قال الشاعر السابق اليزيدي:

اسم الذي أنزلت من عندك السور　　　والحمد لله أما بعد يا عمر
فإن رضيت بما يأتي وما يذر　　　فكن على حذر قد ينفع الحذر

وقال آخر:

سأرعى منك ما ضيعت مني　　　وهل يرعى لذي غدر زمام
وأما بعد فالدنيا علينا　　　مكدرة لفقدك والسلام

والمراد أنها لا تقع مبتدأة، ويجوز أن تقع بعد بسم الله الرحمن الرحيم، ولا بد من مجيء الفاء بعدها، لأن أما لا عمل لها إلا اقتضاء الفاء لأن الفاء تصل بعض الكلام ببعض وصلاً لا انفصال بينه ولا مهلة فيه وأما فاصلة واثبت بالفاء لرد الكلام على أوله. وقال الضحاك بن مزاحم: فصل الخطاب العلم بالقضاء. وقال شريح والحسن: فصل الخطاب الشهود والإيمان ذهباً إلى أنه بهما يجب الحكم وتفصل الأمور.

أول من كتب من فلان إلى فلان

وهو أول من كتب من فلان إلى فلان. رأيت في بعض الكتب أن قسا كتب إلى بعض من هو على نحلة.

من قس بن ساعدة إلى فلان بن فلان- وهو أول من كتب بذلك- ورأيت بعده كلاماً زدنا في اللفظ والوصف عليه فأخذت معناه وكسوته الألفاظ من عندي وزدت عليه ليحسن. أما بعد؛ فإنك لا تفوت ربك بنفسك فكن عند رضاه وأحذر سخطه يكفك المهم ويدرأ عنك غائبة الملم وانظر ماذا تجرح فإنك مجزى بما تكدح، وكن لله يكن لك، وعليك بالصبر فإنه من أوكد أسباب النصر. وإياك والإضاعة فإنه لا يبقى عليها الكثير ولا يتبين معها القليل ولا تصحبن أحمق ولا فاجراً ولا بخيلاً فالأحمق يوثقك والفاجر يوبقك والبخيل يسلمك. وأعلم أنه إذا أهملت نفسك لم تجد من يرعاها فتول من إصلاحها ما لا يقدر عليه غيرك والسلام.

أول من قضى في الخنثى عامر بن الظرب العدواني

أخبر أبو أحمد عن عبد الله بن العباس، عن الفضل بن عبد العزيز، عن إبراهيم الجوهري، عن الواقدي قال: لم يكن في العرب عضلة إلا أسندت إلى عامر بن الظرب. سئل عن الخنثى أتعطى حظ الذكر أو حظ الأنثى؟ فلم يدر ما يقضي فيه، فقالت جاريته: إجعله ليقم فليبل فإن خرج البول مما يكون للرجال فهو رجل وإن خرج مما يكون للنساء فهي امرأة فقضى به فاستمر ثم ثبت في الإسلام في كلا هذا معناه. وكان يقول في وصيته ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه وما رأيت موضعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً، ولا نعمة إلا ومعها بؤس، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء، سيرجع الميت حياً ويعود لا شيء شيئاً فنفرت العرب عنه فقال: ويل أمها نصيحة لو كان من يسمعها يقبلها.

أول من رجم في الزنا ربيعة بن حدار الأسدي

وذلك أن امرأة منهم هويت رجلاً واحتالت حتى هربت إليه وأهمه أنها هلكت، ثم لقيها بعض بنيها فعرفها ورفع أمرها إلى ربيعة بن حدار الأسدي فأمر برجمها فرجمت. وذكر أنها تمارضت ثم تماوتت حتى حملت إلى المقابر فدفنت، فلما انصرف القوم عطف عليها صديقها فأخرجها وذهب بها والله أعلم. هذا بعيد على أن النساء مع ضعف عقولهن ربما أبدعن في الحيلة وأجدن المكيدة ولا تتم حيلهن إلا على الرجال لاستضعافهم لهن واستغبائهم إياهن، وظنهم أن المرأة ليس لها قوة ولا عزيمة ولا يغلبك مثل مغلب.

ومن حيلهن ما حدثنا به أبو القاسم الكاغدي قال: أخبرنا العقدي عن المدائني أن ابن زائدة في فوارس لقوا رجلاً ببعض بلاد الشرك معه جارية لم ير مثلها شباباً وجمالاً فصاحوا به أن خل عنها ومعه قوس فرمى بعضهم فجرحه فهابوا الأقدام عليه، ثم عاد ليرمي فانقطع وتره فأسلم الجارية، واشتد في جبل كان

قريباً منه فابتدروها وفي أذنها قرط فيه درة فانتزعها بعضهم فقالت: ما قدر هذه؟ كيف لو رأيتم درتين في قلنسوته فأتبعوه فقالوا ألق ما في قلنسوتك وفيها وتر قوس كان أعده ونسيه فلما ذكره عقده في قوسه، فولى القوم ليس لهم هم إلا أن ينجوا بأنفسهم وخلوا عن الجارية.

وأخبرنا بإسناده عن المدائني قال: كان لرجل من الحوز ضيعة بالبصرة يغشاها في كل حين فتزوج بالبصرة فبلغ امرأته الحوزية ذلك، فلطفت حتى عرفت اسم ولي امرأته فافتعلت كتاباً منه إلى زوجها تعلمه فيه أنها ماتت فينبغي أن ترد البصرة لقبض ميراثها، فلما أصلح الرجل أمره للخروج قالت له: يا هذا قد أنكرت طول اختلافك إلى البصرة وقد تخوفت أنك تزوجت بها فلا تفارقني حتى تطلق كل امرأة لك بالبصرة، فقال في نفسه: ما عليّ أن أرضي هذه بما لا يضرني فحلف بالطلاق على كل امرأة بالبصرة، فلما فرغ قالت له دونك الجهاز فكله في بيتك فقد كفاك الله مؤونة السفر.

وأخبرنا بإسناده عن المدائني عن خالد بن كلثوم أن الفرزدق كان قد راود امرأة شريفة في قومها عن نفسها وهددها بالهجاء إن لم تطعه، فاستعانت بالنوار امرأة الفرزدق فقالت النوار: واعديه الليلة وأعلميني ففعلت، فجاءت النوار ودخلت الحجلة، وجاء الفرزدق ودخل ونحى السراج فلما واقعها قالت: يا فاسق قال: وأنت هي ما أطيبك حراماً وأرداك حلالاً.

وأخبرنا بإسناده عن المدائني عن الأصمعي عن الأخيل بن أبي الأخيل عن أدهم التميمي قال: لقيني كثير عزة فقال: لقيني جميل في الموضع الذي لقيتني فيه فقال: من أين أقبلت؟ قلت من عند أمي الحبيبة أعني بثينة قال: وأين تريد؟ قلت إلى الحبيبة أريد عزة قال: لا بد من أن ترجع عودك على بدوك فستجد لي موعداً من بثينة، فقلت عهدي بأبيها قال: لا بد. قلت: فمتى أخر عهدك بهم؟ قال: بالدوم وهو يرحضون ثيابهم. قال: فأتيت إياها، فقال: ما ردك يا ابن أخي؟ قلت: أبياتاً عرضت لي فأحببت عرضها عليك فأنشدته:

فقلت يا عز أرسل صاحبي ... على نأي دار والموكل مرسل

بأن تجعلي بيني وبينك موعداً ... وأن تأمريني بالذي فيه أفعل

وآخر عهدي منك يوم لقيتني ... بأسفل وادي الدوم والثوب يغسل

فضربت بثينة جانب الخدر وقالت أخسأ فقال أبوها: مهيم يا بثيبة؟ قالت: كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية قال: فرجعت إليه فأخبرته إنها وعدته إذا نوم الناس.

وأخبرنا بإسناده عن المدائني عن العتبي قال: كانت امرأة من بعض نساء أهل الشويرة خطبها رجال من

قريش منهم عبد الله بن عباس بن أبي ربيعة، فسأل عن أغلب الناس عليها فقيل مولاة لها فبذل لها ألفي درهم إن احتالت في صرفها إليه، فخلت بها المولاة ونصبت ذراعها تحت حنكها تنظر في وجهها وتتنفس الصعداء، فقالت مالك؟ قالت: أرحمك قالت: و لم؟ قالت: إن المرأة لا تنعم إلا بزوج وولد. قالت: قد خطبني رجال من قريش فلان وفلان وعبد الله بن عباس، فقالت أف أف لا تريدينه إني رأيته يبول ورأيت بين رجليه رجلاً ثالثة، فردت جميع من خطبها وأجابت عبد الله، فلما دخل بها رأته مثل الدر اللطيف فباتت بشر ليلة وقالت لمولاتها بكم بعتني؟ قالت بألفين قالت: لا أكلتها إلا في مرض.

أول من حكم أن الولد للفراش أكثم بن حنيفي

وكانت العرب لا تقدم عليه أحداً في الحكمة ومن كلامه أن قول الحق لم يدع لي صديقاً، الاقتصاد أبقى للجام، من لم يأس على ما فاته ودّع نفسه، من قنع بما هو فيه غني، التقدم قبل التندم، رأس الأمر خير من ذنبه، لن يهلك امرؤ عرف قدره، لم يهلك من مالك ما وعظك، ويل لعالم أمر من جاهله، أخذ بعضهم رأس الأمر خير من ذنبه فقال:

وراس أمر الفتى ... خير له من ذنبه

وقريب منه قول ابن الرومي:

أبنيّ إن فضول الحظ ميسمة ... فانظر لنفسك بعض الحظ واترك

وكن قلنسوة المملوك تحظ به ... ولا تكونن نعلي بذلة الملك

وقريب من قوله: من لم يأس على ما فاته ودع نفسه قول الآخر؛ إن حزنت على ما فات فاحزن على ما لم يأت، وقال النابغة:

اليأس عما فات ينفع راعية ... ولرب مطعمة تعود ذباحا

أول من خلع كان ثم أثبته الإسلام

ما كان من عامر بن الظرب

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد، عن الرياش، عن عمر بن بكير، عن الهيثم، عن عدي، عن مجالد، عن الشعبي قال: كان من حديث عامر بن الظرب أنه زوج ابنته ابن أخيه عامر بن الحارث بن الظرب وقال لأمها حين أراد البناء بها قولي لابنتك: لا تنزلن فلاة إلا ومعها ماء، وأن تكثر استعمال الماء، فإن الماء جعل للأعلى جلاء وللأسفل نقاء، وإياك أن تميلي إلى هواك ورأيك فإنه لا رأي للمرأة، ولا

تستكرهن زوجها على نفسه ولا تمنعه عند شهوته فإن الرضا في الإتيان عند اللذة ولا تكثر مضاجعة، فإن الجسد إذا مل مل القلب، فلما دخلت الجارية عليه نفرت منه و لم ترده، فأتى ابن أخيه العم فشكا إليه فقال له: يا ابن أخي إنها وإن كانت ابنتي فإن نصيبك الأوفر فاصدقني فإنه لا رأي لمكروب، وإن صدقتني صدقتك إن كنت نفرتها فاحفظ عصاك عن بكرتك تسكن، وإن كانت نفرت عنك من غير تنفير منك فذلك الداء الذي لا دواء له، وإلا يكن وفاق ففراق، وأجمل القبيح الطلاق ولن يترك أهلك مالك وقد خلعتها منك وأعطيتك مهرها وهي فعلت ذلك بنفسها، فزعم العلماء أن ذلك أول خلع كان.

أول من رفع له الشمع

وأول من احتذى بالنعال وأول من وضع المنجنيق وأول من ملك قضاعة بالحيرة جذيمة الأبرس

وكان أبرص فكني عنه بالأبرس والوضاح على أن بعض العرب تتبرك بالبرص وتمدحه قال ابن حبناء:

لا تحسبن بياضاً فيّ منقصة   إن اللهاميم في أقرانها بلق

وقال آخر:

يا كأس لا تستنكري نحولي   ووضحاً أوفى على خصيلي

وإن نعت الفرس الرحيلي   يكمل بالغرة والتحجيلي

وقال آخر:

أبرص فياض اليدين أكلف   والبرص أندى باللهى وأعرف

وقال آخر:

نفرت سودة عني إذ رأت   صلع الرأس وفي الجلد وضح

قلت يا سودة هذا والذي   يفرج الكربة عنا والكلح

هو زين لي في الوجه كما   زين الطرف تحاسين القرح

وزعم أبو نواس أن جذيمة كان يفخر بالبرص، ولو كان كذلك لما كني عنه بالبرص والوضح، وزعم أن بلعاء بن قيس لما شاع في جلده البرص قيل له ما هذا؟ قال: سيف الله جلاه. وقال آخر:

ليس يضر الطرف توليع البهق   إذا جرى في حلبة الخيل سبق

وكان الذي ملك جذيمة على ثغر العرب أزدشير بن بابك وأنزله الحيرة، وكان عقيماً لا يولد له واختلف في نسبه فقيل من العماليق، وقيل من الأزد، وقيل من تنوخ، وكان شديد الكبر فمن كبره إنه كان ينادم الفرقدين ذهاباً بنفسه يشرب قدحاً ويصب لكل منهما قدحاً. قال متمم:

وكنا كندماني جذيمة حقبة | من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأني ومالكاً | لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

حتى نادمه مالك وعقيل وفيهما يقول الشاعر:

تقول أراه بعد عروة لا هياً | وذلك رزء لو علمت جليل
فلا تحسبي إني تناسيت عهده | ولكن صبري يا أميم جميل
ألم تعلمي أن قد تفرق قلبنا | خليلاً صفاء مالك وعقيل

وجذيمة هو الذي يقول:

أضحى جذيمة في تزيين منزله | قد حاز ما جمعت من قبله عاد

وكان من أحسن الناس وجهاً فخطب الزباء بنت عمر بن طريف من العماليق، وكانت على الشام والجزيرة من قبل الروم، وكانت قد بنت على شاطئ الفرات من الجانبين قصوراً ومدائن وهي إلى اليوم قائمة خربة، وكانت حصينة لا يسلكها سالك ولا يدركها طالب، وقد سقفت في الفرات أنفاقاً بين مدينتيها تفزع إليها إذا حز بها أمر، وكانت تغزو من حولها من العرب فغزت دومة الجندل وتيماء وهو الأبلق فامتنع عليها فقالت تمرد مارد وعز الأبلق، فأرسلتها مثلاً فأجابت جذيمة وكانت بكراً فجمع أصحابه فاستشارهم فأشاروا عليه بالمضي، وخالفهم قصير بن سعد اللخمي وكان لبيباً وقال: إن النساء يهدين إلى الأزواج فعصاه وسار حتى كان بمكان يدعى بقة بين هيت والأنبار فاستشارهم فأشاروا عليه بالشخوص إليها لما علموا من رأيه فيها، فقال له قصير: انصرف ودمك في وجهك فأبى، فقال قصير: لا يطاع لقصير أمر فأرسلها مثلاً. وطعن جذيمة حتى عاين مدينتها والكتائب دونها هالة، فقال لقصير: ما الرأي؟ فقال: تركت الرأي ببئر بقة ثم قال: وعلى هذا إن لقيتك الكتائب فحيوك تحية الملوك وساروا أمامك فقد كذب ظني وإن أخذوا جنبيك فإني معرض لك العصا وهي لا يشق غبارها.
وكان جذيمة استعمل على ملكه ابن أخته عمرو بن عدي بن النضر بن ربيعة اللخمي فلم يشعر ذات يوم أن رأى العصا عليها قصير فقال: خبر ما جاءت به العصا فأخبره قصير الخبر، وقال: أطلب بثأرك منها. قال: كيف وهي أمنع من عقاب الجو. فقال قصير: أما إذا أبيت فإني سأحتال فدعني وعداك ذم فعمد قصير إلى أنفه فجدعه ثم أتى الزباء فقالت: لأمر ما جدع قصير أنفه، فقال اتهمني عمرو في مشورتي على

خاله بإتيانك فجدعني فلم تقر نفسي عنك وإن لي مالاً كثيراً بالعراق فأعطيني شيئاً وأرسليني بعلة التجارة حتى آتيك بما قدرت عليه من طرائف العراق ففعلت فأطرفها وزادها مالاً كثيراً، وقال هو ربح فأعجبها وسرت به فردته ثانية فأطرفها وزادها وتلطف حتى علم موضع الأنفاق ثم ردته ثالثة فأتى عمراً، فقال: أحمل الرجال في الصناديق على الإبل ففعل وفيهم عمرو، فلما وافاها نظرت إلى العير، فقالت: إن العير لتحمل صخراً أو تطأ في وحل وصنع لها رجز فقالت:

ما للجمال مشيها وئيداً	أجندلاً يحملن أم حدبدا
أم صرفاناً تارزاً شديداً	أم الرجال جثماً قعودا

ودخلت العير المدينة وكانت أفواه الجواليق مربوطة من قبل الرجال فحلوها ووقعوا إلى الأرض مستلمين وشدوا عليها فخرجت هاربة تريد السرب، فاستقبلها قصير وعمرو فضربها عمرو فقتلها، ويقال بل كان لها خاتم فيه سم فمصته وقالت: بيدي لا بيد عمرو فماتت وسبيت الذراري ونهبت الأموال، فقالت العرب في أمرها أشعاراً كثيرة، فمن ذلك قول المتلمس:

ومن حذر الأوتار ما حز أنفه	قصير ورام الموت بالسيف بيهن

وقال نهشل:

ومولى عصاني واستبد برأيه	كما لم يطع بالبقتين قصير
فلما رأى ما غب أمري وأمره	وولت بأعجاز الأمور صدور
تمنى أينسا أن يكون أطاعني	وقد حدثت بعد الأمور أمور

وقال عدي بن زيد:

ألا يا أيها المثري المرجى	ألم تسمع بخطب الأولينا
دعا بالبقة الأمراء يوماً	جذيمة ينتحي عصباً بتينا
فطاوع أمرهم إلا قصيراً	وكان يقول لو تبع اليقينا
ودست في صحيفتها إليه	ليملك بضعها ولأن تدينا
ففاجأها وقد جمعت فيوجاً	على أبواب حصن مصلتينا
فأردته ورغب النفس يردى	ويبدي للفتى الحين المبينا
وحدثت العصا الأنباء عنه	ولم أر مثلها فرساً هجينا

وقددت الأديم لراهشيه وألفى قولها كذباً ومينا

ومن حذر الملاوم والمخازي وهن المندبات لمن منينا

أطف لأنفه الموسى قصير ليجدعه وكان به ضنينا

فأهواه لمارنه فأضحى طلاب الوتر مجدوعاً مشينا

وصادفت أمراً لم تخش منه غوائله وما أمنت أمينا

فلما ارتد منها أرتد صلباً يجر المال والصدر الضغينا

أتتها العيس تحمل ما دهاها وقنع في السوح الدارعينا

ودس لها على الأنفاق عمراً بشكته وما خشيت كمينا

فجللها قديم الأثر عضباً يصك به الحواجب والجبينا

فأضحت من خزائنها كأن لم تكن زباء حاملة جنينا

وأبرزها الحوادث والمنايا وأي معمر لا يبتلينا

ولم أجد الفتى يلهو بشيء ولو أثرى ولو ولد البنينا

وإن أمهلن ذا جد عريض علقن به وإن فرطن حينا

ألم تر أن ريب الدهر يعلو أخا النجدات والحصن الحصينا

أول عربي لبس الطوق عمرو بن عدي

وكان عدي ينادم جذيمة فعشقته رقاش أخت جذيمة فحملت منه فلما خشيت الفضيحة قالت: إذا سكر الملك فأسأله أن يزوجني منك ففعل، ودخل عليها من ليلته واصبح هارباً من جذيمة فلما استبان حملها قال جذيمة:

حدثيني رقاش لا تكذبيني ألحرّ حملت أم لهجين

أم لعبد فأنت أهل لعبد أم لدون فأنت أهل لدون

فقالت حملت ممن زوجتني منه، فولدت عمراً فلما كبر فقد مدة ثم ظفر به مالك وعقيل النديمان فأتيا به جذيمة فحكمهما فسألاه منادمته فأجابهما إليها، وأرسل عمراً إلى أمه فزينته وألبسته طوقاً، فقال: شب عمرو عن الطوق فسار مثالاً فلما كان من أمر جزيمة ما كان قام عمرو مقامه فلم يزل هو وولده وهم آل المنذر على الحيرة من قبل الفرس حتى ملك قباذ بن فيروز بن يزدجرد بن بهرام جور، فأزالهم وملك

الحرث بن عمرو آكل المرار الكندي، فلما ملك أنو شروان بن قباذ ملك على الحيرة المنذر بن ماء السماء، فلما أقبل هرب الحارث وأتبعته خيل المنذر فأدركوا ابنه عمراً فقتلوه وفاز هو ثم قتلته كلب بسخلانة.

أول من اتخذ السياط مالك الأصبح

وهو ملك من ملوك اليمن فسمي السوط الأصبحي قال الراعي:

أخذوا العريف فقطعوا حيزومه　　　بالأصبحية قائماً مغلولا

وقال في لغز:

عليك سلام الأصبحية كلما　　　يحن أخو شوق لبعد ديار

فأنت أخو شين وخدن دناءة　　　وصاحب عار وابن أم شنار

أول من اتخذ الرحال العلافية حزم بن ذياب

وكانت العرب تركب المخاصر. قال ذو الرمة:

وليل كجلباب العروس أورعته　　　بأربعة والشخص في العين واحد

أصم علافي وأبيض صائم　　　وأعبس نهري وأروع ماجد

وأخذ المعنى البحتري فقال:

اطلبا ثالثاً سواي فإني　　　رابع العبس والدجى والبيد

قال أبو بكر بن دريد: علاف حي من العرب تنسب إليهم الرحال العلافية.

أول من وضع الكتاب العربي

قيل: إسماعيل عليه السلام. والصحيح عند أهل العلم أنه مرامر بن مرة، وأسلم بن سلاه وهما من أهل الأنبار وفي مصداق ذلك يقول الشاعر:

كتبت أبا جاد وحطي مرامر　　　وسودت سرباً لي وليست بكاتب

وسئل المهاجرون ممن تعلمتم الكتابة؟ قالوا: من أهل الحيرة. وسئل أهل الحيرة عن ذلك. فقالوا: من أهل الأنبار.

وقالوا: أول من وضعه أبجد وهوز وحطي وكلمن وسعفص وقرشت. وضعوا الكتاب على أسمائهم

وكانوا ملوكاً. وقد عظم الله أمر الكتابة وفخم شأنها فجعل ذكرها في أول ما أنزل من كتابه وهو قوله: "الذي علم بالقلم" وأكثر العلماء في وصف الخط فمن أجود ما قيل وأوجز قول بعضهم: الخط مركب البيان. وقال جعفر بن يحيى: الخط خيط الحكمة به لفصل شذوره وينظم منثوره فنظمته وقلت:

الكتب عقد شوارد الكلم والخط خيط فريد الحكم

بالخط نظم كل منتشر منها وفصل كل منتظم

وقال بشر بن المعتمر: القلب معدن، والخط جوهر، واللسان مستنبط، والعلم صانع، والخط صنعه. وقال أبو العينا: الخطوط رياض العلوم. وتخاير غلامان في خطيهما إلى سهل بن هرون فقال: هذا وشي محبوك وهذا ذهب مسبوك تسابقتما إلى غاية فتوافقتما في نهاية.

ومن فضل حسن الخط أنه يدعو الناظر إلى قراءته وإن اشتمل على لفظ مرذول ومعنى مجهول، وربما اشتمل الخط القبيح على بلاغة وبيان وفوائد، فيرغب الناظر فيه عن المنفعة به لوحشة صورته. وكان مشايخ الكتاب ودهاة العمال يختارون أن يكون ما يرفعونه من حسباناتهم إلى دواوين السلطان بخط قبيح ومداد ناضل ليثقل تصفحه فيترك استقصاء النظر فيه.

وقالوا: القلم قيم الحكمة. وقال بعضهم:

مستودع قرطاسه حكماً كالروض فرق بينه زهره

وكأن أحرف خطه شجر والشكل في أضعافه ثمره

أول من قال مرحباً وأهلاً سيف بن ذي يزن

قالها لعبد المطلب بن هاشم لما وفد إليه مع قريش ليهنئوه برجوع الملك إليه. وذلك أن عبد المطلب قال له بعد أن دعا له وهنأه: نحن أهل حرم الله وسدنة بيته أشخصنا إليك الذي أبهجنا لك، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة فقال: وأيهم أنت؟ فقال: عبد المطلب. قال: مرحباً وأهلاً وناقة ورحلاً ومناخاً سهلاً وملكاً ربحلاً يعطي عطاء جزلاً. ومعنى مرحباً وجدت رحباً أي سعة أهلا أي وجدت أهلاً كأهلك. وقال الفراء: معناه رحب الله بك وأهلك على الدعاء فأخرجه مخرج المصدر ومعنى رحب وسع.

أول من اتخذ أسنة الحديد سيف بن ذي يزن

أمر معصماً وهو قين فاتخذها. وكانت أسنة العرب قبل ذلك قرون البقر الوحش، وفي مصداق ذلك يقول الشاعر:

تقلب صعدة جرداء فيها　　　　نقيع السم أو قرن محسن

أول من حرم القمار اقرع بن حابس

أخبرنا القاسم عبد الوهاب بن إبراهيم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني وغيره قالوا: أول من حرم القمار اقرع بن حابس. بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرع بن حابس حكم العرب في كل موسم بعكاظ وهو من المؤلفة قلوبهم وهم: أبو سفيان بن حرب. وابنه معاوية. وحكيم بن حزام، والحرث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وحويطب بن عبد العزى، وعيينة بن حصن، ومالك بن عوف، والأقرع بن حابس.

أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم كل واحد من هؤلاء مائة من الإبل إلا صفوان بن أمية فإنه أعطاه شعباً بما فيه من نعم وغنم فتكلمت الأنصار، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير وتذهبون برسول الله"؟ فرضوا. وعندها قال ذو الخويصرة التميمي لرسول الله : هذا عطاء لا يراد به وجه الله، فغضب رسول الله وقال:"إذا لم أعدل فمن" وأعطي عباس بن مرداس أربع قلائص فقال:

أتجعل نهبي ونهب العتيد　　　　بين عيينة والأقرع

وما كان حصن ولا حابس　　　　يفوقان مرداس في مجمع

وقد كنت في القوم ذا مدرأ　　　　فلم أعط شيئاً ولم أمنع

إلا قلائص أعطيتها　　　　عديداً قوائمها الأربع

فزيد حتى رضي، وعتيد: اسم فرسه.

أول من احدث الحداء

اخبر أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن يزيد بن حكيم، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة. وحدثنا بإسناده عن أبي زيد عن أبي عاصم عن عبد الله بن مجاهد وغيره قالوا: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم سائر إلى تبوك إذ سمع حداء فأسرع فقال: ممن أنتم؟ قالوا: من مضر. قال: وأنا من مضر فاحدوا قالوا: إنا لأول من حدا بيننا خيار مياسير. قال لبعض أصحابه: ألا تترل فتسوق؟ قال: نحن على

ظهورها ولا ندري ما نقول فكيف إذا كنا عند أستاهها؟ فضربه بعصا فصاح بأيدي وسارت الإبل، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل رجل من أصحابه يسوق ويقول:

تا الله لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله قائلها قالوا: وجبت وقائلها هو علي بن الأكوع ضرب العدو فقصر السيف فأصابه فمات، وكانوا يكتبون من مات شهيداً فشكوا في علي حتى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول في كلام هذا معناه.

قال الشيخ أبو هلال رحمه الله: وأمر الصوت عجب منه ما يقتل كصوت الصاعقة، ومنه ما يسر ويبهج حتى يرقص، ومنه ما يقلق، ومنه ما يبكي، ومنه ما يزيل العقل ويورث الغش، وقد بكى ما شرحويه من قراءة أبي الجراح فقيل له كيف تبكي من كتاب لا تصدق به؟ قال: إنما أبكاني الشجا. وبه ينومون الصبيان ويسقون الدواب بالصفير وتصر آذانها إذا غنى المكاري، وتزيد الإبل في مشيها ونشاطها إذا حدا بها الحادي، ويستخرج به الحية من جحرها فيظن العامة أن ذلك إنما يكون بالرقي وليس كذلك، ولكن للصوت في طباعها تأثير، والرعد الشديد إذا وافق سباحة السمكة في أعلى الماء رمت بيضها، والحمامة ربما رمت بيضها قبل الجل وتسمع الرعد فيتعضل عليها أياماً بعد طول الأجل، وإذا قلت الرعود في السنة قلت الكمأة فيها، وأهل البطائح يبنون حظيرة في الماء ويصيحون حولها فيجتمع السمك إليها حتى تمتلئ، وأهل الصناعات إذا خافوا الملال ترنموا وينشط الرهبان أنفسهم بألحان يمجدون الله بها ويستريحون من التعب والسهر إليها، وللنفس قوى شريفة من الحلم والجود والشجاعة تتحرك بالنغمات، ومن الأصوات ما يشجع ويغري مثل أصوات الدبادب والبوقات ولذلك اتخذت في الحروب، وقالوا إذا سمعت الإبل ضرباً وزمراً أقبلت وطأطأت رؤوسها حتى كادت تنام، وعندهم أن المريض إذا سمع أصوات المزاهر خف ما به، ويستبدل الطفل إذا سمعها ضحكاً ببكائه، ويزعمون أن الغناء يفتح أبواب الرأي ويسدد الفكر. وكان الاسكندر إذا التبس عليه أمر أمر بالغناء، وإذا توجه له الرأي قطعه. وكانت ملوك العجم إذا نابتها نائبة لجأوا إلى اللهو والغناء ويستفتحون به وجوه الرأي. ولما بلغ أنوشروان أن خاقان غلب على أرمينية ونهب وسلب استقبله بالملاهي والزمر، فظن خاقان أن ذلك استصغاراً له ففر منهزماً ونبذ ما كان أفاده، فقالت الأعاجم: إن الملك الموكل بالفرح هو الذي فله ودفعه وكانوا يتيمنون بعد ذلك بالغناء والملاهي. وقالوا: لا يكره السماع إلا ذوو الطباع الفاسدة والأنفس الكدرة كما أن الطيب لا يعافه الأكل مأووف المشام وليس طرب من طرب على الغناء من أجل المعاني لأن أكثرهم لا يفضله على معنى، وليست

لأصوات البلابل والهزارات والقماري والورشانات معان، وهي على ما نعرفها معجبة مطربة مذكرة لمعاهد الآلات وإدمان التواصل والإسعاف، وذلك موجود في إشعار العب، كقول حميد بن ثور:

وما هاج هذا الشوق إلا حمامة ... دعت ساق حزم حمام ترنما

عجبت لها أنى يكون غناؤها ... فصيحاً ولم تفغر بمنطقها فما

ولم أر مثلي شاقه صوت مثلها ... ولا عربياً شاقه صوت أعجما

ودخل أبو تمام أزدشهر وهي نيسابور فسمع في بعض لياليه فيها مغنية تغني بالفارسية فعشق صوتها ثم أحضرها، فلما اكثر منها فتن بها وما كان يعرف شيئاً مما تغني له فقال:

حمدتك ليلة شرفت وطابت ... أقام سهادها ومضى كراها

سمعت بها غناءً كان أولى ... بان تنقاد نفس من غناها

ومسمعة تفوق النفس حسناً ... ولم تصممه لا يصمم صداها

مرت أوتار هافقت وشاقت ... ولو يستطيع حاسدها فداها

ولم أفهم معانيها ولكن ... ورت كبدي فلم أجهل شجاها

فكنت كأنني أعمى معنى ... يحب الغانيات ولا يراها

أخذه ابن بشار فقال:

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة ... والأذن تعشق قبل العين أحيانا

ويقال، إن من الألحان الفارسية لحناً يسمى القمى لا يسمعه أحد إلا طرب عليه عرفه أم لم يعرفه وإن الذي سمعه أبو تمام كان ذلك اللحن.

أول عربي قتل خنقاً

عدي بن زيد وبكى أبا عمرو، وكان في ترجمة كسرى فأرسله إلى قيصر فحمد أمره وعظم عنده، وكان يسكن الحيرة فوردها وهو من أنبل أهلها ولو أراد أن يملكه كسرى لفعل إلا أنه كان مشغوفاً بالصيد واللهو، وأراد كسرى أن يستعمل عليها فاستشاره، فأشار بالنعمان بن المنذر ثم قدم به عليه، وقال له: إن سألك كسرى فقال: أتكفيني العرب وأخوتك، وكانوا مع النعمان اثنا عشر رجلاً فقل إذا أنا لم أكفكهم فأنا عن غيرهم أعجز، وقال لأخوته: قولوا نكفيك العرب إلا النعمان، فلما قالها انصرف عنهم كسرى وأمر عدياً أن يملك النعمان فملكه، فغضب عدي بن أوس من مزينة، وكان يريد الملك للأسود بن المنذر،

فصنع عدي بن زيد طعاماً لعدي بن أوس ودعاه إلى المحالفة ألا يبغي واحد منهما لصاحبه غائلة. وقام عدي بن زيد فحلف، فقال عدي بن أوس: وعلى مثل ما حلفت لا أزال أبغيك الغوائل حتى أموت، فما زال النعمان مكرماً لعدي بن زيد حتى دعاه عدي يوماً إلى طعام صنعه فركب إليه النعمان فاعترضه عدي بن أوس فاحتبسه فتغدى عنده فاحتفظها عدي بن زيد عليه فدعاه النعمان فأبى أن يأتيه، فأمر فسحب من منزله إليه فأثقله بالحديد وحبسه، وفي ذلك يقول عدي بن زيد وقد ماتت عنده في السجن امرأته أمية:

فاذهبي يا أمي غير بعيد لا يؤاتي العناق من في الوثاق

فاذهبي يا أمي إن يشأ الله يفرج من ضيق هذا الخناق

قد نبت في الخطوب التي قبلي فما بعدها إلى اليوم باق

لا تعدى ريب المنون ذوي آل خفض ولا من خيانة برماق

وقال أيضا:

ألا من مبلغ النعمان عني وقد تهدى النصيحة من مغيب

أحظي كان سلسلة وغلاً وقيداً والبيان لذي اللبيب

وهو أضحوا لديك كما أرادوا وقد يرجى النوال من المثيب

فما زال يسأله الإقالة ويستعطفه في مثل قوله:

أبلغ النعمان عني مالكاً أنه قد طال حبسي وانتظاري

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

نحن كنا قد علمتم قبلها عمد البيت وأوتاد الأصاري

نحن للهنا إذا استهنأتنا ودفاعاً عنك بالأيدي الكباري

ولج النعمان في حبسه، فكلم عمرو أخو عدي كسرى فيه، فأمر النعمان بتخليته فخاف أن يكيده إذا خلاه، فأرسل إليه من خنقه، وأعطى الرسول أربعة آلاف مثقال على أن يخبر الرسول كسرى أنه وجده ميتاً، فجزع كسرى لموته، فأراد النعمان أن يسكن منه، فكتب إليه: إني وجدت لعدي إبناً هو له خلف فكتب بأن يبعثه إليه ففعل واسمه زيد، فلم يزل يبغي الغوائل لنعمان عند كسرى، فقال له يوماً: رأيت رغبتك في النساء وعند آل المنذر منهن ما تشتهيه إلا أنهم يأنفون من مصاهرتك، فغضب و كتب إلى النعمان مع زيد بن عدي وأسوار معه يريده على تزويجه بعض بناته أو أخواته، فقال النعمان: أما وجد

الملك في مها السواد وفارس ما يكتفي به. فقال زيد للأسوار: أتسمع ما يقول؟ ثم ورد على كسرى فذكر أنه قال: أما للملك في بقر السواد كفاية، وإنما قال النعمان: المها وأراد الحسان حسب ما تقول العرب للمرأة الحسناء مهاة وظبية، فغضب كسرى وكتب إلى النعمان أقبل، وأحس بالشر فأتى طيئاً وغيرها من القبائل يعوذ بها فلم يقبلوه، وقالوا: لو أطقنا أن نخلصك منه خلصنا أنفسنا منك فوضع ماله عند هانئ بن مسعود وخرج إلى المدائن وقال:

أسير إلى كسرى وأعلم أنه ... سيقتلني والموت لا شك نازل

وما جزعي من أن أموت وإنما ... حياتي في الدنيا ليال قلائل

وكان فراري منه عاراً وسبةً ... فسرت وقد جاشت علي المراجل

عرضت على جل القبائل حربه ... فردت علي الحرب تلك القبائل

فقيس سراب لامع وتميمها ... هباء مقيم والأعاصير وائل

فقلت لنفسي ليس للموت مدفع ... فموتي و لم تنسب إليك الرذائل

فلما دخل المدائن لقي زيد بن عدي فقال له: أنت فعلت هذا واللات لأسقينك بكأس أبيك، فقال أنج نعيم فوالله لقد أثبت لك أحنة لا يفزعها المهر الأرن أي النشيط، فأمر به كسرى فألقي تحت أرجل الفيلة فقتلته، فقال سلامة بن جندب:

هو المولج النعمان بيتاً سماؤه ... نحور الفيول بعد بيت مسردق

وكان لأبرويز ألف فيل واثنتا عشرة ألف امرأة وجارية وخمسون ألف فرس وبرذون وبغل، ويذكر من الجواهر والمتاع والآنية ما لم يذكر لأحد من الملوك قبله ولا بعده وبلغ جنده في الشرق والغرب ما لم يبلغ جند ملك قط، وكان جباراً عاتياً فقتله ابنه شيرويه واسمه قباذ ووثب على أخوته فقطع أيديهم وأرجلهم ووقع الطاعون فيهم حتى أفناهم .

أول من خرج من تهامة أياد

قال: وكانت مكة وما حولها تجمع ولد نزار، فكثرت أياد فضاقت بهم فخرجوا إلى الأرياف حتى نزلت بين الحيرة والبحرين على عهد بني أسد، فلما كان زمن سابور ذي الأكتاف أفسدوا وأصابوا الطريق وأغاروا على السوار وسابور بالجبل كان يتصيف هناك، وقال: بل وثب فارسي على امرأة منهم فنكحها

فوثب أخوها واسمه أحمد فنكح أخت الفارسي فغضب سابور فجمع لهم وكتب إليهم لقيط بن نعيم الأيادي، وكان رهينة عند سابور عن أياد لئلا تعتو فقال فيها :

يا دار عمرة من محتلها الجزعا　　　هاجت لك الهم والأحزان والوجعا

يا لهف نفسي إن كانت أموركم　　　شتى وأحكم أمر الناس فاجتمعا

لو أن جمعهم راموا بعهدته　　　شم الشماريخ من تهلان لا نصدعا

في كل يوم يسنون الحراب لكم　　　لا يهجعون إذا ما غافل هجعا

وأنتم تحرثون الأرض عن سفه　　　في كل معتمد تبغون مذرعا

وتلقحون جبال الشوك آونة　　　وتنحتون بدار البلقة الربعا

وتلبسون ثياب الأمن ضاحية　　　لا تجمعون وهذا الجيش قد جمعا

أذكوا العيون وراء السرح واحترسوا　　　حتى ترى الخيل من تعدائها رجعا

فإن غلبتم على ظن بداركم　　　فقد لقيتم بأمر الحازم الفزعا

ما لي أراكم نياماً في بلهنية　　　وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

وقد أظلكم من شطر أرضكم　　　هول له ظلم يغشاكم قطعا

هو الفناء الذي ترقى مذلته　　　إن طار طائركم يوماً وإن وقعا

لا تثمروا المال للأعداء إنهم　　　إن يظهروا يحصدوكم والبلاد معا

وقلدوا أمركم لله دركم　　　رحب الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مسرفاً إن رخاء العيش ساعده　　　ولا إذا عض مكروه به جشعا

مشرد النوم تعنيه أموركم　　　يروم منها إلى الأعداء مطلعا

ما أنفك يحلب هذا الدهر اشطره　　　يكون متبعاً طوراً ومتبعا

لا يطعم النوم الأريث يحفزه　　　هم يكاد حشاه يحطم الظلعا

حتى استمر على شزر مريرته　　　ستحكم الرأي لا فحماً ولا ضرعا

هذه أجود أبيات قيلت في صفة صاحب حرب وقائد جيش.

وقال في آخرها:

لقد محضت لكم ودي بلا دخل　　　فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

وهي أجود قصيدة قيلت في الإنذار.

فلما بلغهم هربوا فتبعهم جند سابور فالتقوا بموضع دير الجماجم واصطلمت أياد، وبدت طائفة منهم فدخلت بلاد الروم، فطالب سابور ملكها بهم فأبى أن يسلمهم واصطلمت أياد، وبدت طائفة منهم فدخلت بلاد الروم، فطالب سابور ملكها بهم فأبى أن يسلمهم إليه فغزاه حتى أسره، فكان محبوساً عنده سبع سنين ثم جدعه وخلاه بعد أن عطف عليه ما يؤديه في كل سنة. قال الشاعر:

الأحمران أهلكا إياداً		وحرما قومهما السوادا

هو أحمر واحد وهو الرجل الذي أتى الأعجمية ضم إليه آخر حاله كحاله فقال: الأحمران كما قال الدبران لدبر واحد ضم إليه مكان آخر فقال الدبران ومن قول لقيط: يكون متبعاً طوراً ومتبعاً، أخذ زياد قوله: ألا وإنا قد سسنا وساسنا السائسون وجربنا المجربون فوجدنا هذا الأمر - يعني السلطان - لا يصلحه إلا شدة في غير عنف ولين في غير ضعف. فلما قضى كلامه قال الأحنف: إنما الرجل بجده والسيف بجده والفرس بشده والثناء بعد البلاء والحمد بعد العطاء، وقد بلغ بك جدك ما ترى وإنك لا تحمد حتى تبتلى.

أول من جلبت له السيوف سعد بن سهل

وقد روي فيه شعر لم أرتضه فتركته.

الباب الثالث

أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم, محمد صلى الله عليه وسلم

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي قال: سألت أبا خليفة عن كتاب بسم الله الرحمن الرحيم قال: سئل ابن عائشة عن ذلك فقال: حدثني أبي أن قريشاً كتبت في جاهليتها باسمك اللهم، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يكتب كذلك ثم أنزلت: "بسم الله مجراها ومرساها" فأمر أن يكتب في صدور الكتب بسم الله ثم نزلت: "قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن" فكتب بسم الله الرحمن. ثم نزلت: "إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم" فجعل ذلك في صدور الكتب، ثم كتب في أول كل سورة من سور القرآن الكريم سوى براءة لتشبهها بالأنفال ومعنى بسم الله أبدأ بسم الله فحذف، وهو صلى الله عليه وسلم.

أول من ختم الكتاب من قريش وأهل الحجاز

وذلك حين احتاج إلى مكاتبة الملوك فقيل له: إنهم لا يقبلون الكتب إلا مختومة فاتخذ خاتماً من ذهب، ففشت خواتيم الذهب في أصحابه فطرحه، واتخذ خاتماً من ورق ونقش عليه محمد رسول الله في ثلاثة أسطر محمد سطر ورسول سطر والله سطر، وكان في يده حتى مات، وفي يد أبي بكر حتى مات، وفي يد عمر حتى مات، وفي يد عثمان ست سنين، فلما كثرت عليه الكتب دفعه إلى رجل من الأنصار ليختم عنه به فأتى قليباً لعثمان، فسقط الخاتم فيه فالتمسوه فلم يجدوه، فاتخذ خاتماً من ورق ونقش عليه مثل النقش الأول. وأما ديوان الخاتم فأول من اتخذه معاوية وولاه عبيد الله بن أوس الغساني وسلم إليه الخاتم وعلى فصه لكل عمل ثواب، وكان سبب ذلك ما أخبرنا به أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن حمد بن معاوية، عن الهيثم بن عدي قال: كان عمر بن سعيد غلاماً ليزيد بن معاوية فقطع إلى ابن الزبير بعثاً عليهم عمرو بن الزبير، فلما التقوا أسره عبد الله بن الزبير فقال له: قبحك الله أما كان في بلائي عندك ما يكفيك؟ من كان يطلبه بشيء فليقم، فجعل الرجل يقول نتف لحيتي، وآخر يقول نتف أشفار عيني، وآخر يقول نزع حلمة ثديي فيؤمرون بالقصاص منه، فأقام بذلك سنة. ثم جاء مصعب بن عبد الرحمن بن عوف فقال: ضربني مائة سوط وليس بأمير و لم أذنب ذنباً فأمره فضربه فنغل جلده فمات فلامه الناس على ذلك، فقال: أنكم لا تدرون ما صنعت به: كتب له معاوية بمائة ألف درهم إلى زياد فقلب الكتاب فجعلها مائتي ألف درهم فدفعها إليه زياد، فلما رفع محاسبه قال معاوية: ما كتبت له إلا بمائة ألف فنظروا في الديوان فوجدوها مائة ألف فكتب معاوية إلى مروان وهو على المدينة يأمره بأخذه بها فحبسه فأديتها عنه وجعل ديوان الخاتم من يومئذ.

وكان خالد بن الزبير أخو عمرو لأمه. أمهما بنت خالد بن سعيد قد أعطى عمراً الأمان هو وعروة وعبيدة أبناء الزبير فاحتقرهم عبد الله في كلام هذا ومعناه وقال:

حتام لا أنفك حارس سكة	أدعى فأسمع مذعناً وأطيع
يتداول الناس الرئاسة بينهم	وأروم حظهم فلا أستطيع
وأكلف العبء الثقيل وإنما	يبلى بها الأتباع لا المتبوع
فعليهم الأثقال يحتملونها	وعلى الرئيس الختم والتوقيع

وقال آخر:

يا أيها الملك المنفذ أمره شرقاً وغرباً

امنن بختم صحيفتي ما دام هذا الطين رطبا

وأعلم بأن جفافه مما يعيد السهل صعبا

وقال آخر:

ختمت الفؤاد على سرها كذاك الصحيفة بالخاتم

هوت بي إلى حبها نظرة هوى الفراشة للجاحم

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن عمرو بن تركي القاضي، عن القحذمي قال: كان على خاتم البريد للأكاسرة صورة ذباب يريدون بذلك ألا يحجب، كما أن الذباب لا يمكن حجبه، وكانوا لا يمكنون منه إلا الوزراء فقط.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجلودي، عن زياد بن الخليل، عن يزيد بن خالد، عن مروان بن عمر العمري، عن محمد بن كعب أنه قال: الأمانة خير من الخاتم والخاتم خير من ظن السوء.

أول ما أوحى إليه صلى الله عليه وسلم وأنزل عليه من القرآن

أخبرنا أبو أحمد رحمه الله قال: حدثنا الجوهري قال: حدثنا عمر بن شبة قال: حدثنا سويد بن سعيد قال: حدثنا الوليد بن محمد، عن الزهري، عن عروة عن عائشة قال: وحدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن غير هؤلاء قال: أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة، ثم حبب إليه الخلاء، فبينما هم في حراء أتاه جبريل عليه السلام فقال له: اقرأ. قال: قلت ما انا بقارئ فغطني ثم أرسلني وقال: "اقرأ باسم ربك الذي خلق" إلى قوله تعالى "علم الإنسان ما لم يعلم" فرجع ترجف بوادره، فأخبر خديجة فخرجت إلى الراهب وعداس عبد لعتبة بن ربيعة كان يتعبد وإلى ورقة بن نوفل، فسألتهم عن جبريل عليه السلام، فقالوا: وما ذكرك له ولست من أهل ذكره؟ فألحت عليهم، فقالوا أمين الله على وحيه ورسوله إلى رسله. قالت: فإن محمداً ذكر أنه أتاه، فقال ورقة: أخشى أن شيطاناً تشبه له فرجعت، وقد أنزل الله تعالى: "ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون" ثم صار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ورقة بن نوفل وقرأ عليه الآيات فقال: أشهد أن هذا كلام الله وإن أدرك زمانك أتبعك ثم احتبس الوحي، فقالت قريش: ودعه ربه وقلاه فأنزل الله تعالى: "والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى" فمكث سنتين، ثم أنزل الله تعالى: "فاصدع بما تؤمر". فلما فعل اشتدت عليه قريش، ثم نزل ذكر البعث فاتاه أبي بن خلف بعظم نخر وفته وداره وقال: أتعدنا أن يحيي الله هذا، فأنزل الله تعالى: "أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم، قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم". ثم اشتد عليه أمر قريش حتى

أدخل الشعب، ثم كان من أمر الهجرة ما كان في كلام هذا معناه.
أول صلاة صلاها صلاة الأولى وأول صلاة ركع فيها صلاة العصر: أخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا عبدان قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد قال: حدثنا عثمان بن سعيد الأحول قال: حدثني علي بن عباس، عن أبي الجحاف، عن عبد الكريم مولى زادان قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: صليت قبل الناس بتسع سنين. إن أول صلاة ركعنا فيها صلاة العصر. قلت يا رسول الله ما هذا؟ قال: أمرت به. وكانت العرب تأنف من الركوع وتسميه التحنية.

أخبرنا أبو أحمد، حدثنا الجوهري قال: حدثنا حماد بن سلمة، عن الكلبي أن وفد ثقيف قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا محمد إنا أخوالك وأصهارك وجيرانك وأشد أهل نجران عليك حرباً وخيرهم لك سلماً. إن حاربناك حاربك من بعدنا، وإن سالمناك سالمنا من بعدنا، فاجعل لنا ألا نعثر ولا نحشر ولا نجبى ولا نكسر أصنامنا بأيدينا فقال: لكم ألا تحشروا ولا تعشروا ولا تكسروا أصنامكم بأيديكم ولا خير في دين ليس فيه ركوع. قالوا: فمتعنا باللات سنة، فإن خشيت لائمة العرب فقل الله أمرني بذلك، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا والله ولا نعمت عين أحرقتم كبد رسول الله احرق الله أكبادكم. لا والله حتى تدخلوا فيما دخلت فيه العرب، فأنزل الله: "وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره". ولما وفد عامر بن الطفيل ومعه أربد بن ربيعة أخو لبيد لأمه على رسول الله، وسأله عامر الخلافة بعده وطلب منه المرباع وأن يكون له الوبر ولرسول الله صلى الله عليه وسلم المدر قال له رجل: لو سألت سبابة من سبابة المدينة ما أعطاك يعني بلحة. ورأى عامر الصلاة فقال: والله لا نظرت إلى عامرية منحنية وقال لأملأنها خيلاً شقراً ورجالاً حمراً، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابه غدة، فانحاز إلى بيت سلولية فجعل يقول: غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولية، فصار مثلاً يضرب في اجتماع نوعين من المكروه ثم مات وأخذت أربد صاعقة بعد ذلك، وكان عامر يقدم إليه لقتل رسول الله إذا شغله عامر بالكلام، فلما انصرف لامه على ترك ذلك، فقال: أربد والله ما هجمت بذلك إلا دخلت بيني وبينه أو كنت أضربك فرثى أربد فقال:

ما إن تعد المنون من أحد	لا والد مشفق ولا ولد
أخشى على أربد الحتوف ولا	أرهب نوء السماك والأسد
فجعني الرعد والصواعق بال	فارس يوم الكريهة النجد

وقال يرثيه:

ذهب الذين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجلد الأجرب

يتآكلون مذمة وخيانة ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

يا أربد الخير الكريم فعاله أفردتني أمشي بقرن أعصب

إن الرزية لا رزيّة مثلها فقدان كل أخ كضوء الكوكب

وقال فيه أيضاً:

ألا ذهب المحافظ والمحامي ودافع ضيمنا يوم الخصام

وهل حدثت من أخوين داما على الأيام إلا ابني شمام

ابني شمام: جبلان. وقال أيضاً يرثيه:

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الجبال بعدنا والمصانع

وقد كنت في أكناف جار مضنة ففارقني جار بأربد نافع

فلا جزع إن فرق الدهر بيننا فكل امرئ يوماً له الدهر فاجع

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوها وعدوا بلاقع

وما البر إلا مضمرات وفي التقى وما المال إلا معمرات ودائع

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يجوز وماذا بعد إذ هو ساطع

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وما الناس إلا عاملان فعامل يتبّر ما يبني وآخر رافع

قال أبو هلال:

مضمرات أي لا يراه الناس والمعمرات ما أعمرتك عمري

أي: جعلتها لك. يتبر يعني يفسد. والمعنى: الناس صنفان مصلح ومفسد.

فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع

أليس ورائي إن تراخت منيتي لزوم العصا تحنى عليها الأصابع

أخبر أخبار القرون التي مضت أدبّ كأني كلما قمت راكع

وأصبحت مثل السيف أخلق جفنه تقادم عهد القين والنصل قاطع

فلا تبعدن إن المنية موعد علينا فدان للطلوع وطالع

أعاذل ما يدريك ألا تظننا	إذا ارتحل الفتيان من هو راجع
أتبكي على أثر الشباب الذي مضى	ألا أن أخذان الشباب الرعارع

أتجزع مما أحدث الدهر للفتى	وأي كريم لم تصبه القوارع
ويمضون أرسالاً ويلحق بعدهم	كما ضم أخرى التاليات المشايع
لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى	ولا زاجرات الطير ما الله صانع
مضى ما مضى مني وفيّ بقية	كأني سيف ناحل الأثر قاطع

أول صلاة صلاها جماعة

أخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا أبو طاهر النديم، قال: حدثنا إسحاق بن محمد النخعي قال: حدثنا عبد الله بن محمد بن حفص قال: حدثني أبي قال: مر أبو طالب ومعه جعفر على نبي الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي وعليّ على يمينه، فقال لجعفر: صل جناح ابن عمك فتأخر علي وقام جعفر معه وتقدمهم رسول الله فأنشأ أبو طالب يقول:

إن علياً وجعفراً ثقتي	عند احتدام الزمان والكرب
لا تخذلا وانصرا ابن عمكما	أخي ابن أمي من بينهم وأبي
والله لا أخذل النبي ولا	يحسد من له نبي ذو حسب

فكانت أول جماعة في الإسلام.

أول جمعة صلاها وأول خطبة خطبها

أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله بن العباس، عن الفضل بن عبد العزيز، عن إبراهيم الجوهري، عن الواقدي قال: حدثنا أبو سعيد القرشي قال: أول خطبة خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم جمعة صلاها في بني سالم فقال: " الحمد لله احمده وأستعينه وأستغفره وأستهديه، وأؤمن به ولا أكفره، وأعادي من يكفره، أشهد أل إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل، وقلة من العمل، وضلالة من الناس، وانقطاع من الزمان، ودنو من الساعة، وقرب من الأجل. من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصي الله ورسوله فقد غوى وفرط وضل ضلالاً مبيناً. أوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلمين أن يحضهم على الآخرة

ويأمرهم بالتقوى، فاحذروا ما حذركم الله من نقمته، فلا أفضل من ذلك نصيحة ولا أجلّ منه ذكرى. تكون لمن عمل به على وجل ومخافة من ربه عون صدق على ما ينوي من أمر آخرته، ومن يصلح الذي بينه وبين الله من أمره في السر والعلانية، لا ينوي بذلك إلا وجه الله يكن ذلك دركاً لعاجل أمره وذخراً فيما بعد الموت حين يفتقر المرء إلى ما قدم وما سوى ذلك. "يود أن بينها وبينه أمداً بعيداً" فسبحان الذي صدق قوله وأنجز وعده حقاً بلا خلف لقوله ذلك، فإنه يقول: "ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد". فاتقوا الله في عاجل أمركم وآجله في السر والعلانية، فإنه: "من يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا" ومن يتق الله فقد فاز فوزاً عظيماً، وإن تقوى الله تقوى نعمته وتقوى عقوبته وتقوى سخطه، وإن تقوى الله تبيض الوجه وترضي الرب وترفع الدرجة. خذوا بحقكم لا تفرطوا، وأحسنوا كما أحسن الله إليكم، وعادوا أعداءه. "وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم" وسماكم المسلمين "ليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حي عن بينة" ولا قوة إلا بالله، أكثروا ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفي الله الذي بينه وبين الناس. ذلك بأن الله يقضي على الناس ولا يقضون عليه ويملك من الناس ولا يملكون منه" .

أول ما صلى رسول الله صلاة الخوف

أخبرنا أبو القاسم، عن العبدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، وأبو أحمد عن الجوهري، عن عمر بن شبة، عن شيوخه قال: أغار ابن عيينة الفزاري على لقاح رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغابة، فنذر بهم سلمة بن الأكوع فتبعهم فما زال يرميهم حتى استنقذها منهم، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر فنودي يا خيل الله اركبي، وذلك أول من نودي به، فجاء بالمسلمين فتقدم الأحزم الأسدي فعقر فرس عبد الرحمن بن عيينة وعطف عليه عبد الرحمن فقتله وتحول إلى فرسه، ثم عقر عبد الرحمن فرس أبي قتادة، وكان من المسلمين فعطف عليه أبو قتادة فقتله، وتحول إلى فرسه وهو فرس الأخرم، وانهزم المشركون وطرحوا ثلاثين بردة وثلاثين رمحاً يستخفون بذلك حتى نزلوا على الماء، وأتاهم عيينة مدداً لهم، وحضرت الصلاة فصلى النبي بأصحابه صلاة الخوف، فقامت طائفة بإزاء العدو وطائفة معه، فصلى بهم ركعة فذهبوا إلى المصاف، وجاءت الطائفة الأخرى فصلى بهم ركعة وصلى القوم ركعة ركعة، وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ركعتين، هكذا قالوا. فلما جاء الليل انصرف المشركون إلى بلادهم، فطلب أصحاب رسول الله منه أن يتبعهم، فقال: "ملكتم فاسجحوا". ورجع رسول الله إلى المدينة في كلام هذا معناه.

قال أبو زيد: وهذا أول فرس غدا في سبيل الله تعالى، وهو فرس المقداد بن عمرو فدل ذلك على أن الغزوة كانت قبل بدر إذ قد قيل أن الخيل كانت يوم بدر فرساً للمقداد وفرساً لمرثد بن أبي مرثد، وذكر المدائني أن غارة عبد الرحمن على اللقاح كانت سنة ست، وإن أول ما صلى صلاة الخوف في ذات الرقاع وهي سنة خمس.

أول امرأة تزوجها صلى الله عليه وسلم: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب، وكانت قبله عند أبي هالة فولدت له هنداً وهالة. وهما خالا الحسن والحسين وخلف عليها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومي، فولدت له جارية اسمها هند وهي الطاهرة وهي أخت فاطمة لأمها وهي خالة الحسن والحسين عليهما السلام، وكانت عند صيفي.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: حدثنا أبو خيثمة قال: حدثنا جزء بن عبد الحميد، عن أشعث، عن جعفر بن أبي المغيرة، عن سعيد بن جبير قال: اجتمعت نساء قريش في عيد لهن فجاءهن يهودي فقال: يوشك أن يبعث فيكن نبي فأيتكن استطاعت أن تكون له أرضاً يطؤها فلتفعل فشتمنه وطردنه، ووقر ذلك في صدر خديجة، وكانت استأجرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثته مع ميسرة غلامها إلى الشام، فبينما هي تنظر قدومها نظرت رجلاً يطلع من عقبة المدينة وليس في السماء غيم إلا قدر ما يظله، وإذا هو النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: إن قول اليهودي حق والمبعوث محمد، فقالت له: اخطبني فلقي عمه أبا طالب فقال: أخطب عليّ خديجة، قال: أخاف ألا يفعلوا أيم قريش وأنت يتيم قريش، فقال أخطبها عليّ، فلقي أبو طالب أباها وقالوا عمها وهو الصحيح، فذكر له ذلك فلقيها فقال فلان يخطبك لشيخ من قريش، فقالت شيخ قضى شبابه وساء خلقه لا حاجة لي فيه، فقال لها محمد، فقالت أوسط قريش حسباً وأفصحهم لساناً أعود عليه بمالي فيكون عطف يميني، فبعث إليه أن تعال نزوجك فاستنهض معه أبا طالب، فقال: أخاف ألا يفعلوا وإن ردوني كانت الفضيحة فتأخر وبعث معه حمزة، فمروا بعلي يلعب مع الصبيان فانطلق معهم، فلما دخلوا قال النبي صلى الله عليه وسلم: الحمد لله الحي الذي لا يموت. فقالوا: ما هذا الكلام؟ ثم تكلم بما أراد وأرادوا، فقالوا تكلمت ولكن من يضمن لنا المهر؟ فقال علي: أبي، فلما بلغ الخبر أبا طالب جعل يقبل علياً ويقول بأبي أنت وأمي.

قالوا: والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يومئذ ابن خمس وعشرين سنة، ولو كان ذلك كذلك لكان لعلي يوم استشهد أكثر من سبعين سنة، و لم يقل هذا أحد. والغلط في أحد الأمرين. أما فيما رووه من كون علي معهم أو فيما ذكروه من سن النبي يومئذ، وقد قيل أنه كان يومئذ ابن ثلاثين سنة وقالوا ابن خمس وثلاثون والله أعلم بالصواب.

وروي أن أبا طالب خطب في تزويج النبي صلى الله عليه وسلم خديجة.

أخبرنا أبو أحمد قال: حدثني أبو الحسن محمد بن القاسم السعدي قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا إسحاق بن محمد النخعي قال: حدثنا محمد بن عثمان الواسطي قال: حدثنا علي بن هشام بن محمد بن عبد الله بن رافع عن أبيه عن جده قال: لما أراد النبي أن يتزوج خديجة خطب أبو طالب فقال: الحمد لله جعلنا من زرع إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً، وجعلنا الحكام على الناس، ثم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي من لا يوازن بأحد إلا رجح به ولا يعدل بأحد إلا فضله، وإن كان في المال قل فإن المال ظل زائل وله في خديجة رغبة ولها فيه مثلها، وما كان من صداق ففي مالي وله بعد نبأ عظيم وخطر شاسع، وهذه من الخطب المستحسنة الموجزة.

وشبهها خطبة أمير المؤمنين علي عليه السلام لنفسه في أملاك فاطمة.

حدثنا أبو أحمد عن أبي الحسين النسابة، عن سعيد بن العباس، عن الزبير بن بكار عن عمه قال: سمعت أبا سعيد الأصمعي يقول: لما أملك علي بفاطمة عليهما السلام قال له النبي صلى الله عليه وسلم أخطب، فقال: الحمد لله شكراً لأنعمه وأياديه، وأشهد أن لا إله إلا الله شهادة تبلغه وترضيه وصلى الله على سيدنا محمد صلاة تزلفه وتحظيه والنكاح مما أمر الله به ورضيه واجتماعنا مما قدره الله تعالى وأذن فيه، وأن رسول الله زوجني ابنته فاطمة بصداق اثنتي عشرة أوقية فاسألوه وأشهدوا. وقالوا: خطب النبي صلى الله عليه وسلم لما زوج فاطمة.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا محمد بن الحسين بن إسماعيل عن الغلابي، عن سعيد بن وافد قال: سمعت الحسين بن زيد بن علي يقول، سمعت عبد الله بن الحسين بن الحسن بن علي عليهما السلام يحدث، عن زيد بن علي عن أبيه عن جده عن جابر، قال الغلابي: وحدثني أحمد بن عيسى بن زيد قال: حدثني الحسين بن زيد عن عمومته وأهله قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين زوج علياً فاطمة خطب فقال: الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته المرهوب عقابه المرغوب إليه فيما عنده. النافذ أمره في سمائه وأرضه. الذي خلق الخلق بقدرته ودبرهم بأحكامه وأعزهم بدينه وأكرمهم بنبيهم. ثم أن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لاحقاً وأمراً مفترضاً نسخ بها الأيام وألزمها الأنام فقال: "وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً" فأمر الله يجري إلى قضائه، وقضاؤه يجري إلى قدره، وقدره يجري إلى أجله، ولكل أجل كتاب "يمحو الله ما يثبت وعنده أم الكتاب" ثم أن الله تعالى أمرني أن أزوج فاطمة من علي، وقد زوجته على أربعمائة مثقال فضة إن رضي بذلك علي، فقال علي رضي الله عنه: رضيته عن الله ورسوله، فقال: جمع الله شملكما وأسعد جدكما وأخرج بينكما كثيراً طيباً. قال جابر: فوالذي بعثه بالحق لقد أخرج بينهما كثيراً طيباً.

وتزوج صلى الله عليه وسلم عائشة بنت أبي بكر بكراً و لم يتزوج بكراً غيرها، ودخل بها ولها تسع سنين. وسودة بنت زمعة بن قيس. وحفصة بنت عمر بن الخطاب. وأم سلمة واسمها هند بنت أمية بن المغيرة المخزومية. وأم حبيبة بنت أبي سفيان. فهؤلاء ست قرشيات، وزينب بنت جحش وكانت قبله عند زيد بن الحارثة وهي التي نزل فيها "فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها".

وزينب بنت حزيمة الهلالية وميمونة بنت الحارث ابن حزن الهلالية، ونكح مما أفاء الله عليه جويرية بنت الحارث بن ضرار الخزاعية. وصفية بنت حيي بن أخطب النضرية، وريحانة بنت زيد من بني قينقاع.

وتزوج أيضاً عمرة بنت يزيد العامرية، وكان بها وضح فطلقها. وأسماء بنت النعمان بن الحارث بن الأسود بن شراحيل بن كندي بن الجون بن آكل المرار. وأم شريك وهي التي وهبت له نفسها، وتوفيت عنده منهن خديجة. وزينب بنت خزيمة وريحانة. وخلي سبيل العامرية والكندية وأرجأ أم شريك. وتوفي عن تسع: عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة وسودة وزينب وصفية وميمونة وجويرية، وبعث إليه المقوقس بمارية وأختها سيرين فاتخذ مارية لنفسه وأولدها إبراهيم عليه السلام، ووهب سيرين لحسان بن ثابت وهي أم عبد الرحمن.

أول ولد ولد له عبد الله

أخبرنا أبو القاسم بن سيران، عن عبد الرحمن بن جعفر، عن الغلابي، عن العباس بن بكار عن الهزلي، عن عكرمة عن ابن عباس.

وحدثنا أبو أحمد عن الطوس عن الزبير بن بكار، عن محمد بن الحسن، عن عبد العزيز بن محمد عن جعفر بن محمد عن أبيه وعن غير هؤلاء يزيد بعضهم على بعض قالوا: تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة وهو ابن خمس وعشرين سنة وهي بنت أربعين سنة، فأول من ولدت له عبد الله، ثم زينب، ثم القاسم، ثم الطاهر، ثم المطهر، ثم رقية، ثم أم كلثوم، ثم الطيب، ثم المطيب، ثم فاطمة. وتوفيت خديجة قبل الهجرة بثلاث سنين، ومات القاسم والطاهر قبل النبوة فخرج رسول الله راجعاً من جنازة القاسم على العاص بن وائل السهمي وابنه عمرو فقال: إني لأشنؤه، فقال العاص: لا جرم فقد أصبح أبتر، فأنزل الله تعالى: "إن شانئك هو الأبتر" وزوج زينب من أبي العاص بن الربيع، وأم كلثوم من عتيبة بن أبي لهب فطلقها بعد أن نبئ رسول الله، فتزوجها عثمان فولدت له عبد الله، فلما بلغ ست سنين ماتت والنبي ببدر، فتزوج بعدها أم كلثوم وتزوج علي بفاطمة في السنة الثانية من الهجرة.

أول ما تكلم به حين دخل المدينة

أخبرنا أبو أحمد، عن الجلودي، عن عبد الرحمن بن خلف، عن معاذ بن عوذ الله، عن عوف بن أبي جميلة، عن زرارة بن أوفى، عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة احتفل الناس قبله فقالوا: قدم رسول الله قدم رسول الله فجئت في الناس، فلما رأيت وجهه عرفت أنه ليس وجه كذاب، وكان أول شيء تكلم به أن قال: "أيها الناس أطعموا الطعام، وأفشوا السلام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام".

ومما يجري مع هذا قول بعضهم ابخل الناس من بخل بالسلام على معرفته وجاره إذا غدا أو راح. ودخل بعض الصلحاء على بعض الخلفاء فسلم فقيل له: أصبت السنة وأخطأت الأدب فقال: لا خير في أدب ليس فيه سنة. وجعل السلام في الإسلام مكان السجود والمصافحة بدل تقبيل اليد. ولما دخل جعفر بن أبي طالب في أصحابه على النجاشي سلموا عليه و لم يسجدوا له فغضب، فقال له جعفر: أيها الملك جئناك بتحية رضيها الله لأوليائه وأهل طاعته فجعلها تحية أهل الجنة، وكان السجود تحيتنا إذ نحن نعبد الأوثان فبدلنا الله بها خيراً منها وهو السلام فرضي.

أخبرنا أبو أحمد عن بعض رجاله، عن إبراهيم بن المدبر قال: دخل الفقهاء على المتوكل ونحن وقوف بين يديه فاستدناهم فكل قبل يده إلا إسحاق بن إسرائيل، فإنه قال: ما ينقصك يا أمير المؤمنين ألا اقبل يديك، وقد حدثني الفضل بن عياش عن هشام عن الحسن أنه قال: المصافحة تزيد في المودة وتبقي ببهاء المؤمن، فبسط المتوكل يده فصافحه ثم وصله بأكثر ما وصل واحداً منهم وقلت في المعنى:

أتراك تسمح بالنوال ... وأنت تبخل بالسلام

لا توحش النفر الكرام ... فأنت من نفر كرام

قد ضل من لا يشتري ... ود الأكارم بالكلام

وقال:

تضن بتسليم وزورة ساعة ... فكيف نرجي جود كفيك بالوفر

أول هدية أهديت إليه بالمدينة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن بعض رجاله قال: أول هدية أهديت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هدية زيد بن ثابت قصعة مثرودة خبزاً وسمناً ولبناً، ثم هدية سعد بن عبادة قصعة ثريد عليها عراق- والعراق عظم عليه لحم وكذلك العرق بالفتح- وهدية فروة بن عمرو الخزامي حين أسلم بعث إليه بثياب فيها قباء سندس محوص بالذهب وفرس وحمار وبغلة شهباء، فكانت أول شهباء رؤيت في المدينة، وكان فروة عاملاً من قبل الروم على عمان من أرض البلقاء

فقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم الثياب بين نسائه أعطى منها أبا بكر، ووهب الفرس لأبي أسعد الساعدي، أعطى القباء مخزمة، ومات الحمار عند منصرفه من حجة الوداع، وبلغ ملك الروم صنيع فروة فأراده على الرجوع إلى دينه فأبى فأمر بصلبه فقال حين يصلب:

ألا هل أتى هنداً بأن خليلها ... على ماء عفر فوق إحدى الرواحل

على ناقة لا يضرب الفحل أمها ... مشربة أطرافها بالمناجل

ومن هنا أخذ أبو تمام قوله في مصلوبين:

أمسوا وأضحوا في متون ضوامر ... قيدت لهم من مربط التجار

سود الثياب كأنما نسجت لهم ... أيدي الجنون مدارعاً من قار

لا يبرحون ومن رآهم خالهم ... أبداً على سفر من الأسفار

أول غزوة غزاها بنفسه الأبواء وهي غزوة ودان

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني عن رجاله قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم النصف من صفر يوم الاثنين من السنة الثانية من الهجرة، وقد بلغه أن جمعاً من قريش خرجوا، فاستخلف على المدينة عبادة بن الصامت وقيل غيره ولواؤه مع حمزة بن عبد المطلب، فلم يلق قريشاً ووادعه مخشي بن عمرو الصخري على بني صخرة، فغاب خمس عشرة ليلة ثم رجع. وقد ذكر نصيب ودان في شعره.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل، عن بعض رجاله قال: دخل الفرزدق على سليمان بن عبد الملك قبل خلافته، فقال: أنشدني يا أبا فراس وأراد أن ينشده مديحه فأنشد:

وركب كأن الريح تطلب عندهم ... لها سلباً من حليها بالعصائب

سروا يركبون الليل وهي تلفهم ... على شعب الألوان من كل جانب

إذ بصروا ناراً يقولون ليتها ... وقد حصرت أيديهم نار غالب

فغضب سليمان وقال لنصيب أنشد مولاك فأنشد:

أقول لركب قافلين تيمموا ... معاً ذات أوسال ومولاك قارب

قفوا خبرونا عن سليمان أنني ... لمعروفه من أهل ودان طالب

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

فأعطاه وحرم الفرزدق.

قلنا، وشعر الفرزدق أحسن وأجود وأكثر طلاوة وأبين بلاغة وفصاحة، ولكنه مفارق لحسن الأدب ولما يوجبه العقل، لأن العاقل لا يفتخر بحضرة السلطان، ولا يمدح نفسه عند الملوك، وأعقل الناس أخضعهم للسلطان والكبر عليهم هلكة.

أول لواء عقده

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني عن رجاله قال: أول لواء عقده رسول الله صلى الله عليه وسلم لواء أبيض لحمزة حمله مرثد حليف حمزة في السنة التي هاجر فيها في شهر رمضان. بعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترض عير قريش مقبلة من الشام، فلقي أبا جهل وأبا سفيان في ثلاثمائة فحجز مجدي عمرو الجهني بينهم، فانصرفوا من غير قتال، وكانت رايته يوم حنين سوداء من برد لعائشة، وأول ما عقدت الرايات يومئذ وكانت قبل ذلك الألوية. وكانت راية علي يوم صفين سوداء يحملها الحضين بن المنذر أبو ساسان. وحضين بالضاد المعجمة وليس في العرب حضين غيره، وكان نحيلاً وفيه يقول الأعجم:

يسد حضين بابه خشية القرى بأصخر والشاة السمين بدرهم

وفيه يقول الضحاك بن هنام:

وأنت امرؤ منا خلقت لغيرنا حياتك لا نفع وموتك فاجع

أول خمس خمسة

أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله بن العباس، عن الفضل، عن إبراهيم، عن الواقدي قال: قال عبد الله بن جحش: دعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى العشاء، فقال: واف مع الصبح أبعثك وجهاً، فوافيت ومعي سيفي وقوسي، فصلى النبي بالناس الصبح، فانصرف فوجدني سبقته واقفاً عند بابه واجداً نفراً معي من قريش فدعى أبي ابن كعب فكتب كتاباً وأعطانيه وقال: استعملتك على هؤلاء النفر، فامض حتى إذا سرت ليلتين فانشر كتابي، ثم أمض لما فيه وأسلك النجدية قال: فانطلق حتى إذا كان ببئر أبي ضمرة قرأ الكتاب، فإذا فيه سر حتى تأتي بطن نخلة على اسم الله وبركته ولا تكرهن أحداً من

أصحابك فترصد بها عيراً لقريش، فقدموها فصادفوا العير ففزع أصحابها، فحلق بعض الصحابة رأسه ليقولوا إنما هم عمار، فأمنوا ثم قاتلوهم في آخر يوم من رجب، وقالوا إن أخرنا دخلوا الحرم، فأنكر المشركون ذلك وقالوا: أحل محمد من الشهر الحرام ما كان يحرم، وورد عبد الله بن جحش بالخمس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقسم الباقي بين أصحابه، فكان أول خمس خمسة، فلما أكثر المشركون واليهود الإنكار لما كان منهم من القتل والسبي في رجب أنزل الله تعالى في عذرهم: "يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل" يعني الكفر، ففرح المسلمون وسكنوا، وقد قتل يومئذ عمرو بن الحضرمي، وهو أول قتيل قتل منهم، وأسر عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان، فكانا أول أسيرين أسرا في الإسلام، وأسلم الحكم بن كيسان، ورجع عثمان بن عبد الله كافراً بعد أن فودي، وكانت غنيمة أهل نخلة أول غنيمة غنمها المسلمون.

أول ما قاتل جمهور المشركين وهزمهم

وظفر بهم وأول سيف تقلده يوم بدر وهو أول يوم علا فيه الإسلام ورفعت أعلامه وانحط منار الكفر وزلزلت أركانه

أخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، وأبو أحمد عن عبد الله بن العباس، عن الفضل بن عبد العزيز، عن إبراهيم الجوهري عن الواقدي وعن غير هؤلاء قالوا: أقبل أبو سفيان بن حرب بعير قريش من الشام يحميها ومعه ثلاثون رجلاً أو أربعون، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان من السنة الثانية من الهجرة في ثلاث وثلاثين رجلاً من المهاجرين، وواحد وستين رجلاً من الأوس، ومائة وسبعين من الخزرج، و لم يكن خرج بأحد من الأنصار قبل ذلك في قتال، ومعهم سبعون بعيراً، وفرسان فرس للمقداد بن الأسود الكندي والآخر لمرثد بن أبي مرثد الغنوي يعترض للعير، ففاتته وجاء حتى نزل ببدر، وكانت سوقاً تقام في كل سنة ثمانية أيام، وخرجت قريش تريده وهم ما بين تسعمائة وألف وخيلهم مائة، وكان أول طالع منهم زمعة بن الأسود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اللهم أنك أنزلت علي الكتاب وأمرتني قتال المشركين ووعدتني إحدى الطائفتين وأنت لا تخلف الميعاد وهذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك اللهم أحنهم الغداة" فاستجيب لهم فيهم، فهزموا وقتل صناديدهم واسروا، فكان القتلى سبعين والأسرى سبعين وقيل أربعين وأربعين وضرب عنق النضر بن الحارث وهو أول من ضرب عنقه في الإسلام، فقالت ابنته ترثيه وتخاطب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أمحمد ها أنت صنو نجيبة لنجيبة والفحل فحل معرق

ما كان ضرك لو مننت وربما منّ الفتى وهو المعيط

فقال صلى الله عليه وسلم: لو سمعت شعرها ما قتلته، فلما قسم غنائمهم أخذ سيف منبه بن الحجاج وهو ذو الفقار فتقلده، فكان أول سيف تقلده، وأخذ أيضاً جملاً مهرياً لأبي جهل صفيه، فجعله فيما أهدى إلى مكة، فهابت قريش من يومئذ جانب المسلمين فتركت الطريق التي كانت تسلكها إلي الشام واستأجرت رجلاً يقال له: الفرات بن حيان، فخرجوا بتجارة عظيمة، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فأصابها وورد بها المدينة، فقال حسان بن ثابت يذكر الفرات بن حيان حين انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بدر ومعه فرسان فرس للمقداد وفرس للزبير.

أقمنا على الرس النزوع لياليا بأرعن جرار عريض المبارك

بكل كميت جوزه نصف خلقه طوال الهوادي مشرفات الحوارك

ترى العرفج الحولي تذري أصوله مناسم أخفاف المطي الرواتك

إذا ارتحلوا عن منزل خلت أنه قريب المدى بالموسم المتعارك

نسير فلا تنجو اليعافير وسطنا وإن وألت منا بشد مواشك

دعوا فلجأت الشام قد حال دونها ضراب كأفواه المخاض الأوارك

بأيدي رجال هاجروا نحو ربهم وأنصاره حقاً وأيدي الملائك

إذا أقبل العضروط من رمل عالج فقولا لها ليس الطريق هنالك

فإن نلق في تطوافنا والتماسنا فرات بن حيان يكن جد هالك

يصيب وما يدري ويخطئ وما درى وليس يكون النوك إلا كذلك

وإنما يستحسن ذلك لدخوله في باب التهويل على العدو، وهو يجري مجرى المكيدة في الحرب، ومثله أن خثعم قتلت رجلاً من بني سليم فقالت أخته ترثيه:

لعمري وما عمري علي بهين لنعم الفتى غادرتم آل خثعما

وكان إذا ما أورد الخيل بيشة إلى حين السراج أناخ فأجلما

فأرسلها رهواً رعالاً كأنها جراد رمته ريح نجد فأتهما

فقيل لها: كم كانت خيل أخيك؟ فقالت: اللهم لا أعرف إلا فرسه. ومثله أن ليلى بنت عروة بن زيد الخيل قالت لأبيها: كم كانت الخيل حين قال:

بني عامر هل تعرفون إذا غدا	أبو مكنف قد شد عقد الدوائر
بجيش تضل البلق في حجراته	ترى الأكم فيها سجداً للحوافر
وجمع كمثل الليل مرتجس الوغى	كثير بواكيه سريع البوادر
أتت غادة للورد أن نكره الوغى	وحاجة رمحي في نمير بن عامر

قال أبو هلال: قوله تضل البلق في حجراته غاية في صفة الكثرة، لأن البلق مشاهير، فإذا خفي فكأنه في جيش قد بلغ نهاية الكثرة، وتقول العرب هو أشهر من الفارس الأبلق.

فقال: لست أعرف إلا ثلاثة أفراس أحدها فرسه.

أول ما جالت خيله وأول من قتل بيده يوم أحد

أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله، عن الفضل، عن إبراهيم، عن الواقدي. وأبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني عن رجالهم قالوا: خرجت قريش في شوال سنة ثلاث من مكة حنقين يطلبون ثأرهم ببدر في ثلاثة آلاف، وفيهم مائتا فرس، وقيل مائة وسبعمائة دارع، فلما دنوا من المدينة راح رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صلى الجمعة في سبعمائة ولواؤه مع علي بن أبي طالب عليه السلام وفيهم فرسان فرس لرسول الله وفرس لأبي بردة بن . فلما صلى الغداة يوم السبت قدم لواءه والتقى الجمعان، فقتل من المشركين تسعة ثم انهزموا وحوى المسلمين عسكرهم، فبصر خالد بن الوليد وهو على خيل المشركين خلو موضع الرماة، فحمل على المسلمين فانكشفوا وقتل أربعة من المهاجرين. حمزة بن عبد المطلب، وعبد الله بن جحش، وشماس بن عثمان، ومصعب بن عمير وستة وستين رجلاً من الأنصار، وأصيبت رباعية النبي صلى الله عليه وسلم، وشج في وجنته وعلاه ابن قمئة بالسيف فوقاه طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه فسلت أصبعه.

وسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بأصحابه في الوادي وتبعه أبي بن خلف، فعطف عليه رسول الله وبيده حربة فطعنه بها طعنة خفيفة فوجد منها ألماً شديداً، فقيل له: ما عليك بأس لو كانت هذه بعين أحدنا لم يألم، فقال: لو أن ما أجده بجميع الناس لماتوا ثم مات، فلما أراد المشركون الانصراف أشرف أبو سفيان على أصحاب رسول الله في عرض الجبل فنادى بأعلى صوته أعل هبل، فقال عمر بن

الخطاب: الله أعلى وأجل، فقال: قد أنعمت يا ابن الخطاب ثم قال أين ابن أبي كبشة؟ أين ابن أبي قحافة؟ أين ابن الخطاب؟ فقال عمر: هذا رسول الله، وهذا أبو بكر، وها أنا ذا عمر. فقال أبو سفيان: يوم بيوم بدر والأيام دول والحرب سجال. فقال عمر: لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار. قال: إنكم لتقولون ذلك لقد خبنا إذا وخسرنا، ثم قال لنا العزى ولا عزى لكم. قال عمر: الله مولانا ولا مولى لكم، ثم قال : قم يا ابن الخطاب أكلمك فقام، فقال: أنشدك بدينك هل قتلنا محمداً؟ فقال: اللهم لا وإنه ليسمع كلامك قال: أنت أصدق عندي من ابن قمئة وكان أخبرهم أنه قتله، ثم قال: ليس الذي تجدونه من المثلى في قتلاكم من رأس سراتنا، ثم أدركته الحمية فقال: بل لم نكره ما كان منها وانصرف، وقال موعدكم البدر الصغرى في العام المقبل.

وأخبرنا أبو أحمد عن الفرائي عن الجهني عن ابن العراج قال: كان المجدر بن زياد قتل سويد بن الصامت في الجاهلية ثم أسلم وحضر أحداً مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلما جال المسلمون تلك الجولة جاء الحارث بن سويد من خلفه فضرب عنقه، وجاء جبريل فأخبره النبي، فخرج رسول الله إلى قباء ومعه الناس وفيهم الحارث في ملحفة مصبوغة، وكان قد أعرس بأهله قبيل ذلك، فقال رسول الله لعويم بن ساعدة: إن قدم الحارث إلى باب المسجد فاضرب عنقه بابن المجدر فقد قتله في الشعب، فقال الحارث: والله ما كان قتلي له رجوعاً عن الإسلام ولا ارتياباً فيه، ولكنه أمر وكلت فيه إلى نفس وأنا أتوب إلى الله تعالى ورسوله وأؤدي ديته وأصوم شهرين متتابعين وأعتق رقبة وأطعم ستين مسكيناً، فلما استوعب رسول الله كلامه وكان الحارث يقول ذلك ويلوذ بركابه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: عويم قدمه عنقه فضرب عنقه. قال حسان:

أكنت في سنة من نوم أو لكم	يا جار أم كنت مغتراً بجبريل
أم كنت يا ابن سويد حين تقتله	في طامس من خلاد الأرض مجهول
وقلتم لا نرى والله يبصره	وعنده محكمات الآي والقيل
محمد فيكم والله يخبره	عما تكن سريرات الأقاويل

أول صدقة أتته صدقة بني عذرة

السبب في تخليق المساجد

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن عبد الصمد بن عبد الوارث، عن عمر بن سليم، عن أبي الوليد قال: قلت لابن عمر ما بدء الزعفران يطلى به المسجد؟ فقال: رأى رسول الله نخامة في المسجد

فقال: " ما أقبح هذا! من فعل هذا؟" فجاء صاحبها فحكها وطلاها بالزعفران فقال رسول الله: " هذا أحسن من ذلك".

وفي غير هذا الإسناد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حكها بعرجون كان بيده وقال: "ائتوني عنبراً" فأتى به فجعله على رأس العرجون ولطخ به على أثر النخامة فمن هنالك جعلتم الخلوق في مساجدكم.

أول من أجلى من اليهود

أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله، عن الفضل، عن إبراهيم، عن الواقدي قال: لما قدم رسول الله المدينة وادعته اليهود كلها، فجاءت امرأة عربية تحت رجل من الأنصار إلى سوق قينقاع فجلست عند صائغ، فجاء يهودي من أهل قينقاع فخل درعها إلى ظهرها بشوكة، فلما قامت بدت عورتها فضحكوا منها، فقام رجل من المسلمين فقتله، فقام اليهود فتحايشوا وقتلوا الرجل ونبذوا العهد، فغزاهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذي القعدة أو ذي الحجة سنة اثنتين، فحاصرهم خمس عشرة ليلة فنزلوا على حكمه، فأراد قتلهم فاعترض دونهم عبد الله بن أبي بن سلول وكانوا حلفاءه. وكان لعبادة بن الصامت من حلفهم مثل ما لعبد الله فبرئ عبادة منهم، وقام عبد الله دونهم وأدخل يده في جنب درع رسول الله، وقال: لا أرسلك حتى تحسن في موالي أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع منعوني من الأسود والأحمر، فولى رسول الله محمد بن سلمة وعبادة بن الصامت إخراجهم فأخرجوا، وغنم المسلمون أموالهم وذلك أول ما ظهر نفاق عبد الله.

الباب الرابع

أول من أسلم من المهاجرين

اختلف في ذلك فروي أن أول من اسلم علي بن أبي طالب عليه السلام. أخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا الجوهري قال: حدثنا زكريا بن يحيى المنقري قال: حدثنا محمد بن صالح العدوي قال: حدثنا أبو حبيب بن رزين قال: حدثنا أبو إسحاق الهداني عن الشعبي قال: أخبرنا أشياخنا: منهم جرير بإسلام أبي بكر رضي الله عنه في خبر طويل. قال أبو بكر: فلما قدمت مكة استبشروا فظنوا أنهم فتح عليهم بقدومي فتح، واجتمعوا إلي وشكوا أبا طالب وقالوا: لولا تعرضه دونه لما انتظرنا به. قلت: ومن تبعه على مخالفة دينهم؟ قالوا: بنو أبي طالب، وهذا يدل على أن علياً عليه السلام إذ ذاك بالغ ولو كان صبياً صغيراً لما اعتد به تابعاً.

أخبرنا أبو احمد قال: حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير الحافظ قال: حدثنا محمد بن عثمان بن كرامة قال: حدثنا عبد الله بن موسى قال: حدثنا العلاء بن صالح عن المنهاك بن عمر وعن عباد بن فلان الأسدي قال: سمعت علياً عليه السلام يقول: أنا عبد الله وأنا أخو رسول الله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتر، ولقد صليت قبل الناس بسبع سنين.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا إبراهيم بن الخليل الجلاب ببغداد قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا يحيى بن يمان عن سليمان عن سلم الأعور عن حسنة العربي عن علي رضي اله عنه قال: بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الاثنين وأسلمت يم الثلاثاء.

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا عبد الله بن محمد بن عبدان قال: حدثنا الثقفي قال: حدثنا عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا جرير بن عبد الحميد عن نصر قال: أسلم علي عليه السلام وهو ابن أربع عشرة سنة وكانت له ذؤابة.

وأخبرني أبو أحمد قال: أخبر محمد بن أبي عمر النهدي قال: حدثني أبو عبد الله ابن زياد بن سمعان المدائني، عن محمد بن علي بن الحسين قال: علي أول ذكر آمن وهو ابن إحدى عشرة سنة، وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربع وعشرين سنة. وقالوا: أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة، وقالوا: اثنتا عشرة سنة.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر بن دريد عن أبي حاتم، عن الأصمعي قال: وفد الوليد بن جابر بن ظالم على النبي صلى الله عليه وسلم وصحب علياً وشهد معه صفين، وكان من فرسانه المشهورين. ثم وفد على معاوية في الاستقامة فدخل في جماعة وفد العراق، فلما انتسب له قال: أنت صاحب ليلة الهرير؟ قال: نعم، قال: والله لكأني بك الآن ترتجز وتقول:

شدوا فدا لكم أم وأب ... فإنما الملك غدا لمن غلب

هذا ابن عم المصطفى والمنتخب ... بنوه في العلياء سادات العرب

ليس بموضوم إذا نص النسب ... أول من صام وصلى واقترب

قال: أنا قائلها وذلك أنا كنا مع رجل لا نعلم خصلة توجب الخلافة ولا فضيلة تصير إلى المقدمة إلا وهي مجموعة له، وكان أول الناس سلماً وأرجحهم حلماً وأكثرهم علماً. فات الجياد فلا يسبق غباره، واستوى على الأمد فلا يخاف عثاره وأوضح المنهج الهدى فلا يبيد مناره، وسلك القصد فلا تدرس آثاره. فلما ابتلانا الله بافتقاده وجعل الأمر إلى من شاء من عباده دخلنا في جماعة المسلمين، فلم نترع يداً من طاعة و لم نصدع صفاة جماعة. على أن لك منا ما ظهر وقلوبنا بيد الله فاقبل صفونا واعرض عن كدرنا

ولا تشهد كوامن الأحقاد، فإن النار تقدح بالزناد، قال: وإنك لتهددني بأوباش العراق محر نجم النفاق ومستقر الشقاق والفجار الفساق الملحدة المراق قال: يا معاوية هم الذين أشرقوك بالسريق وحبسوك في المضيق وذادوك عن سنن الطريق حتى حاكمت بالمصاحف إلى من صدق بها، وكذبت وآمن بمترلها وكفرت، وعرف تأويلها وأنكرت، فغضب معاوية وأدار طرفه فيمن حوله، فإذا جلهم من قريش فقال: أيها الشقي الخائن إني لأخال أن هذا آخر كلام تفوه به. وكان عفير بن سيف بن ذي يزن يومئذ بدمشق بباب معاوية، فأخبر بمقال الطائي ومرادته معاوية فخاف عليه، فأقبل وقد هم معاوية بقتله فنظر إلى من حضر من اليمانية وقال: شاهت الوجوه ذلاً وقلاً وجدعاً. كشم الله هذه الأنوف كشماً موعباً، ثم قال: يا معاوية إني والله ما أقول قولي هذا حباً لأهل العراق ولا جنوحاً إليهم، ولكن الحفائظ تحل الأحقاد، والله لقد رأيتك بالأمس خاطبت أخا تميم وهو أعظم جرماً من هذا وأنكى لقلبك وأقدح في صفاتك، وأجد في عدوانك وأشد استنصاراً في حربك ثم توبته وسرحته، وأمرت بقتل ابن عمك تناسياً لنا واستصغاراً لجماعتنا كأنا لا نمر ولا نحلي، ولعمري لو وكلتك بنو قحطان إلى قومك لكان جدك الغابر، وذكرك الداثر، وحدك المفلول، وعرشك المثلول، فأربع على ظلعك وأطونا على بلالتنا يسهل لك حزننا، وينقد لك ضعفنا، فإنا لا نرام بواءاً للضيم ولا نتلمط جزع الخسف، ولا نغمز بغماز البين، ولا ندر على الغضب.

فقال معاوية: إن الغضب شيطان فاربع أيها الإنسان فإنا لن نأتي لصاحبك سوءاً و لم نرتكب منه ممضغاً، و لم نهتك له محرماً فدونك هو لم يضق عنه من حلمنا ما وسع غيره، وأخذ غفير بيد الطائي وخرج إلى مترله وقال لتؤبن بأكثر مما آب به أحد، ففرض على كل واحد من اليمانية دينارين من عطائه فبلغت أربعين ألفاً فتعجلها من بيت المال ودفعها إليه ورده إلى العراق.

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الجوهري عن أبي زيد، عن يوسف بن موسى القطان، عن حكام بن سلم، عن أبي درهم: أن الحجاج بعث إلى الحسن فلما حضر قال له يزيد بن أبي مسلم: إن الأمير يريد أن يدفع إلى التجار ألف درهم على أن يردوها إليه عند الحول ده دواز ده. فما ترى؟ قال: ذلكم محضن الربا. قال: لا تفسد على الأمير عمله. فقال: إن الله لم يجعل هذا الدين هوى للملوك واتباعهم. قال: فاستوى الحجاج وقال: ما تقول في أبي تراب؟ قال: من أبو تراب؟ قال: ابن أبي طالب. قال: أقول إن الله جعله من المهتدين. قال: هات برهاناً. قال: قال الله تعالى: "وما جعلنا القبلة التي كنت عليها" إلى قوله تعالى: "وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله" وكان علي أول من هدى الله مع النبي صلى الله عليه وسلم. قال: رأي عراقي. قال: هو ما تسمع ثم خرج. وقال: لما عوفيت من الفاسق ذكرت عفو الله عن العباد في كلام هذا معناه.

وقالوا: أول من أسلم أبو بكر رضي الله عنه: حدثنا أبو أحمد عن عبد الله بن العباس، عن الفضل بن عبد العزيز، عن إبراهيم الجوهري، عن الواقدي قال: حدثني عبد الملك بن سليمان الأسلمي، عن النضر، عن سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: أول من أسلم أبو بكر. وقيل لبلال وقد رجع من الحلبة بالشام: من سبق؟ قال: النبي صلى الله عليه وسلم. قالوا: فمن صلى؟ قال: أبو بكر. قالوا: إنما سألناك عن الخيل. قال: إنما أجبتكم عن الخير.

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو روق عن الرياش عن الأصمعي قال: أراد عمر أن يمنع الحلبة فقيل له: سوق من أسواق العرب. قال: فليركبها أربابها، فلما أرسلت الخيل اقبل أعرابي على فرس وهو يقول:

غاية مجد رفعت فمن لها — نحن حويناها وكنا أهلها

لو ترسل الريح لجئنا قبلها

فعثرت فرسه فسقط فتقدمه رجل من ولد أبي بكر الصديق رضي الله عنه بفرسه فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين قد رأيت ما جرى، قد رأيت أنه قد سبقني وأتاك رجل كان أبوه سباقاً إلى الخير.

وقيل: أن أبا بكر رضي الله عنه رابع أربعة من المسلمين، والشاهد ما روى زكريا بن يحيى الطائي، عن أبي بكر، عن حمد بن منبه قال: خرجت حاجاً في السنة التي قتل فيها عثمان بن عفان رضي الله عنه، فصادفت طلحة والزبير وعائشة بمكة، فلما ساروا إلى البصرة سرت معهم فلما وقفت عائشة بالبصرة قالت: إن لي عليكم حرمة الأمومة وحق الموعظة، لا يتهمني إلا من عصى ربه، بي ميز مؤمنكم من منافقكم، وفيّ رخص لكم في صعيد الأقواء، وأبي رابع أربعة من المسلمين، وأول من سمي الصديق. مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم راضياً عنه فطوقه وهف الإمامة، ثم اضطرب حبل الدين فأخذ بطرفه وريق لكم أبناءه، ورتق لكم فتق النفاق، وأغاض نبع الردة، وأطفأ ما حشت يهود وأنتم يومئذ جحظ العيون تنظرونه العذرة وتسمعون الصيحة فرأب الثأي وأودم العطلة وامتاح من الهوة واجتهز من الردى. ثم انتظم طاعتكم بحبله في ذات الله. فولى أمركم رجلاً مرعياً إذا ركن إليه. بعيد ما بين اللابتين إذا ضل عركة للأذاة بجنبه صفوحاً عن أذى الجاهلين. يقظان الليل في نصرة الإسلام خشاش المرآة. فسلك مسلك السابقين ففرق شمل الفتنة. وجمع أعضاد ما جمع القرآن. وأنا نصب المسألة عن مسيري هذا لم ألتمس إثماً و لم أورث فتنة أوطئكموها. أقول قولي هذا صدقاً وعدلاً. وإعذاراً وإنذاراً. وأسأل الله أن يصلي على محمد وأن يخلفه فيكم بأفضل خلافة المرسلين.

فانطلق رجل سمع مقالتها إلى الأحنف بن قيس وهو معتزل في بني سعد وأخبره بما قالت فأنشأ الأحنف يقول:

لشتان ما بين المقامين تارة	نضاراً وطوراً عذرة يستقيلها
فلو كانت الأكنان دونك لم تجد	عليك مقالاً أو هناة تقولها
وقفت يميناً للسيول وقل من	يقوم بها إلا علاه بليلها
محضت سقائي عذرة ولمامة	وكلتاهما كانت لغولك غولها
ألما يرى إن الأمور بضرة	من الشر لا يعبأ بليلي وليلها
حجابك أخفى للتي تسترينها	سفورك أدعى للتي لا أقولها

فلما بلغت عائشة مقالة الأحنف. قالت: لقد استفرغ حلم الأحنف لقد استفرغ الأحنف حجاه إياي. إلى الله أشكو عقوق أبنائي ثم أنشأت تقول:

بني أتعظ أن المواعظ شهد	ويوشك أن تبكي عيونك ميلها
ولا تستهن بالله حق أمومتي	فإنك أولى الناس ألا تقولها
ولا يطعنني بالخنا من له حجى	في أمة قد كان بعلي رسولها

قال أبو هلال رحمه الله: قولها حق الأمومة من قولهم أم بين الأمومة، وقولها في رخص لكم في صعيد الأقواء يعني التيمم بالصعيد. وكان النبي صلى الله عليه وسلم أقام عليها في سفر فلم يجدوا ماء فترلت آية التيمم، وواحد القواء أقا وهو الصخر. وقولها: وأبي رابع أربعة من المسلمين. يقال: أنه أسلم قبله خديجة وعلي وزيد بن حارثة. قولها: وهف الإمامة أي معظمها. وقولها: ربق لكم ابناءه أي جمع. والربقة الحبل. وفي الحديث "من خلع ربقة الإسلام من عنقه فهو دان".

وقولها: حشت يهود أي أوقدوا. وقولها أودم العطلة والعطلة أي عطلت ورمى بها. والودم بها نوع من السير. وقولها: بعيد ما بين اللابتين أي الجانبين واللابة أرض تركبها حجارة سوداء. وقولها: خشاش المرآة الخشاش الخفيف الصعل، والمرآة مفعلة من الرؤية. وقول الأحنف:

لشتان ما بين المقامين تارة	نضاراً وطوراً عذرة يستقيلها

يعني اختلاف قول عائشة في عثمان رضي الله عنه.

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن أبي مخنف، عن كبير بن أبي إسماعيل، عن عمر بن بشير، عن عمته أم زيد قالت: كنت مع عائشة رضي الله عنها بمكة، فأتاها أن عثمان قتل

فقالت: أبعده الله بما قدمت يداه يا معشر قريش لا يشأم منكم عثمان كما شأم أحمر ثمود قومه إن أحق بهذا الأمر ذو الإصبع.

ثم أتاها أن علياً رضي الله عنه استخلف. فقالت تعسوا لا تؤمروا بني تميم أبداً يا أيها الناس! إن عثمان قتل مظلوماً وإن علياً أخذ الأمر بغير شورى والله لا ترضى لنقاتلنه. فقالت أم سلمة يا أيها الناس! إن عثمان قتل وإن الناس ولوا علياً خير من تعلمون، وقد بايعنا فبايعوا علياً، وكان الأحنف يميل إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام أيام الجمل، فاعتزل في بني سعد يمنعهم عن قتاله، وما روي عنه في علي إلا واحدة.

أخبرنا أبو القاسم قال: حدثنا العقدي قال: حدثنا أبو جعفر قال: حدثنا الحسن المدائني، عن مشيخة بني تميم أن الأحنف لم يتعلق عليه إلا ست خصال: قوله في أمر الزبير حين قيل له هذا الزبير قد مر أنفاً فقال: ما أصنع به وقد جمع بين جيشين عظيمين يقتل بعضهم بعضاً وهاهو ذا صار إلى مترله سالماً وأتبعه ابن جرموذ فقتله، فقال الناس: الأحنف قتله.

وقوله: حين أتاه كتاب الحسن بن علي عليهما السلام يستنصره قد بلونا حسناً وآل أبي الحسن فلم نجد له إيالة للملك ولا صيانة للمال ولا مكيدة في الحرب و لم يجبه. وقوله للمرأة حين أتته: لمحمد أست المرأة أحق بالمحمر وقوله للحباب بن يزيد: أسكن يا آدر وكان آدر.

وقوله لقطري بن الفجاءة الخارجي: إن أبا نعامة أشار على القوم فركبوا البغال وجنبوا الخيل وأصبحوا ببلد وأمسوا بغيره فأقمن أن يطول أمرهم فأخذ قطري بقوله.

وأتاه رجل فلطمه، فقال له: لم لطمتني؟ قال: جعلوا لي جعلاً أن ألطم سيد بني تميم، فقال: إنك أخطأت، سيد بني تميم جارية بن قدامة، فجاء الرجل حتى لطم جارية، فأخرج جارية سكيناً من خفه وقطع يد الرجل، فقالوا: قطعه الأحنف.

أول من أسلم من الأنصار معاذ بن عفراء

أخبرنا أبو أحمد بإسناده، عن الواقدي قال: حدثنا ابن أبي حنيفة عن داود بن الحصين قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة، فمر في أهل يثرب على يمينه نفر معاذ بن عفراء، وأسعد بن زرارة، ورافع بن مالك، وذكوان بن عبد قيس، وعبادة بن الصامت، ويزيد بن ثعلبة، وأبو الهيثم بن التيهان، وعويمر بن ساعدة، فعرض عليهم الإسلام فأسلم معاذ، وقال رافع بن مالك: دعني أستخير، فكتب على بعض سهامه محمد رسول الله وضرب بها فخرج المكتوب عليه ذلك ثلاث مرات فأسلم، ثم اسلم الباقون

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: تمنعون لي ظهري حتى أبلغ رسالة ربي. فقالوا: إنما نحن أعداء متباغضون وإنما كان بعاث العام الأول وأن تقدم، ونحن كذلك لا يكون لنا عليك اجتماع وموعدك الموسم من العام المقبل، ثم قال رافع: أكتب لي بعض ما معك. قال: إني لا أخط بيدي، قال: فأمل عليّ فإني آخذ الكلمة، وكان الكامل في الجاهلية الشاعر الكاتب الرامي الذي يحسن العوم، فأملى عليه وعلى ابن عفراء سورة يوسف وطه، فقدموا المدينة فجاء رافع قومه وهم في مشرقة، فقال: إني قد أهديت لكم هدية ما أهدى رجل لقومه خيراً منها إلا ابن عفراء، فقرأ عليهم السورتين فرموه بالحجارة والمحايض، وكان إبناه خلاد ورفاعة أشد الناس عليه ثم أسلما وشهدا بدراً، وقتل رافع يوم أحد أصابته رمية فلم يزل ضمناً حتى مات في كلام هذا معناه.

أول من سمى القرآن مصحفاً

وأول من جمعه ابو بكر

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد ابن فليح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب قال: لما أصيب المسلمون باليمامة خاف أبو بكر أن يهلك طائفة من أهل القرآن، وإنما كان في العسب والرقاع فأمر الناس فأتوه بما كان عندهم، فأمر به فكتب في الورق، فلما كان أيام عثمان كثر اختلاف الناس في القراءات، فقالوا: حرف عبد الله وحرف أبي موسى، فاستشار الصحابة فأشاروا عليه بجمع الناس على مصحف واحد، فجمع ما كان بأيدي الناس من المصاحف واحرقها أو قالوا غسلها، وأمر سعد بن العاص، وكان أفصح الناس فأملى على زيد بن ثابت فكتب مصاحف وفرقها في البلدان، فأبو بكر أول من جمع القرآن وعثمان أول من جمع الناس على مصحف واحد في كلام هذا معناه.

والمصحف؛ بالكسر لغة أهل الحجاز وهي رديئة لأنه أخرج مخرج ما يتبادل ويتعاطى باليد، والمصحف أكرم من ذلك، وأهل نجد يقولون مصحف من قولك أصحفته فهو مصحف إذا جعلت بعضه على بعض وهي أعجب اللغتين إلي، وقالوا أول من جمع القرآن عمر، وكان لا يقبل من أحد شيئاً منه حتى يشهد شاهدان، فمات عمر قبل أن يجمع، وقد روينا أيضاً حديثاً دل علي أن علياً عليه السلام أول من شرع في جمع القرآن.

حدثنا أبو أحمد قال: حدثنا الصولي قال: حدثنا الغلابي قال: حدثنا احمد بن عيسى قال: حدثني عمي

الحسين بن زيد، عن جعفر بن محمد، عن أبيه، عن جده قال: لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم تشاغل علي بدفنه، فبايع الناس أبا بكر فجلس علي يجمع القرآن وكتبه في الخزف وأكتاف الإبل وفي الرق فمكث ثلاثة أيام، واجتمعت بنو هاشم كلها معه و لم يبايعوا أبا بكر والزبير معهم، فلما كان اليوم الثالث قال أبو بكر لعمر: قد تخلف بنو هاشم عني و لم يتم لي الأمر حتى يبايعوني، فجاءا إلى علي فدخلا عليه، فقال أبو بكر: أبا حسن ما أبطأ بك عنا؟ قال: يا أبا بكر ما كنت أظن أنك تقدم على أمر وأنا فيكم. قال: أبا حسن أكرهت إمارتي؟ أبسط يديك أبايعك. قال: أو تفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: ما كنت لأفعل. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم رضيك لديننا فرضيناك لدنيانا ما كان يخلفني عن بيعتك كراهة مني لها، ولكن كنت أجمع ما أنزل الله على نبيه عليه السلام من القرآن وهو ذا قد جمعته في هذه الصحيفة الملأى ثم بايعه كذا سمعته. والصواب فيها هو ذا قد جمعته ولا يقال وهو ذا.

أول خليفة فرض له العطاء رعيته أبو بكر

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن عاصم، عن سليمان بن المغيرة، عن حميد بن هلال. وأبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني وغير هؤلاء قالوا: لما ولي أبو بكر رضي الله عنه غدا إلى السوق، فقال المسلمون: أقرضوا لخليفة رسول الله ما يعينه. قالوا: رداءاه إذا أخلقهما وضعهما وأخذ غيرهما ونفقته على أهله كما كان ينفق قبل ذلك وظهره إذا سافر، فقال: رضيت. فلما حضرته الوفاة أوصى بأن يرد ما أخذه من ذلك إلى موضعه من مال المسلمين.

أول خليفة ولي وأبوه حي أبو بكر

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي عن أبي جعفر، عن المدائني قال: قيل لأبي قحافة استخلف أبو بكر. قال: أو أقرت بذلك بنو قصي؟ قالوا: نعم. قال: يفعل الله ما يشاء. قال: و لم ولوه؟ قالوا: لسنه. قال: فأنا أسن منه.

ونازع أبو سفيان أبا بكر وأغلظ له أبو بكر، فقال أبو قحافة: وقره أبا سفيان. فقال: إن الله رفع بالإسلام بيوتاً ووضع بيوتاً، فبيتك مما رفع وبيت أبي سفيان مما وضع. وتوفي أبو قحافة بمكة بعد وفاة أبي بكر بستة أشهر وأيام في المحرم سنة أربع عشرة، وله سبع وتسعون سنة. وكان المنصور يدعو عبد الله بن الحسن أبا قحافة لأن ابنة محمد أدعى الخلافة وهو حي.

أول من سمي خليفة أبو بكر

وخليفة الرجل من يقوم مقامه. خلفته اخلفه خلافة، وأما الخلافة بالفتح فالحمق وقلة الخير رجل خالف. وفي القرآن الكريم. "فاقعدوا مع الخالفين" قال أبو زيد: يعني من لا خير فيه من المنافقين، ويقال خليفة وخلائف وخليف وخلفاً وإذا أرادوا تعظيم الخليفة قالوا خليفة الله، كما قالوا بيت الله وشهر الله.
أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا نفطويه عن أبي العباس المنصوري، عن عبد الله بن محمد القرشي أن أعرابية عرضت للمنصور في طريق مكة بعد وفاة أبي العباس فقالت: يا أمير المؤمنين أحسن الصبر وقدم الشكر فقد أجزل الله لك الثواب في الحالتين، وأعظم عليك المنة في الحادثتين سلبك الله، وأفادك خلافة الله، فسلم فيما سلبك، وأشكر فيما منحك، وتجاوز الله عن أمير المؤمنين، واختار لك فيما ملكك من أمر الدنيا والدين.

أول من هنأ وعزى في مقام واحد

أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل بن ذكوان قال: دخل عطاء بن أبي صيفي على يزيد فهنأه بالخلافة وعزاه في أبيه ففتح للناس باب الكلام، في ذلك قال: رزئت يا أمير المؤمنين في خليفة الله، وأعطيت خلافة الله، قضى معاوية نحبه فغفر الله له ذنبه، ووليت الرئاسة وكنت أحق بالسياسة فاحتسب عند الله جليل الرزية وأشكر على جزيل العطية فعظم الله في معاوية أجرك وأحسن على الخلافة عونك، فأخذه أبو دلامة فقال مما يرثي به المنصور ويمدح المهدي:

عيناي واحدة ترى مزورة ... بإمامها جذلى وأخرى تذرف
تبكي وتضحك تارة ويسؤوها ... ما أنكرت ويسرها ما تعرف
ما إن رأيت ولا سمعت كما أرى ... شعراً أرجله وآخر أنتف
أهدى لذاك الله فضل خلافة ... ولذاك جنات النعيم تزخرف
هلك الخليفة يا لأمة أحمد ... وأتاكم من بعده من يخلف
فابكوا لمصرع خيركم ووليكم ... واستبشروا بقيام ذا وتشرفوا

فأخذه أبو الشيص، فقال يمدح محمد الأمين ويرثي هارون:

جرت جواري السعد والنحس ... والناس في مأتم وفي عرس
العين تبكي والسن ضاحكة ... فنحن في كربة وفي أنس

يضحكنا القائم الأمين، ويبكينا وفاة الإمام بالأمس.

أول ما ورد على أبي بكر حين استخلف

أخبرنا ابو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: بعث أبو بكر خالد بن الوليد على العراق، وكتب إلى المثنى بن حارثة أن يطيعه فاستقبله بالنباج وأتاه أبجر بن جابر فقال له: قدمت خير مقدم، ويعظم الله لك المغنم، ويظهرك على العجم. قال خالد: لو شئت أن تقول الشعر لقلته ما دينك يا ابجر؟ قال: دين عيسى بن مريم. قال: إذاً أنت على ديننا أتؤمن بمحمد؟ قال: لا. قال: إذاً أقتلك. قال: أتقتلني إن لم أتبع دينك و لم أحاربك؟ قال: نعم. قال: ومتى كان دينكم؟ إنما جئتم منذ أعوام. قال: كذا يقول من كفر بعيسى لتسلمن أو لأقتلنك. قال له المثنى : هب لي ابن عمي فأبى، فقال: إذاً أسلم نصارى العرب فأنا زعيم أن سيسلم، فخرج أبجر وقال:

فإن تنجني اللهم من شر خالد فأنت المرجى للشدائد والكرب

وسار خالد حتى أتى بانقيا فصالحه أهلها على ألف درهم وطيلسان فبعث به إلى أبي بكر. فكان أول ما أورد عليه من العراق، وقالوا: أول ما ورد عليه من العراق مال الحيرة، والأول أصح. وكسا الطيلسان الحسن بن علي عليهما السلام وقال ضرار بن الأزور:

أرقت ببانقيا ومن يلق مثلما لقيت ببانقيا من الهم يأرق

أول من استخلف من الخلفاء أبو بكر

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: لما أستعر بأبي بكر الوجع أرسل إلى علي وعثمان ورجال من المهاجرين والأنصار فقال: قد حضر ما ترون ولا بد من قائم بأمركم، فإن شئتم اخترتم لأنفسكم، وإن شئتم اخترت لكم. قالوا: بل اختر لنا، فقال لعثمان أكتب: هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها حيث يتوب الفاجر ويؤمن الكافر ويصدق الكاذب. عهد وهو يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وقد استخلف- ثم رهقته غشية- فكتب عثمان عمر بن الخطاب، فلما أفاق قال أكتبت شيئاً؟ قال: نعم. كتبت عمر بن الخطاب، فقال: رحمك الله أما أنك لو كتبت نفسك كنت لها أهلاً. فاكتب قد استخلفت عمر بن الخطاب بعدي ورضيته لكم، فإن عدل فذلك ظني فيه، وإن بدل فلكل نفس ما كسبت، والخير أردت ولا أعلم الغيب "وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون" فالتوى عمر رضي الله عنه وقال: لا أطيق القيام بأمر الناس، فقال ابو بكر: هاتوا سيفي وتهدده، فانقاد عمر. قال: ثم دخل عليه طلحة وعاتبه على استخلافه عمر، فقال: إن عمر والله خير لكم وأنت شر لهم، أما والله لو استخلفتك

لجعلت أنفك في قفاك، ولرفعت نفسك فوق قدرها حتى يكون الله هو الذي يضعها. أتيتني قد دلكت عينك تريد أن تفتنني عن ديني وتزيلني عن رأيي. قم لا أقام الله رحلك. أما والله لئن بلغني أنك غمطته وذكرته بسوء لألحقنك بحمضات قنة حيث كنتم تسقون ولا تروون، وترعون ولا تشبعون، وأنتم بذلك لححون راضون، فقام طلحة فخرج.

قال أبو جعفر: حمضات جمع حمض وهو ضرب من النبت والقنة أعلى الجبل والجمع قنن وقنان.

أول ما ظهر الإسلام بمكة وأقيمت الصلاة علانية

أخبرنا أبو أحمد بإسناده، عن الواقدي، عن محمد بن عبد الله، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب. وعنه عن يعقوب بن عبد الله، عن جعفر بن أبي المغيرة عن سعيد بن جبير.
وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني جعلت أحاديثهم حديثاً واحداً قالوا: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام، فاستجاب الله دعاءه في عمر، فاسلم بعد أربعين رجلاً وعشر نسوة، فظهر الإسلام بمكة. وأقيمت الصلاة علانية في المسجد الحرام، وجاء جبريل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إقرأ يا محمد على عمر السلام، وأخبره أن رضاه حكم وغضبه عز في كلام هذا معناه.
أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر قال: حدثنا بشر بن محمد أبو أحمد العسكري قال: حدثنا المسعودي عن القاسم قال: قال عبد الله أن إسلام عمر كان فتحاً، وإن هجرته كانت نصراً وإن إمارته كانت رحمة، ما اصطففنا حول الكعبة ظاهراً حتى أسلم عمر، وإني لأحسب الشيطان يفر من عمر، وإني لأحسب بين عيني عمر ملكاً يعلمه، فإذا ذكر الصالحون فحي هل بعمر.

أول من سمي أمير المؤمنين عمر

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن الحسن بن عثمان، عن عبد الله بن صالح، عن يعقوب، عن عبد الرحمن عن موسى بن عقبة، عن الزهري، عن عمر بن عبد العزيز، عن أبي بكر بن سليمان، عن الشفاء، وكانت من المهاجرات أن أبا بكر كان يكتب من خليفة رسول الله حتى كتب عمر إلى عامل العراق أن يبعث إليه رجلين يسألهما عن العراق وأهله، فبعث لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم، فقدما المدينة ودخلا المسجد، فوجدا عمرو بن العاص فقالا: أستأذن لنا على أمير المؤمنين، فقال: أنتما والله أصبتما

اسمه فدخل على عمر، فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال: ما بدا لكم في هذا لتخرجن مما دخلت فيه فأخبره، وقال: أنت الأمير ونحن المؤمنون، فجرى الكتاب بذلك من يومئذ في كلام هذا معناه.

أول من كتب التاريخ الهجري عمر

في ربيع الأول سنة 16

وكان سبب ذلك فيما روى ابو أحمد عن بعض رجاله أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر أنه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب لا ندري على أيها يعمل. قد قرأنا صكاً منه محله شعبان، فما ندري أي الشعبانين الماضي أم الآتي، فعمل عمر رضي الله عنه على كتب التاريخ، وأراد أن يجعل أوله شهر رمضان، فرأى أن الأشهر الحرم تقع حينئذ في سنتين، فجعله من المرحم وهو آخرها فصيره أولاً لتجتمع في سنة واحدة.

وكانت الكتب تؤرخ من موت كعب بن لؤي، فلما كان عام الفيل أرخت منه، وكانت المدة بينهما خمسمائة وعشرين سنة، وأرخ بنو إسماعيل من نار إبراهيم عليه السلام إلى بنائه البيت إلى تفرق معد، ومن تفرق معد إلى موت كعب بن لؤي، ثم أرخوا بعام الفيل، ثم من الهجرة. وعادة الناس أن يؤرخوا بالشيء المشهور، والأمر العظيم المذكور، أرخ بعض العرب بعام الخنان لشهرته بتماوتهم فيه. قال النابغة الجعدي:

فمن بك سائلاً عني فإني	من الفتيان أيام الخنان
مضت مائة لعام ولدت فيه	وعام بعد ذاك وحجتان
وقد أبقت صروف الدهر مني	كما أبقت من السيف اليماني

وتقول العرب أرخت الكتاب وورخته ولا تكاد ورخت تستعمل اليوم. وكانت العرب تؤرخ بالنجوم قديماً، وهو أصل قولهم نجمت على فلان كذا حتى يؤديه في نجوم.

أول من اتخذ بيت مال عمر رضي الله عنه

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد عن أحمد بن شبويه، عن سليمان بن صالح، عن عبد الله بن المبارك، عن معمر، عن قتادة قال: آخر ما أوتي به النبي صلى الله عليه وسلم ثمانمائة ألف درهم من البحرين، فما قام عن مجلسه حتى أمضاه، ولم يكن له بيت مال ولا لأبي بكر وأول من اتخذه عمر.

أول من سن قيام شهر رمضان

سنة أربع عشرة

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن عيسى، عن عبد الله بن وهب، عن بكر بن مضر وعبد الرحمن بن سلمان، عن أبي الهاد، عن قيس بن عبد الملك وعن غير هؤلاء قالوا: أمر عمر أبا حثمة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل أن يصلوا بالناس في شهر رمضان، وسمع الناس يقولون فلان أقرأ من فلان وفلان أحسن صوتاً بالقرآن من فلان فنهاهم عن ذلك وقال: أتفعلون ذلك وأنتم أنتم، فكيف بمن جاء بعدكم؟ وكانوا قبل ذلك يصلون في المسجد فرادى، ثم قدموا أبياً فصلى بهم، فرآهم عمر فقال: بدعة وأي بدعة ثم أقر أبياً على ذلك وأضاف إليه أبا حثمة ومعاذ.

أول من عس بالليل

أخبرنا أبو أحمد عن أبيه، عن عسل بن ذكوان، وعن الجوهري عن أبي زيد قال: قال عبد الله بن زيد الأسلمي: بينا عمر يعس ذات ليلة إذ سمع امرأة تقول:

هل من سبيل إلى خمر فأشربها ... أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج

فلما أصبح سأل عنه وأحضره، وكان من بني سليم، فإذا هو أحسن الناس وجهاً وشعراً فحلقه، فازداد حسناً فأمره أن يعتم، ففعل ذلك فازداد حسناً، فقال عمر والذي نفسي بيده لا يجامعني في أرض فأمر له بما يصلحه وسيره إلى البصرة، فكتب نصر من البصرة إلى عمر بعد حول:

لعمري لئن سيرتني وحرمتني ... وما نلت ذنباً إن ذا لحرام

وما نلت شيئاً غير ظن ظننته ... وفي بعض تصديق الظنون أثام

لئن غنت الحوراء يوماً بمنية ... وبعض أماني النساء غرام

فحققت بي الظن الذي ليس بعده ... بقاء فمالي في الندى كلام

فأصبحت منفياً على غير ريبة ... وقد كان لي بالمكتين مقام

وقد يغني مما تظن تكرمي ... وآباء صدق سالفون كرام

ويمنعنها مما ظننت صلاتها ... وفضل لها في قومها وصيام

فهاتان حالانا فهل أنت راجعي ... فقد جب مني غارب وسنام

وقالت المرأة:

قل للإمام الذي تخشى بوادره	مالي وللخمر أو نصر بن حجاج
إني غنيت أبا حفص بغيرهما	شرب الحليب وطرف فاتر ساج
إن الهوى زمه التقوى فحبسه	حتى أقر بألجام وأسراج
أمنية لم أرد فيها بضائرة	والناس من هالك فيها ومن ناج

فضرب أهل المدينة المثل بهذه المرأة فقالوا: اصعب من المتمنية، وهي العزيمة بنت همام أم الحجاج بن يوسف، وقالوا: جدته. وكان حين عشقت نصراً تحب المغيرة بن شعبة، وذكروا أن عروة بن الزبير كنى أخاه عند عبد الملك، فقال له الحجاج: أتكني أخاك المنافق عند أمير المؤمنين لا أم لك، فقال عروة: إليّ تقول ذلك يا ابن المتمنية؟ وأنا ابن عجائز الجنة صفية وخديجة وأسماء وعائشة.

ولما ورد نصر البصرة نزل على مجاشع بن مسعود، فعشق امرأته شميلة، وكانت هي ونصر كاتبين ومجاشع أمي لا يكتب، فكتب نصر على الأرض بحضرة مجاشع إني قد أحببتك حباً لو كان فوقك لأظلك أو كان تحتك لأقلك، فكتبت شميلة: وأنا. فقال مجاشع: ما كتب وكتبت؟ قال: كتب كم تحلب ناقتكم وتغل أرضكم؟ فكتبت: وأنا. فقال: ما هذا لذاك فطبق وكفأ على الكتابة جفنة وأتى بمن قراها فقال لنصر ما سيرك عمر لخير قم، فإن وراءك أوسع لك، فنهض خجلاً إلى مترل بعض المسلمين، فضنى من حب شميلة فبلغ مجاشعاً فعاده فوجد لما به، فقال لشميلة: قومي إليه فمرضيه ففعلت وضمته إلى صدرها، فعادت قواه. قال بعض العواد: قاتل الله الأعشى كأنه شهد أمرهما فقال:

لو أسندت ميتاً إلى صدرها	عاد ولم ينقل إلى قابر

فلما فارقته عاد إلى مرضه، فلم تزل تتردد عليه حتى مات، فقال أهل البصرة: أدنف من التميمي فذهبت مثلاً.

وروى بعض الشيوخ خلاف هذا قال: لما توفي عمر ركب صدر راحلته حتى أتى المدينة وكان عمر غيوراً والغيرة من أحمد أخلاق الرجال، وعابوا على معاوية ثلاثاً تعين على السؤدد، الجلح، واندحاق البطن، وتركه الأفراط في الغيرة، والجلح: انحسار الشعر عن مقدم الرأس، واندحاق البطن: خروجه وكبره، ومن أعجب ما روي في الغيرة أن عبد الله بن الزبير وقف لأبيه الزبير بباب داره، وقال: لا أتركنك تدخل حتى تطلق أمي فإن مثلي لا يحسن أن تكون له أم توطأ فطلقها فتركه فدخل.

ومما يدل على شدة غيرة عمر رضي الله عنه ما أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن أبي حاتم، عن أبي عبيدة قال: تناشد الناس شعراً على عهد عمر رضي الله عنه ثلاث سنين، ثم ذكر رجل أنه قاتل قائله

فقال عمر: كيف كان شأنك وشأنه فقال: أقبلت حتى نزلت قرية في الليل، وإذا مصباح في بيت رجل يغني:

وأشعث غره الإسلام مني   خلوت بعرسه يوم التمام

فقال عمر اقتحم عليه، فقال: قد فعلت. ثم قال:

أتيت على ترائبها وتسري   على جرداء لاحقة الحزام

فقال عمر: أقتل. قال: قد فعلت. قال: أبعده الله إلى النار ثم زاد فيها:

كان مجامع الويلات منها   قيام ينظرون إلى قيام

ومنه ما روى لنا أبو أحمد قال: تذاكرنا غيرة عمر بالبصرة، فقال ابن جمهور: دخل رجل من أهل المدينة على امرأة وقد افترشها رجل فقتله، وخرج حتى أتى عمر رضي الله عنه وهو يأكل فأكل معه فجاء أولياء المقتول فقالوا الآكل معك قتل صاحبنا قال له: أكذلك هو؟ قال: نعم دخلت على امرأتي فإذا هو قاعد منها مقعدي، فقتلته. قال له عمر: أحسنت فإن عاد فعد هكذا.

قال: وحدث أبو الوليد عن عبد الله بن صالح عن بوربن برمك أن عمر كان يعس في المدينة، فسمع صوت رجل في بيت يغني، فدخل عليه من وراء البيت، فوجد عنده امرأة وخمراً فقال: ما هذا يا عدو الله؟ قال: لا تعجل يا أمير المؤمنين إن كنت عصيت الله في واحدة فقد عصيته في ثلاث. قال الله تعالى: "ولا تجسسوا" وقد تجسست. وقال: " وأتوا البيوت من أبوابها" وقد تسورت. وقال: "فإذا دخلتم بيوتاً فسلموا على أنفسكم" وقد دخلت من غير سلام. قال عمر: فهل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: بلى يا أمير المؤمنين لله عليّ إن عفوت عني ألا أعود فعفى عنه.

أول من عاقب على الهجاء

أخبرنا غير واحد أن الزبرقان بن بدر لقي الحطيئة فقال: من أنت؟ فقال: أنا حسب موضوع أبو مليكة. فقال له الزبرقان: إني أريد وجهاً نصر إلى مترلي، وكن هناك حتى أرجع ففعل، فأنزلته امرأة الزبرقان وأكرمته، فحسده بنو عمه بنو لأي فدسوا إلى الحطيئة فقالوا: إن تحولت إلينا أعطيناك مائة ناقة ونشد إلى كل طنب من أطناب بيتك حلة تحويه، وقالوا لامرأة الزبرقان: إنما قدم الزبرقان هذا الشيخ ليتزوج ابنته فقدح ذلك في نفسها، فلما أراد القوم النجعة تخلف الحطيئة وتغافلت المرأة، فاحتمله القريعيون ووفوا له بما قالوا، فأخذ في مدحهم وهجا الزبرقان فقال:

أزمعت يأساً مبيناً من نوالكم   ولا يرى طارداً للحر كالياسي

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه لا يذهب العرف بين الله والناس

فاستعدى الزبرقان عليه عمر، فحكم عمر حسان فقال ما هجاه ولكن سلح عليه فحبس عمر الحطيئة في بئر فقال يستعطفه:

ما ذا تقول لأفراخ بذي مرخ حمر الحواصل لا ماء ولا شجر

ألقيت كاسبهم في قعر مظلمة فاغفر عليك سلام الله يا عمر

ما آثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

فأخرجه عمر وجلس على كرسي وأخذ شفرة وأوهمه أنه يريد قطع لسانه، فصاح وقال: إني يا أمير المؤمنين والله قد هجوت أمي وأبي ونفسي وامرأتي، فتبسم عمر وقال: ما الذي قلت؟ قال: قلت لأبي وأمي:

ولقد رأيتك في النساء فسؤتني وأبا بنيك فساءني في المجلس

وقلت أيضاً:

تنحي واجلسي مني بعيداً أراح الله منك العالمين

ولم أظهر لك البغضاء مني ولكن لا أخالك تعقلين

أغربالاً إذا استودعت سراً وكانوناً على المتحدثين

وقد أخذ هذا المعنى من كعب بن زهير حيث يقول:

ولا تمسكت بالوعد الذي وعدت إلا كما يمسك الماء الغرابيل

قال: وقلت لامرأتي:

أطوف ما أطوف ثم آوي إلى بيت قعيدته لكاع

وقلت لنفسي:

أبت شفتاي اليوم ألا تكلما بسوء فما أدري لمن أنا قائله

أرى لي وجهاً شوه الله خلقه فقبح من وجه وقبح حامله

وقد هجا من أحسن إليه فقال:

سمحت ولم تبخل ولم تعط طائلاً فسيان لا ذم عليك ولا حمد

فخلى سبيله عمر بعد أن أخذ عليه ألا يهجو أحداً، وجعل له ثلاثة آلاف درهم اشترى بها منه أعراض المسلمين، فقال يذكر ذلك:

وأخذت أطوار الكلام فلم تدع	شتماً يضر ولا مديحاً ينفع
ومنعتني عرض البخيل فلم يخف	شتمي وأصبح آمناً لا يجزع

أول من ضرب في الخمر ثمانين عمر

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن عبد الرحمن بن أزهر قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم غداة الفتح يتخلل الناس ويسال عن مترل خالد بن الوليد وأنا غلام شاب فأتي بشارب، فأمرهم فضربوه بما في أيديهم، فمنهم من ضربه بنعله، ومنهم من ضربه بعصا، وحثا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجهه التراب. فلما كان أبو بكر رضي الله عنه أتي بشارب، فسال عن ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فحزروه أربعين فضربه أربعين، فلما كان عمر رضي الله عنه كتب إليه خالد بن الوليد أن الناس قد انهمكوا في الشراب وتحاقروا العقوبة، فقال: فهم عندك فاسألهم وعنده المهاجرون الأولون فسألهم، فأجمعوا على أن يضرب ثمانين. وقال علي عليه السلام: إن الرجل إذا شرب افترى فاجعله حد الفرية، ثم ضرب في أيام عثمان أربعين.

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري عن أبي زيد بإسناده قال: دخل أبو زينب وأبو مروع على الوليد بن عقبة فوجداه سكراناً، فأخذا خاتمه ولحقا بعثمان فأخبراه فأشخصه وشهدا عليه، فأمر عثمان علياً أن يجلده، فقال للحسن: قم فاجلده. فقال: "ولّ حارها من تولى فارها" وأمر عبد الله بن جعفر أن يجلده، فجعل يضربه وعلي رضي الله عنه يعد حتى بلغ أربعين، فقال: أمسك. جلد النبي صلى الله عليه وسلم أربعين، وأبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين، وكل سنة، وهذا أحب إلي، فقال أبو زيد الطائي وكان نصرانياً ينادم الوليد:

ولعمر الإله لو كان للسيف	مصاب أو للسنان مقال
ما تناسيتك الصفاء ولا الود	ولا حال دونك الأشغال
ولحرمت لحمله المبغض صلة	ضل حلمهم فكيف اعتالوا
من رجال تناولوا منكرات	لينالوا الذي أرادوا فنالوا

أول من حرم المتعة عمر رضي الله عنه

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أبي خداش، عن عيسى بن يونس، عن الأملح قال: سمعت الزبير يقول: تمتع عمرو بن حريث من امرأة بالمدينة فحبلت، فأتي بها عمر فأراد أن يضربها، فقالت: تمتع مني عمرو بن حريث، فقال: من شهد نكاحك؟ فقالت: أمي وأختي، فأرسل عمر إلى عمرو فقدم فسأله، فقال: صدقت. فقال عمر للناس: هذا نكاح فاسد وقد دخل فيه ما ترون، ورأى عمر أن يحرمه. قال الزبير فقلت لجابر: هل بينهما ميراث؟ فقال: لا؟ وخطب عمر فقال: متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا أنهى عنهما أو أعاقب عليهما. قال سعيد بن المسيب: رحم الله عمر لولا أنه نهى عن المتعة لفشا الزنا. وقال ابن عباس رضي الله عنه: رحم الله عمر لو أنه ما نهى عن المتعة ما زنى أحد، وكان ابن عباس يرى المتعة. قال الشاعر:

يا صاح هل لك في فتوى ابن عباس

فقال علي لابن عباس: أنت امرؤ تائه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن متعة النساء واكل لحوم الحمر الأهلية بخيبر، فرجع ابن عباس عن هذا القول، فنادى يوم عرفة بأعلى صوته: من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا عبد الله بن العباس ألا إن المتعة حرام كالميتة والدم ولحم الخنزير، فقال جابر بن عبد الله: نهانا رسول الله عن المتعة فلم نعد لها أبداً. وقالت الفقهاء: قد صح حظر المتعة من جهة الإجماع والقرآن والسنة. والصحيح أن عمر نهى عنها لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عنها، والشاهد حديث أبي هريرة أن رسول الله حرم المتعة بالطلاق والنكاح. وقوله تعالى: "فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون" والمتعة هي وراء ذلك، وأما متعة الحج، فإن النبي أحلها ثلاثة أيام ثم حرمها.

أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد عمر

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري عن أبي زيد، عن محمد بن حاتم، عن منصور بن سلمة، عن الخزاعي، عن ليث بن سعد، عن يزيد بن الهادي، عن ابن شهاب، عن سعيد بن المسيب أن عمر في أول خلافته جعل أمهات الأولاد في ميراث أبنائهم حتى مات رجل من بني فهر وله أولاد من مهيرة وغلام من أم ولد فأقاموها عليه قيمة سخطوا عليه فيها لجمالها، فأخذ الغلام أمه، وبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل إلى الغلام فسأله، فقال يا أمير المؤمنين: خيروني بين أن أؤدي في أمي وبين أن يخرجوني من ميراث أبي فاخترت أحرار أمي، وعلمت أن الله رازقي، فقال عمر: لقد فعلت ما أردت. فقام عمر على المنبر يخطب الناس فقال: أما بعد؛ فقد كان مني في أمر أمهات الأولاد ما كان، وقد ركب الناس فيهن

الحرام، وأيما أمة ولدت من سيدها فلا تباع ولا توهب ولا تورث وهي لسيدها متعة في حياته. فإذا مات فهي حرة.

أول من جمع الناس في صلاة الجنائز على أربع تكبيرات عمر

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أبي خداش، عن أبي الورقاء، عن سفيان، عن عامر، عن شقيق، عن أبي وائل قال: جمعهم يعني عمر فسألهم عن تكبيرات الرسول صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم: أربع. وقال بعضهم: خمس. وبعضهم: ست. كلهم قال ما سمع، فجمعهم على أربع، قال: وكان آخر ما كبر النبي أربعاً على سهيل ابن البرصاء.

أول من اتخذ الديوان عمر

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الصولي عن العادي قال: حدثنا ابن الضحاك عن الهيثم بن عدي عن عوانة قال: جاء مال من البحرين إلى أبي بكر، فساوى فيه بين الناس، فغضب الأنصار فقالوا: ما فضلنا؟ فقال لهم أبو بكر: صدقتم إن أردتم أن أفضلكم فقد صار ما عملتموه للدنيا، وإن شئتم كان ذلك لله وللدين، فقالوا: والله ما عملناه إلا لله، وانصرفوا، فرقي أبو بكر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: يا معشر الأنصار، لو شئتم أن تقولوا: إنا آويناكم وشاركناكم في أموالنا، ونصرناكم بأنفسنا لقلتم، وإن لكم من الفضل ما لا يحصى عدده وإن طال به الأمد، فنحن وأنتم كما قال الغنوي:

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت ... بنا نعلنا في الواطئين فزلت

أبوا أن يملونا ولو أن أمنا ... تلاقي الذي لاقوه منا لملت

هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ... ظلال بيوت أدفأت وأكنت

ثم قام عمر، فأتاه أبو هريرة من البحرين بثمانمائة ألف درهم، وقال خمسمائة ألف درهم فخطب وقال: قد جاءكم مال، فإن شئتم كلته كيلاً، وإن شئتم عددته عداً فقال الفيرزان: إن العجم يدونون ديواناً يكتبون فيه ما لواحد واحد، وأراد عمر أن يبعث بعثاً فقال له الفيرزان: إن تخلف رجل عن هذا البعث كيف تصنع؟ وكيف تعلم عاملك بخبره؟ وأشار عليه بالديوان فعمله، وجعل المال في بيت مال، ثم قال بمن نبدأ؟ فقيل؛ بنفسك؟ فقال؛ بأهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فبدأ بأزواج النبي، فجعل

لعائشة اثني عشر ألفاً في كل سنة، وكتب أزواج النبي في عشرة آلاف لكل واحدة، وكتب بعد أزواج النبي علياً عليه السلام في خمسة آلاف، ومن شهد بدراً من بني هاشم، ثم كتب عثمان في خمسة آلاف، ومن شهد بدراً من موالي بني أمية على سواء، ثم قال: بمن نبدأ؟ قالوا: بنفسك. قال: بل نبدأ بآل أبي بكر فكتب طلحة في خمسة آلاف، وبلالاً في مثلها، ثم كتب لنفسه ومن شهد بدراً من بطون قريش خمسة آلاف خمسة آلاف، ثم كتب الأنصار في أربعة آلاف. فقالوا: قصرت بنا عن إخواننا قال: أجعل الذين قال الله لهم: "للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً" مثل من أتته الهجرة في داره؟ قالوا: رضينا، ثم كتب لمن شهد فتح مكة في ألفين في كلام هذا معناه.

أول من فتح الفتوح ومسح السواد عمر

أخبرنا أبو القاسم بإسناده عن المدائني، قال العمري عن أبي عبد الرحمن الثعلبي، وأخبرونا عن غير هؤلاء قالوا: لما ظهر المسلمون على السواد وفارس، لم يعلموا كيف يصنعون بالخراج وجباية أهل الذمة، وكان سعد يستعمل العامل على طروح فيأتيه بما يجد، ولا يدري كيف يعمل، وكان بعث عمر عثمان بن حنيف على ساحة السواد، وكاتبه بأن يبعث إليه من دهاقينها عشرة نفر، ففعل، فسألهم عمر عما كانت ملوك فارس تعمله في جباية الخراج، فاختلفوا عليه فقال: ما سبب اختلافكم؟ قالوا: لننظر ما لنا عندك: قال: لكم عندي ما تحبون. فقالوا: كانت ملوك فارس يأخذون على كل جريب عامر أو غامر مما يناله الماء قفيزاً ودرهماً، ومن القفيز الحنطة على التقريب درهم، والدرهم تتمة درهمين، وإنما ألزموا ذلك العامر والغامر، لأن الأرض تبور سنة وتعمر سنة، فكانوا يقولون: إذا دفعنا إليكم الأرض والماء، فأدوا حقوقنا عمرتم أو لم تعمروا، وتفسير الخراج- الكروة- وأخذوا منهم عن كل جريب عامر وغامر، أربعة دراهم، وأمر عثمان بن حنيف فمسح السواد، وحدها في الطول، من العلث وحوبى- وهما من أرض الموصل- إلى عبادان، وهي مائة وخمسة وعشرون فرسخاً، فبلغت جربانة ستة وثلاثين ألف جريب، فوضع على كل جريب من الحنطة أربعة دراهم. وكل جريب من الشعير. وعلى جريب النخل ثمانية دراهم، وعلى جريب الكرم والرطب ستة دراهم، وعلى جريب الزيتون اثنا عشر درهماً، وعلى أهل الذمة على الفقير منهم اثنا عشر درهماً في كل سنة، وعلى الوسط منهم أربعة وعشرون، وعلى أهل اليسار ثمانية وأربعون درهماً، رفع عنهم الرق حين وضع عليهم الخراج في رقابهم، وجعلهم أكرة في الأرض.

قال الشعبي: لم يكن لأهل السواد ذمة، فلما أخذت الجزية منهم صارت لهم ذمة، فمن أسلم منهم فهو حر لا خراج عليه ولا رق، فبلغ جباية السواد أيام عمر وعثمان مائة ألف ألف، فلما ولي معاوية صارت إلى خمسين ألف ألف، فلما كان أيام الحجاج بلغت جباية السواد ثمانية عشر ألف ألف، وكان أسلفهم

ألفي ألف، فحصل ستة عشر ألف ألف، بعد العسف والظلم وضرب الأبشار وهتك الحرم.

وقال المدائني: وبلغ الخراج من سواد الكوفة أيام عمر رضي الله عنه مائة ألف ألف درهم، والدرهم يومئذ- درهم ودانقين ونصف- وقال أبو جعفر الحرار: أنا أقول إنها دنانير، وقيل: كان الحجاج يجبيها ستين ألف ألف، ثم صارت في أيام عمر بن عبد العزيز مائة ألف ألف وأربعة وعشرين ألف ألف، مثقال، ولما نقصت الجباية أيام الحجاج، منع أهل السواد ذبح البقر، فسمعت بعض أصحابنا يتحدثون أن ابن الغز كان عظيم الذكر، فإذا واقع امرأة ذهب عقلها، فأنكرت امرأة ذلك وقالت: سأجرب. فلما واقعها قال لها: أتريني السها؟ وهو كوكب صغير في بنات نعش، قالت: هاهو ذا، وأشارت إلى القمر، فضحك وقال: أريها السها وتريني القمر فذهبت مثلاً فلما كان أيام الحجاج، شكى إليه خراب السواد، فحرم لحوم البقر لكثرة الحرث، فقال بعض الشعراء:

شكونا إليه خراب السواد فحرم فينا لحوم البقر
وكان كما قيل في بعده أريها السها وتريني القمر

أول وشاية كانت بالعمال
ومصالحة خليفة لهم على ما يأخذه منهم

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو بكر قال: أخبرنا أبو حاتم عن أبي عبيدة، قال أبو بكر: هذا الخبر صدر به أبو عبيدة كتاب منافع الشعر ومضاره. قال: كتب يزيد بن قيس الصعق الكلابي إلى عمر رضي الله عنه:

أبلغ أمير المؤمنين رسالة فأنت أمين الله في الأمر والنهي
وأنت أمين الله فينا ومن يكن أميناً لرب الناس يسلم له صدري
فلا تدعن أهل الرساتيق والقرى يضيعون مال الله في الأدم الوفر
وأرسل إلى الحجاج فاعرف حسابه وأرسل إلى جزء وأرسل إلى بشر
ولا تنسين النافعين كليهما ولا ابن غلاب من سراة بني نصر
وما عاصم منا بصفر عنانه وذاك الذي في السوق مولى بني بدر
وأرسل إلى النعمان وابن مغفل وصهر بني غزوان أني لذو خبر
وشبل هناك المال وابن محرش وقد كان في أهل الرساتيق ذا ذكر

فأرسل إليهم يصدقوك ويخبروا أحاديث هذا المال ذي العلم الدثر

فقاسمهم نفسي فداؤك أنهم سيرضون إن قاسمتهم منك بالشطر

ولا تدعوني للشهادة أنني أعيب ولكني أرى عجب الدهر

أرى الحور كالغزلان والبيض كالدمى وما ليس يحصى من قرام ومن ستر

ومن ريطة مكنونة في خبائها ومن حي أستار معصفرة حمر

إذا التاجر الداري جاء بفأرة من المسك راحت في مفارقهم تجري

نؤوب إذا آبوا ونغزو إذا غزوا فأنى بهم وفر ولسنا ذوي وفر

الحجاج الذي ذكره، هو الحجاج بن عتيك الثقفي، كان على الغزاة وجزء بن معاوية، عم الأحنف، كان يلي السوق، وبشر بن المحتضر المري كان على جند نيسابور، والنافعان نافع بن الحارث كان على غنائم الإبلة، وأخوه نفيع أبو بكر، وابن غلاب خالد بن الحارث بن أوس من بني دهمان، كان على بيت المال بأصبهان، وعاصم بن قيس بن الصلت السلمي، كان على المناذر وعلى الصدقة، والذي في السوق سمرة بن جندب، كان على سوق الأهواز، والنعمان بن عون بن نضلة من بني عدي بن كعب، وضمير بن غزوان ومجاشع بن مسعود، وابن مغفل المزني، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: "وما على المحسنين من سبيل" وسبل بن معبد البجلي، وابن محرش- هو أبو مريم أياس بن صبيح- كان على رام هرمز، فلما قاسمهم عمر أموالهم أجاب الكلابي الحارث الغلابي:

أبلغ أبا المختار أما لقيته فقد كان ذا قربى إليك وذا صهر

فما كان مالي من جباية خائن فتجعلني مما يؤلف في الشعر

ولكن عطاء الله في كل ركبة إذا الخيل جالت بالمثقفة السمر

وصبري إذا حاد النجيد عن الوغى وأمري إذا حاد المدجج بالصبر

فإن كنت للنصح ابتغيت قصيدة فإن لدى الله المثوبة بالأجر

وإن كان عن بغي وفرط نفاسة فشر هي الحواء ذو النيرب المعري

وأخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا ابن الأنبار قال: حدثنا محمد بن أحمد المقدمي قال: حدثنا عبد الله بن شبيب قال، حدثنا محمد بن معاوية عن عبد الرحمن بن عبد الملك الأنصاري- وكان جليساً لمالك بن أنس- عن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم قال: لما قلد عمر بن الخطاب عمرو بن العاص

على مصر، بلغه أنه قد ظهر له مال كثير، من ناطق وصامت فكتب إليه: أما بعد: بلغني ما ظهر لك من كثرة المال، و لم يكن ذلك في رزقك، ولا كان لك مال قبل ذلك، فأنى لك ذلك؟ فوالله لم يهمني في ذات الله، إلا من اختان مال الله لكثر همي، وانتشر أمري، وقد كان عندي من المهاجرين الأولين من هو خير منك، ولكني قلدتك هذا الأمر رجاء عنائك، فإن كان ذاك لك، فإنا لا نؤثرك على أنفسنا، فاكتب إليّ: من أين لك هذا المال؟ وعجل.

فكتب عمرو: أما بعد: فقد فهمت كتاب أمير المؤمنين، فأما ما ظهر لي من مال، فإنا قدمنا بلاداً رخيصة الأسعار، كثيرة الغزو، فجعلنا ما أصابنا في الفضول التي اتصلت بأمير المؤمنين، والله لو كانت جبايتك حراماً ما جئتك، وقد اتهمتني، فأقصر عني كتابك، فإن لنا أحساباً إذا رجعنا إليها أغنتنا عن العمل مع مثلك، وذكرت أن عندك من المهاجرين من هو خير مني، فإن كان ذاك فوالله ما دققت لك باباً ولا فتحت لك قفلاً، فكتب إليه عمر رضي الله عنه: أما بعد: فإني لست من تسطيرك الكتاب، وسقيفك الكلام في شيء، وأنتم معشر الأمراء، قعدتم على عيون الأموال، ولن يعوذكم عذر، وإنما تأكلون النار، وتؤثرون العار، وقد وجهت إليك محمد بن مسلمة، فسلم إليه شطر ما في يدك، فصنع عمرو لمحمد طعاماً فلم يأكل منه وقال: هذا تقدمة الشر، لو جئتني بطعام الضيف لأكلت، فنح عني طعامك، وأحضرني مالك، فأحضره ماله، فجعل يأخذ شطره، فلما رأى كثرة ما صار إلى محمد قال: لعن الله زماناً كنت فيه عاملاً لعمر، فوالله لقد رأيت عمر وأباه، على كل واحد منهما عباءة قطوانية، لا تجاوز مآبض ركبتيه، وعلى عنقه حزمة حطب، والعاص بن وائل في مزراب الديباج، فقال محمد: أيها عنك فعمر والله خير منك، وأما أبوك وأبوه فإنهما في النار، ولولا ما سبقت إليه من الإسلام، لألقيت معتقلاً شاة، يسرك عذرها، ويسوؤك جمادها، قال: صدقت، فأكتم علي، قال: أفعل.

وأكثر ما كتب لك من هذه الأخبار فإني أكتبه من حفظي إذ حال بيني وبين الوصول إلى قطانها من كتبي، استيلاء الضعف، وقلة المعين، فإن وجدت في بعض ألفاظها تغييراً فلا تنكر، فإني قد أديت إليك المعاني وافية، وصورتها في نفسك تصويراً صحيحاً، وما ألقيته من ألفاظها فإنه لا يحتاج إليه في كشف أغراضها والتعبير عن صورها، فإذا انكشف لك المعنى فلا تبال بما ألقى من فضول اللفظ، فقد خف عنك بإلقائها مؤونة فضل الاستمتاع، وفضل الحفظ، وكثرة تحريك اليد بالكتابة، ولكل كلام مقدار تقبله النفس، ويعيه القلب فإذا جاوز ذلك تبرم به القارئ، ونبأ عنه سمع السامع، وخير الأمور أوسطها، وأحبها إلى النفوس أعدلها.

أول من انتقش على خاتم الخلافة

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن الأسود بن شيبان قال: حدثنا خالد بن سمير قال: كان رجل يقال له معن بن زائدة، انتقش على خاتم الخلافة، فأصاب به خراجاً من خراج الكوفة، فبلغ عمر ذلك فكتب إلى المغيرة بن شعبة يعلمه أمره، ويأمره أن يطيع فيه أمر رسوله، فخرج المغيرة حتى وقف على معن، وقال لرسول عمر: مرني بما شئت، قال: إجعل في عنقه جامعه، واحبسه، ففعل، والسجن يومئذ من القصب، ففرج القصب وخرج وركب ناقة، حتى أتى عمر فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين. قال: وعليك السلام؟ من أنت؟ قال: أنا معن بن زائدة، قد جئتك تائباً، قبل أن تقدر علي، قال: لا حياك الله، فلما صلى الصبح استشار الصحابة، فقال بعضهم: أصلبه، وقال بعضهم: اقطع يده، فسأل علياً فقال: كذب كذبة فعقوبته بشره فضربه وحبسه مدة، ثم سأل معن رجلاً يسأل فيه عمر، فسأله فقال: ذكرتني الطعن، وكنت ناسياً، ثم عاد به فضربه وحبسه طويلاً، ثم قال: أكتب لنا مالك؟ وأظن أن هذا أول ما صولح عليه رجل من جناية جناها، فأخذ شطر ماله، وكان بالمضيق بين مكة والمدينة، فركب معن ناقته حين طلعت الشمس يوم عرفة، فانتهى إلى عمر قبل المغرب، فلما رجع عمر، سأل عن ذلك، فأخبر بصدقه، وكان عمر لما شاطره ماله اختار معن الذي فيه هذه الناقة، فأراد معن أن يعرف عمر أنه غبنه.

أول من ارتشى

يرفأ حاجب عمر

قال المغيرة بن شعبة: ربما عرف الدرهم بيدي لأدفعه إلى يرفأ غلام عمر ليسهل أذني.

أخبرني أبي رحمه الله قال: حمل بعض أصحابنا إلى بعض العمال رقعة في شفاعة، فردها، وحمل أخرى، فردها، و لم يشفع لصاحبها، فقال له بعض ندماء العامل: نراك تحمل قرطاساً مطوياً على مختلفات سود، فترد عن حاجتك، فلو حملته ملوناً على أشباه بيض، لقضيت لك فحمل الرجل دراهم، فقضى حاجته. المختلفات السود، يعني الحروف. والأشباه البيض، الدراهم، قال زهير:

ومن لم يصانع في أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

أول من حمل الطعام من مصر إلى الحجاز عمر رضي الله عنه

أخبرنا أبو القاسم بإسناده على المدائني عن شيوخه قال: أجدبت الأرض على عهد عمر، فألقت الرعاة عصيها فتقاطرت البوادي المدينة، فاجتمع فيها خمسون ألفاً، فكان عمر رضي الله عنه يعولهم، فكتب عمر إلى عماله: الغوث الغوث، فحملوا إليه في البر والبحر، وحمل ابن العاص من مصر في بحر أبلة طعاماً كثيراً، وفي البر مثله، فقال لأبي عبيدة بن الجراح مر به إلى البادية، وأقسم الطعام فيهم، وألبسهم الطروف، وأنحر لهم الإبل ففعل، وأكلوا واحتملوا اللحم والودك، وحلف عمر رضي الله عنه لا يأكل سمناً ولا لحماً حتى يحيي الناس، ثم كتب إليه عمرو بن العاص: إن الخلق لا يشبعهم إلا الخالق، فمر الناس فليستسقوا، فقال كعب الأحبار: كانت بنو إسرائيل إذا أصابهم جدب، استسقوا بعصبة الأنبياء: فمشى عمر إلى العباس حتى صعد به المنبر، فقال: اللهم إنا قد توجهنا إليك بعم نبينا، وصنو أبيه، فاسقنا الغيث، ولا تجعلنا من القانطين. وقال العباس: اللهم إنك لم تترل بلاء إلا بذنب، ولا تكشفه إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكان نبيك، وهذه أيدينا مبسوطة إليك بالتوبة من الذنوب، ونواصينا ذليلة لك، فاسقنا الغيث، وانشر علينا رحمتك، ولا تجعلنا من الخائبين.

قال: فأرخت السماء غزالتها بشآبيب المياه، حتى استوت الحفر والآكام، فقال عمر: هذه والله الوسيلة، في كلام هذا معناه.

أول من احتبس في الإسلام صدقة عمر رضي الله عنه

أخبرنا أبو أحمد قال: حدثنا الجوهري قال: حدثنا أبو زيد قال: حدثني محمد بن يحيى، عن الواقدي، عن عتبة بن جبيرة، عن الحصين بن عبد الرحمن، عن عمر بن سعيد بن معاذ قال: قالت الأنصار: أول ما احتبس في الإسلام صدقة عمر، كان له مال يقال له ثمغ، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: لي مال وأنا أحبه، فقال: أحبس أصله وسبل ثمره، ففعل، وقال الواقدي: عن رجاله، ثمغ أول مال تصدق به في الإسلام، في كلام هذا معناه.

أول من أعال الفرائض عمر

قال ابن عباس: أول من أعالها عمر رضي الله عنه، لما التوت الفرائض، فدافع بعضها بعضاً، قال: والله ما أدري، أيكم قدم الله، وأيكم آخر، - وكان أمراً ورعاً - فقال: ما أجد لي شيئاً من أن أقسم المال بينهم بالحصص، وادخل على كل ذي حق ما دخل عليه عول الفريضة.

وروي: أن العباس أول من أشار على عمر بذلك، وكان ابن عباس لا يرى العول، ويقول: وأيم الله لو

قدم من قدم، وأخر من أخر، ما عالت فريضة، فقيل: وأيها التي قدم الله وأيها التي أخر، قال: كل من لم يزل عن فريضة إلا إلى فريضة، فهي التي قدم، وكل من إذا زال عن فريضة لم يكن له إلا ما بقي فهي مما أخر، فأما التي قدم، فالزوج والزوجة والأم، لأنهم لا يزالون عن فرض إلا إلى فرض، والبنات والأخوات يزلن عن فرض إلى تعصيب مع البنين، والأخوة، فيكون لهن ما بقي مع الذكور، فيبدأ بأصحاب السهام ثم يدخل الضرر على الباقين، وهو الذين يستحقون ما بقي إذا كانوا عصبة.

أول من أخذ زكاة الخيل عمر رضي الله عنه

أتى بفرس تباع بمائة قلوص فقال: ما ظننت أن أثمان الخيل تبلغ هذا المبلغ، وأخبر أن بالشام خيلاً سائمة، فأمر بأخذ الصدقة منها، وبناه على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر الخيل خذوا حق الله فيها. قال أبو حنيفة: فأما قول رسول الله: "عفوت لكم عن الخيل والرقيق"، فإنما أراد الخيل التي تتخذ للركوب، دون السائمة، وفي السائمة الصدقة، كما يقول مخالفنا: إنما أراد الرقيق الذي يتخذ للخدمة، دون الذي يشترى للتجارة، وفي الذي يشترى للتجارة الزكاة، وكلا اللفظين خاص.

أول من أقطع القطائع عثمان رضي الله عنه

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، وعن أبي جعفر أيضاً عن الحسين بن الأسود يحيى بن آدم عن إسرائيل عن جابر وعن العقدي أيضاً وعن هؤلاء قالوا: أول من أقطع الأرضين عثمان، و لم يقطع النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أبو بكر ولا عمر ولا علي رضي الله عنهم، فاقطع الأشعث طيزنا باد، وعدي بن حاتم الروحاء، قال أبو هلال: قد روي أن النبي صلى الله عليه وسلم أقطع قطائع، فاقتدى عثمان به في ذلك، وأقطع خباب بن الأرت، وسعد بن أبي وقاص، وسعد بن زيد، والزبير، وأقطع طلحة أجمة الجوف- وهو موضع التماسيح- وكتب إلى سعيد بن العاص، وهو بالكوفة أن ينفذها له، فكتب إليه أن طرفاً لها في البحر وآخر في البر، فجعل لطلحة- وهو كاتب عثمان- أرضاً ونهراً كانا له، فكتب إلى سعيد، ويحك أنفذها! فإني أتخوف عليك، ففعل، في كلام هذا معناه.

أول من حمى الحمى عثمان

أخبرنا أبو القاسم بن سيران رحمه الله قال: أخبرنا الجوهري، عن أبي زيد، عن عمر بن سعيد الدمشقي عن أبيه قال: إني لفي المترل، إذا أنا برسول عثمان يدعو أبي، فقام فلبس ثوبه، فانطلق وانطلقت معه فإذا عثمان جالس وعنده المهاجرون، وعيون الأنصار، فتكلم، فعلمت أنه ليس بمجلسي، فتنحيت فقال: إنكم

نقمتم على رجال استعملتهم هذه الأعمال فولوها من رأيتم، ونقمتم على الحمى، وإني نظرت فعلمت أن المسلمين لا يستغنون عن إبل تكون معدة للنائبة تنوب، ولأمر يحدث، فحميت الحمى، وإني أشهدكم أني قد أبحته، ونقمتم عليّ أني آويت الحكم بن أبي العاص، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقبل توبة الكافر، وإن الحكم تاب، فقبلت توبته، ولو كان بينه وبين أبي بكر وعمر من الرحم ما بيني وبينه لآوياه ونقمتم عليّ أني أعطيت من مال الله، والله ما أخذت من مال الله درهماً واحداً أكذاك يا طلحة؟ قال: نعم.

وذلك في قدمة قدمها معاوية، وهو حاضر، فقال: يا معشر المهاجرين، قد علمتم أنه ليس منكم رجل إلا وقد كان في قومه من يقطع الأمور عليه، حتى بعث فسبقتم إليه، وأبطأوا عنه، فسدتم عشائركم، حتى انه ليقال بنو فلان ورهط فلان، وأن هذا الأمر فيكم ما استقمتم، فإن تركتم شيخنا هذا يموت على فراشه وإلا دخل فيكم غيركم، فقال عل عليه السلام: ما أنت وذاك يا ابن اللخناء؟ فقال معاوية: مهلاً أبا الحسن عن ذكر أمي، وكانت بأحسن نسائكم، ولقد أسلمت فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فبايعت، فصافحها، وما رأيته صافح امرأة غيرها، فقام علي ليخرج مغضباً، فقال عثمان: اجلس، فقال: لا اجلس، فقال: عزمت عليك لتجلس، فأبى وولى، وأخذ عثمان بطرف ردائه، فترك الرداء وخرج، فأتبعه عثمان بصره فقال: والله لا تصل إليك ولا إلى أحد من ولدك، قال: فتعجبت في نفسي مما آلى عثمان، فذكرته لسعد بن أبي وقاص، فقال: لا تعجب فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ليست لعلي، ولا لأحد من ولده، فإني لفي المسجد يوماً وعلي وطلحة والزبير جلوس، إذ طلع معاوية، فتواصوا بينهم ألا يوسعوا له، فجلس بين أيديهم، ثم قال: أتسمعون؟ والله لئن لم تتركوا شيخكم هذا يموت على فراشه، لا أعطيكم إلا السيف، ثم قام فخرج، فقال علي: كنت أحسب عند هذا شيئاً، فقال طلحة: قاتله الله! لقد رمى عرضه، وما سمعت كلمة أملأ لصدرك منها.

أول من خلق المسجد

وأول من خفض صوته بالتكبيرة وأمر بالنداء الثالث

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن محمد بن الصباح، عن إسماعيل بن زكريا، عن عاصم بن أبي مخلد قال: أول من خفض صوته بالتكبيرة عثمان، لضعفه، فلما كان من أمر علي عليه السلام ما كان رفع صوته به، فقال عمران أو عمار: لقد ذكّرنا هذا شيئاً نسيناه من سنة نبينا عليه الصلاة والسلام.
وأخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن ميمون بن الأصبغ، عن الحكم بن نافع، عن شعيب بن

أبي حمراه، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قال: جاء عبد الله بن زيد إلى النبي فأخبره بما رأى في التأذين، فوجد النبي صلى الله عليه وسلم قد أمر به، وكان بلال يؤذن بإقامة الصلاة، فتقدم إليه بالتأذين قبل الإمامة، ثم جاء بلال في الفجر - والنبي صلى الله عليه وسلم نائم- فزاد الصلاة خير من النوم، وأقرت في تأذين الغداة، فجرى الأمر فيه إلى أيام عثمان رضي الله عنه، فكبر الناس، فأمر بتأذين الجمعة الثالث، فثبتت، وأمر بتخليق المسجد ورزق المؤذنين، وهو أول من فعل ذلك. قال الحسن: إنما كان آذان وإقامة. والآذان؛ إذا خرج الإمام محدث، في كلام هذا معناه.

أول من أرتج عليه في الخطبة عثمان رضي الله عنه

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن علي بن مجاهد، عن الأعمش، عن يزيد بن حصين، عن أبي العالية قال: اتخذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم منبراً ثلاث مراق، وكان يقوم إلى أعلاه، فلما توفي، قام أبو بكر دون مقامه، وقام عمر دون مقام أبي بكر، فلما بويع عثمان قام مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال سلمان: اليوم ولد الشر. قال: فلما استوى في أعلاه، نظر في وجوه الناس، ووجم فأخف، وصلى على رسول الله فأوجز، ثم قال: أيها الناس، إن اللذين تقدماني، يعدان لهذا الموقف كلاماً، وأنتم إلى إمام عادل، أحوج منكم إلى إمام قائل، وستأتيكم الخطبة على وجهها، ثم نزل. قالوا: فأنكر على عثمان قيامه حيث قام النبي، و لم ينكر على أبي بكر وعمر قيامهما في مصلاه، ولو وقف عثمان دون مقامهما، لصار نزول كل إمام عن مقام من تقدمه سنة، وذكر لبعض الأمراء صنيع عثمان هذا، فقال له بعض المخانيث أشكره يا أمير المؤمنين، فلولاه كنت الآن تخطب في بئر.

أول من قدم الخطبة في صلاة العيدين عثمان رضي الله عنه

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن يزيد بن هارون، عن حميد وعن غير هؤلاء قال حميد: قلت للحسن: من صلى بعد الخطبة؟ قال: عثمان صلى ثم خطب، فرأى كثيراً من الناس يذهبون، فخطب ثم صلى، وقال: لا بأس أن تؤخر الصلاة حتى نتكلم بحاجتنا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان صدراً من خلافة، يصلون ثم يخطبون، وقد روي خلاف ذلك.

حدثنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد عن سفيان عن قيس بن مسلم، عن طارق بن شهاب قال: أول من قدم الخطبة قبل الصلاة مروان، فقام إليه رجل فقال: يا مروان. إنك قد خالفت السنة، فقال: إن ذلك قد ترك. فقال أبو سعيد الخدري: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت النبي صلى الله عليه وسلم

يقول: من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليفعل، وإلا فبلسانه، وإلا بقلبه، وذلك أضعف الإيمان، وقد روي هذا المعنى من وجوه أخر تركناها كراهة الإطالة.

أول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم عثمان رضي الله عنه

خطب في شهر رمضان فقال: أيها الناس هذا شهر زكاتكم، فمن كان عليه دين فليقضه، وليزك ما بقي، قال أبو يوسف: لما جعل عثمان إخراج الزكاة إلى أرباب الأموال، سقط حقه من الأصل، فليس لخليفة بعده أن يطالبهم به. وليس ذلك كصدقة المواشي، لأن أرباب الأموال يحفظون أموالهم تحت أيديهم، وحفظ الصحارى على الإمام، قال: ولهذا نصب عمر العشارين لما كثرت الفتوح، وتصرفت التجارة في البلدان، ليأخذوا زكاة ما يمر بهم من أموال التجار، ويعتبروا الأنصاب والحول، ولا يأخذوا ممن عليه دين، ولا من مال الصبي، وذلك لأن حماية الطرقات وما تحتوي عليه، إنما تلزم الإمام، وقال محمد بن الحسن: بل جعل عثمان القبض في الأصل للإمام، وعلى هذا القياس، يجوز أن يعزل الإمام بعد عثمان أرباب الأموال عن ذلك، كما للموكل أن يعزل الوكيل، وكما أنه إن جعل القبض إلى مصدق بعينه كان له عزله، والصحيح قول أبي يوسف: لأن ذلك العقد لو كان كالوكالة لا نفسخ عند موت عثمان، لأن الوكيل ينعزل عند موت الموكل، وإنما كان ذلك كسائر ما عقده عمر مما لا يجوز حله لأحد.

أول ما وقع الاختلاف من الأمة

فخطأ بعضهم بعضاً حين نقموا على عثمان أشياء نحن ذاكروها

وكان اختلافهم قبل ذلك في الفقه، و لم يكن اختلافاً يخطّئ فيه بعضهم بعضاً. فلما نقموا أمر عبيد الله بن عمر.

أخبرنا أبو القاسم عن العقدي عن أبي جعفر، عن المدائني، عن نصر بن أبي جمعة، عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري، عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عمر، وعن المدائني عن علي بن مجاهد، عن حميد بن البحتري، عن الشعبي ويزيد بن عياش وسليمان بن أرقم، عن الزهري، عن سعيد بن المسيب قالوا: قال عبد الرحمن بن أبي بكر: مررت بالهرمزان وحفينة وأبو لؤلؤة وهم نجى، وذلك قبل أن يطعن عمر، فلما بغتهم، ثاروا وسقط من بينهم خنجر له رأسان، قال: وهو الخنجر الذي أصيب به عمر رضي الله عنه، فدعا عبيد الله الهرمزان وأدخله إلى مريد، وقال: أنظر إلى فرس عندي، فقال: لا إله إلا الله فقتله وواراه، وأرسل إلى حفينة- وكان نصرانياً- وأدخله المربد وضربه، فلما وجد مس السيف، خر وصلب على الأرض صلباً وسجد، ثم خرج فقتل امرأة أبي لؤلؤة وبنتاً له وابناً له صغيراً، فأخذ وحبس- وذلك في

اليوم الثاني من موت عمر - فلما قام عثمان، استشار في أمره، فقال عمرو بن العاص: دماء سفكت في غير ولايتك، فاجعلها دية، فأخذ منه خمس ديات وخلى سبيله، وأنكر علي عليه السلام ذلك، ورأى قتله، فلما ولي خافه عبيد الله، فقدم الكوفة، وسأل الأشتر أن يأخذ له أماناً من علي، فأبى، وقال: إن رأيته لأقتلنه بالهرمزان فلحق بمعاوية، فقال معاوية: الحمد لله الذي جعلني أطالب بدم عثمان، وجعل علياً يطالب بدم الهرمزان، فقال زياد بن بياضة:

أبا عمر وعبيد الله رهن	ولا تشكك بقتل الهرمزان
أبا عمرو حكمت بغير حق	وما لك بالتي حدثت يدان

وشهد عبيد الله صفين مع معاوية، وقد أعلم بجلاجل علقها في أعناق خيله، وهو أول من فعل ذلك، فقتل بصفين. ونقموا عليه أمر المنبر وقد ذكرناه.

وأمر الحكم بن أبي العاص: أخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن أبي معشر، عن عبد الله بن أبي فروة وعن غير هؤلاء قالوا: كان الحكم بن أبي العاص يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا صلى قام خلفه وأشار بأصبعه، فاطلع يوماً في حجرة النبي صلى الله عليه وسلم، فقام إلى النبي عليه الصلاة والسلام يعيره، فرجع الحكم، فقال النبي: من يعذرني من هذه الوزعة؟ تطلع علي في بيتي. لو أدركته لفقأت عينه، فسيره إلى الطائف، فلما قام أبو بكر سأله عثمان رده فأبى، ثم سال ذلك عمر فأبى، فلما قام عثمان رده، وقال: كنت سألت رسول الله أن يرده فوعدني، فلما وليت رددته، ولو كان بين أبي بكر وعمر من القرابة ما بيني وبينه لآوياه.

وخمس إفريقية: أخبرنا أبو القاسم، بإسناده عن المدائني عن عيسى بن يزيد ويزيد بن عياض عن جعفر عن عبد الرحمن بن المسور: أن مروان بن الحكم بنى داراً، وصنع طعاماً، ودعا الناس، وقال: والله ما أعانني في بناء داري أحد! فقال المسور: أقبل على طعامك ولا تحلف، قال: أو تقول غير ذلك؟ قال: نعم. وإن ذكرته غضبت، قال: فاذكره، قال: غزونا إفريقية سنة سبع وعشرين، فما كنت أنقانا حسباً، ولا أكرمنا فعالاً، ولا أكثرنا مالاً، ثم حضرنا القتال، فما كنت أشدنا قلباً، ولا أشجعنا لقاء، ولا أعظمنا غناء، ففتح الله على المسلمين، فاشتريت خمس إفريقية، وقدمت على ابن عمك عثمان بشيراً، فوهبه لك، واتخذت أموالك، وبنيت دارك، وأصلحت شأنك، قال: ألم أقل لك أنك حسود؟ قال: ألم أقل لك إنك تغضب؟ وقالوا: اشترى مروان خمس إفريقية، وقيمته أربعمائة ألف دينار، بمائة ألف دينار، من عبد الله بن أبي السرح، فلما قدم المدينة، أدى بعضه، ووهب له عثمان الباقي.

وأمر المصاحف وأمر الحمى وقد ذكرناهما.

وأمر ابن أبي وقاص والوليد: أخبرنا أبو القاسم بإسناده عن المدائني، عن علي بن مجاهد، عن أبي إسحاق قالوا: أوصى عمر فقال: من ولي بعدي من المسلمين فليول البصرة أبا موسى أربع سنين، وليستعمل سعداً على الكوفة، فولى عثمان سعداً تكملة سنة، ثم عزله، وبعث الوليد بن عقبة، فكان يشرب ويلعب، فقال عمرو بن زرارة: عزل عثمان عنا ابن أبي وقاص، الهيّن اللين السهل القريب الحسن البلاء في الإسلام، واستعمل أخاه الأحمق الفاجر، فكتب الوليد إلى عثمان يشكوه، فكتب إليه: وما لعمرو بن زرارة والإنزاع والتأمير، إنما ذلك إلى المهاجرين الأولين من قريش، وإنما عمرو أعرابي جلف جاف، فاتق الله فيما وليت، وانصر الضعيف، وخف الله في السر والعلانية، قالوا: فلما قدم الوليد الكوفة، قال له سعد: أحمقنا بعدك أبا وهب أم كيست بعدنا؟ فقال: فكل ذلك لم يكن، ولكنه سلطان القوم، يضعونه حيث يحبون، فقال سعد متمثلاً:

خذيني فجريني صباغ وأبشري	بلحم امرئ لم يشهد اليوم ناصره

وأنكروا عليه ضربه الرجل الذي شهد على الوليد بالخمر.

أخبرنا أبو القاسم بإسناده عن المدائني، عن أبي محمد الناجي، عن مطر الوراق قال: قدم رجل المدينة فقال لعثمان: إني صليت الغداة خلف الوليد، فالتفت إلينا بعدما صلى، وأنا أجد ريح الخمر، فقال" أزيدكم؟ إني أجد نشاطاً، فأمر به عثمان فضرب، فقالت الناس: عطلت الحدود، وضربن الشهود، وقال الحطيئة يذكر صنيع الوليد:

شهد الحطيئة حين يلقى ربه	أن الوليد أحق بالعذر
فنزعت مكذوباً عليك ولم	تردد إلى عوز ولا فقر
ورأوا سماتك ماجداً متبرعاً	أعطى على الميسور والعسر
نادى وقد كملت صلاتهم	أأزيدكم ثملاً ولا يدري
ليزيدهم خيراً ولو قبلوا	لقربت بين الشفع والوتر
وأبوا أبا وهب ولو قبلوا	زادت صلاتهم على عشر
كفوا عنانك إذ جريت ولو	تركوا عنانك لم تزل تجري

وأمر ابن مسعود: أخبرنا أبو القاسم بإسناده، عن المدائني، عن بشر بن عاصم، عن الأعمش، عن عبد الله بن سنان الأشعري، وعن المدائني، عن محمد بن الفضل، عن يزيد بن أبي زياد، عن المسيب بن رافع وعن

غير هؤلاء. قال عبد الله بن سنان: خرج علينا عبد الله ابن مسعود، فقال: فقدت من بيت مالكم مالاً، لم يكتب به براءة و لم يأتني فيه أمر أمير المؤمنين، فكتب الوليد بن عقبة إلى عثمان يشكوه، فعزله من بيت المال، قال: فبينا الوليد يخطب، نهض عبد الله فصلى، فقال الوليد: أتاك في هذا أمر أمير المؤمنين أم ابتدعت؟ قال: لم يأتني فيه أمره وما ابتدعت. ولكن أبى الله أن ينظرك بصلاتنا وأنت تلعب، فكتب عثمان في حمله إلى المدينة، فخرج، فقال عثمان: يأتيكم دويبة، فلا تسلح على شيء، فيأكل منه إلا مات، فلما قدم عاتبه، وأحرمه عطاءه ثلاث سنين، فلما حضرته الوفاة، حمله إليه، فقال: حرمتنيه حين ينفعني، وتعطينه حين لا ينفعني، ورده وأوصى إلى الزبير أن يصلي عليه، فلما مات صلى عليه، فعاتبه عثمان، وقال: لهممت أن أنبشه وأصلي عليه، فقال الزبير: لو رمت ذلك لحيل بينك وبينه، فوقف على قبره وترحم عليه وحمل عطاءه إلى ولده فقال الزبير:

لا ألفينك بعد الموت تندبني وفي حياتي فما زودتني زادا

وأمر قصره طمار وما جرى فيه بينه وبين عبد الرحمن بن عوف.

أخبرنا أبو القاسم العقدي، عن أبي جعفر قال: قال أبو يعقوب السروي: بنى عثمان قصره طمار أو الزوراء، وصنع طعاماً، ودعا الناس، فحضروا، فلما نظر عبد الرحمن إلى بنائه قال: يا ابن عفان. قد صدقنا عليك ما كنا نكذب فيك، وإني أستغفر الله من بيعتك، فغضب عثمان، وقال عبد الله بن العباس: كان يأتيه فيتعلم منه القرآن والفرائض، فمرض عبد الرحمن، فعاده عثمان، فكلمه، فلم يكلمه حتى مات.

وأمر عبادة بن الصامت: أخبرنا أبو القاسم بإسناده عن المدائني، عن أبي معشر، عن محمد بن كعب، عن بريك الأسلمي قال: مر بعبادة بن الصامت عير تحمل الخمر من الشام، فقال: أزيت هذا؟ قالوا: لا. بل خمر تباع لمعاوية، فأخذ شفرة فشق الروايا فشكاه معاوية إلى أبي هريرة، فقال له: أبو هريرة مالك ولمعاوية، له ما تحمل، إن الله يقول: "تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم" فقال: يا أبا هريرة، إنك لم تكن معنا إذ بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، بايعناه على السمع والطاعة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، نمنعه مما نمنع منه نساءنا وأبناءنا، ولنا الجنة، فمن وفى بها الله وفى الله له أجره، "فمن نكث فإنما ينكث على نفسه" فكتب معاوية إلى عثمان يشكوه، فحمله إلى المدينة، فلما دخل عليه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "سيلي أموركم رجال يعرفونكم ما تنكرون وينكرون عليكم ما تعرفون فلا طاعة لمن عصى الله". وعبادة يشهد أن معاوية منهم، فلم يراجعه عثمان.

وإيثاره بني أمية: أخبرنا أبو القاسم بإسناده، عن المدائني، عن علي بن مجاهد، عن معمر، عن الزهري وعن

غيرهم، قال: تزوج سعيد بن العاص أم البنين بنت الحكم، فأعانه عثمان بأربعين ألفاً، فهلكت، فتزوج أم عمرو بنت عثمان، فأعطاه مالاً من بيت المال، وأمر عبد الله بن الأرقم أن يكتم عليه حتى يرده، فلم يفعل، وأنكح الحارث بن أبي الحكم ابنته عائشة، ومروان ابنته أم أبان، وعبد الله بن خالد بن أسيد ابنته أم سعيد، وأعطاهم أموالاً من بيت المال.

وأخبرنا أبو القاسم بإسناده عن المدائني، عن سويد بن أبي حاتم، عن قتادة قال: أمر عثمان للحكم بن أبي العاص بمائة ألف درهم، ولأبي سفيان بمثلها، ولمروان بمائتي ألف، فجاء عبد الله بن الأرقم بمفاتيح بيت المال، فوضعها بين يدي عثمان، وبكى، فقال: ما يبكيك إن وصلت رحمي؟ فقال: لعلك جعلت هذا عوضاً عما أنفقت في سبيل الله، لو أعطيت مروان مائتي درهم لكان كثيراً، وقال عثمان: الق مفاتيحك يا ابن الأرقم فإنا سنجد غيرك.

ومثله أمر أبي موسى: أخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن شريك، عن عمار الذهني، عن سالم بن أبي الجعد قال: قدم أبو موسى على عثمان بمال من العراق، فأخذ منه غلام من آل عثمان قبضة، فقال عثمان: اذهب بها. وقالوا بل قسمه بين أقاربه، فبكى أبو موسى، فقال: ما يبكيك؟ قال: قدمت على عمر بمال في العام الأول، فتناول منه صبي درهماً، فأخذه عمر فرده إلى موضعه، فقال: إن أبا بكر وعمر منعا أرحامهما لله، وأنا أصل رحمي لله.

وإطعامه الحارث بن الحكم سوق المدينة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر بن محمد بن معاوية النيسابوري، عن عبد الله بن جعفر، عن شريك، عن عطاء بن يسار.

وأخبرنا أيضاً عن أبي جعفر عن المدائني عن إبراهيم بن محمد عمن حدث عن عيسى بن طلحة بن عبيد الله قال: قال عطاء: جاء النبي صلى الله عليه وسلم إلى سوق المدينة فقال: إن سوقكم هذا لا يضيق، ولا يؤخذ منه خراج أو غلة، قال عيسى بن طلحة: فأطعمه عثمان الحارث بن الحكم، فأنكر الناس ذلك، فخطبهم وقال: إن الله أمر بصلة الرحم، إن أبا بكر وعمر رأيا رأياً، لا نقول إنهما أخطأ، رأياً إن يمنعا المال أقاربهما، فلما وليت كان لي قرابتان، أقل قومهم مالاً، بهم حاجة، فرأيت أن أصلهم، فأعطيت مروان خمس أرمينية، فبلغ خمسة عشر ألف درهم، وجعلت الحارث على السوق، يأخذ كل يوم درهمين، ولعله لا ينقلب إلا بدرهم، وكان أمراً ذا حاجة، وزوجت عبد الله بن خالد بن أسيد،- وكان من اقل قريش مالاً- فصنعت شيئاً وإن رأيتم ذا سرفاً وخطأً فخذوه، فقد عرفتم مكانه، وإن لم يكن سرفاً ففيم النكير؟.

وأمر أبي ذر: قال أصحابنا: إن أبا ذر كان يذهب إلى أن المسلم لا ينبغي أن يكون في ملكه أكثر من

قوت يومه، إلا شيئاً ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم، ويتأول على ذلك قوله تعالى: "والذين يكترون الذهب والفضة" قالوا: فاختار الخروج إلى الربذة زهداً منه فيما في أيدي الناس.

وكذلك روي عن الحسن، ومما يصدقه ما أخبرنا به أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن إسحاق بن إدريس بن بكار بن عبيد الله بن العباس قال: كان أبو ذر يقول: لا يبيتن في بيت أحدكم دينار ولا درهم ولا ذهب ولا فضة إلا شيئاً ينفقه في سبيل الله، أو يعده لغريم، فبعث إليه معاوية جنح الليل ألف دينار، أراد أن يخالف قوله فعله، فلما جاءته قسمها، فلم يصبح وعنده فيها دينار واحد، فقال معاوية للرسول: انطلق إلى أبي ذر وقل له: أرسلني إلى غيرك فأخطأت بك، فقال أبو ذر: قل له: ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار واحد، فإن أخذتنا بها، فأنظرنا نجمعها لك، فلما رأى معاوية أن قوله يصدقه فعله، كتب إلى عثمان: إن كان لك حاجة في الشام فأرسل إلى أبي ذر، فقد أوغر قلوب الناس، فكتب إليه إلحق بي.

وقد روي خلاف ما تقدم ذكره من خروجه إلى الربذة من تلقاء نفسه.

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن أبي الحسن، عن أبي عبد الرحمن العجلاني وعيسى بن يزيد قالا: أنبأنا بعض أهل العلم، عن رجل من بني غفار قال: بينا أنا عند معاوية أحدثه، غضب، و لم أر شيئاً أغضبه، ثم قال لرجل: عجل علي بأبي ذر، فلم ألبث أن طلع، فإذا رجل طويل مشتمل بكساء، فما سلم حتى جلس، فقال يا معاوية: لم بعثت إلي؟ قال: بلغني أنك تطعن في أمير المؤمنين عثمان، وهو إمامك، قال: هو طعن على نفسه، قال: أما والله لولا أن أبده- أو لفظ هذا معناه- أمير المؤمنين بما لا أدري، أيوافقه أم لا؟ لكنت أول أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أضرب عنقه، قال: قاتلك الله يا معاوية! تراقب عثمان ولا تراقب الله؟ ألا أحدثك حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فاسترخت عينا معاوية وأذناه، وقال: حدثني. قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "ويح أمتي من أعين الأمي، يراوح بين منكبيه، يخرج بمن اتبعه من أهله حتى يوردهم نار جهنم، فسيرتطم ويرتطمون". كأنك هو ولا أدري، فقام معاوية، فدخل، وخرج أبو ذر، فلحقته، فسلمت عليه، فتجهمني، فانتسبت له، فرد علي السلام، وكتب معاوية إلى عثمان، يخبره أن أبا ذر يطعن عليه، فكتب عثمان يأمره بحمله إليه، فحمله على قتب، تحته مسح، وخرجت معه، فكنت ألقي تحته ردائي، فقرحت فخذاه، وقدمنا المدينة، فلما دخل على عثمان قال

لا أنعم الله لقين عينا	أحد ولا عساه فينادمنا
تحية السخط إذا التقينا	

فقال أبو ذر: وما قين؟ والله ما سمتنيه أمي ولا أبي، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رآني رحب بي، وأدنى مجلسي. قال عثمان: اجلس. ألم يبلغني أنك تقول: ما أحب أن أكون في صلاح عمر بن الخطاب؟ قال: وإن قلته فمه أسلمت كما أسلم، وهاجرت كما هاجر، وأنا على يقين من نفسي، وشك من غيري، فقال عثمان: ما ترون في أبي ذر؟ ودخل علي عليه السلام، وعليه عمامة بيضاء، فقال: لم أرسلت إليّ؟ قال لأمر أبي ذر؟ قال: فلو ما تركتموه كمؤمن آل فرعون. إن كان كاذباً فعليه كذبه، فقال عثمان لعلي: بفيك التراب. قال: بل بفيك قبلى، ثم خرج فمكث الناس أياماً، ثم دخل أبو ذر وبين يدي عثمان مال، فقال: ما ترون في رجل إذا زكى ماله؟ هل عليه غيره؟ قال كعب الأحبار: لا ليس عليه شيء. فقال أبو ذر: متى كانت الفتيا إليك يا ابن اليهودية؟ بل عليه أن يصل رحمه، ويتقي الله ربه، فقال عثمان: عن بلدنا، قال: إلى الشام؟ قال: لا. قال: فمكة؟ قال: لا. قال: فهو التغريب بعد الهجرة، فخرج إلى الربذة ومعه علي يشيعه، فاقبل مروان يسير حتى أدخل راحلته بين راحلتيهما ليسمع ما يقولان، فضرب على وجه راحلته، وأعلم عثمان، فلام علياً، فقال: إن كان أغضبك أني ضربت وجه راحلته فهذا وجه راحلتي فاضربوها، أقام أبو ذر بالربذة حتى مات رضي الله عنه.

وأمر عمار بن ياسر وعائشة: أخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد. وأخبرنا بإسناده عن أبي جعفر قال: قال أبو يعقوب السروي: وأخبرنا غير هؤلاء جعلت أحاديثهم حديثاً واحداً قالوا: جعل الناس ينقمون على عثمان إيثاره بني أمية، وهو يعمل على شاكلته، فكتب عمار والمقداد ومعهما نفر كتاباً إليه، يذكرون فيه ما ينقم الناس عليه، فمضى به عمار إليه، وتسلك الباقون، فلما قرأه قال: أنت كتبت هذا؟ قال: نعم؟ ونفر معي. قال: من هم؟ قال: لا أخبرك. قال: اضربوا العبد، فضربه من بحضرته، وقام هو فوطئه حتى فتقه، وكان لا يستمسك بوله فحمل مغشياً عليه، فقالت عائشة: إنك بريء من صاحب هذه الحجرات. فقال: من لي بهذه الحميراء؟ انها لمن شر بيت من قريش فقال طلحة والزبير: كذبت؟ قال: بل كذبتما. قالا: بل كذبت. قال: بل صدقتما وكذبت في كلام هذا معناه.

فهذه جملة مما نقم على عثمان رضي الله عنه، وعذره في أكثرها واضح، واللائمة عنه ساقطة، ألا تراهم رووا أن الذي أخذه من بيت مال المسلمين، ووصل به قرابته إنما أخذه ليرد العوض عنه، وليس في أخذه على هذه الشريطة إثم، وأما ضربه من ضرب، وحرمانه من حرم، فإنما كان تأديباً منه لهم، لما كان من اجترائهم عليه، ومراجعتهم إياه، إذ كان في ذلك خرق هيئته، والوضع من أبهته، وأدبهم ليعز سلطان الله في أرضه.

وأما قولهم: عطلت الحدود فكيف يقال ذلك؟ وقد حد الوليد بن عقبة، وهو أخوه من أمه، وأعز الناس

عنده، وحد عاصم بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر. ومحمد بن حذيفة في الخمر، وغيرهم ممن يطول الكتاب بذكرهم، وأما ضربه الرجل الذي ذكر الوليد يشرب الخمر، فلم يكن شاهداً، وإنما يكون شاهداً إذا كان معه شاهد آخر، يشهد بما يشهد به، وإلا فقوله يجري مجرى النميمة والإغرار. وأما حبه لأقاربه: فغير بديع لأن الناس مجبولون على حب القربى، والوحشة من البعداء، وكان فيهم على علاتهم غناء، وعندهم كفاية، فلذلك كان يوليهم، ويستعملهم ويستكفيهم، ألا ترى إلى فتوح بن عامر؟ فتح حور واسطخر ونيسابور وطوس ومشى إلى سرخس، ووجه الأحنف ففتح قوهيان، والأسود بن كلثوم ففتح بيهق من خراسان، إلى غير ذلك من فتوحه، وفتح عثمان بن أبي العاص أرخان، وقالوا فتحه أبو موسى، وبلاداً من كورة دار أبجرد، وفتح الوليد بن عقبة التين والطسيين، وموقان من أرمينية، وفتح ابن آبي السرح كثيراً من بلاد المغرب، وكان لهم بأس في الحرب، ونكاية في العدو، وحماية الثغور، يقومون فيها مقام غيرهم، وكان الذي يذكرون به من مكروه الأفعال، لا يصح عند عثمان، وما صح فيه عنده، أجرى فيه حكم الله فحد الوليد بن عقبة الحد الشرعي في الخمر...

وأما قول عبد الرحمن: فإني أستغفر الله من بيعتك فإن كان صحيحاً فإنه قالها على جهة المبالغة، في إنكار ما رأى من بنائه وسعة نفقته عليه، لا لصحة الاعتقاد لذلك، لأن التوسعة في النفقة على بناء واتخاذ طعام، لا يبلغ أن يكون فسقاً يستغفر معه من سعته. وكانوا في ذلك الوقت يستعظمون الصغير من الذنوب، لقرب عهدهم برسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم بخشونة عمر، وشدة استقصائه ومناقشته على الصغير من المعاصي، ولهذا يتأول قول عائشة: إنك بريء من صاحب هذه الحجرات، ونحن نعلم أن عثمان لم يبرأ من رسول الله، وإنما قالت ذلك: على حسب ما يقال للرجل إذا أفرط في ضرب غلامه أو ابنه: إنك لكافر القلب، لما يتصور في الكافر من القساوة، لا على أن ذلك الضرب كفره. هذا إلى أنّا لا ندعي لعثمان العصمة من الذنوب، بل نقول: يجوز وقوعها منه، مع انصرافه عنها إلى التوبة، حتى يموت وهو طاهر من الذنوب، نقي الحليب من العيوب، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر عن عاقبة أمر العشرة أنهم في الجنة.

وقد فرغ أصحابنا المتكلمون، من الكلام في تصويب ما عليه المخالفون من أفعال الأئمة، إلا في هذه الأخبار التي تقدمت، فإني ما قرأت لأحد منها شيئاً، وأرجو أن يكون ما ذكرته من تصويب عثمان فيما نقم عليه، مقنع إن شاء الله، فكانت هذه الأمور سبب الاختلاف بين الناس، لأنهم صاروا فريقين عاذر له فيها، وناقم عليه بها. ثم قتلوه فاشتد الخلاف، واشتبكت الحروب، وصار الناس فرقاً، فكل يحتج لنفسه وعصابته، ويرد على من يخالفه من غير طائفة، وشرح هذا يطول، وليس كتابنا منه بسبيل، فتركته.

أول خليفة ولي وأمه تحيا عثمان رضي الله عنه: واسمها؛ أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس، وأمها البيضاء أم حكيم بنت عبد المطلب، ثم موسى وهارون ابنا المهدي وأمهما الخيزران.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الطيب بن محمد، عن قعنب بن محرز، عن سعيد بن سالم قال: قال الهادي لأمه الخيزران حين ولي الخلافة: إن الأمر والنهي لا يبلغه قدر النساء، فلا يخرجن من حفر الكفاية إلى بذلة التدبير، اختمري بخمرتك، وعليك بسبحتك، ولا أعلمنك تعديت ذلك إلى تكليف يعزلك، وتعنيف يلزمك، ولك عليّ بعد ذلك الطاعة التي أوجبها الله في غير كفر ولا مأثم.

وأخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن العباس، عن علي بن محمد النوفل قال: قال لي عبد الملك بن إسماعيل كنت مع المهدي، إذ قدمت عليه الخيزران في مائة قبة ملبسة وشياً وديباجاً فقال أبو العتاهية:

رحن في الوشى وأصبحن عليهم المسوح

كل نطّاح من الدهر له يوم نطوح

لتموتن وإن عمرت ما عمر نوح

فعلى نفسك نح إن كنت لا بد تنوح

في كلام أوردت منه ما احتجت إليه.

وكانت الخيزران أرضعت الفضل بن يحيى بلبان الرشيد، فقال مروان بن أبي حفصة:

كفى لك فضلاً إن أفضل حرة غذتك بثدي والخليفة واحد

لقد زنت يحيى في المشاهد كلها كما زان يحيى خالداً في المشاهد

ثم محمد بن هارون الأمين، وأمه أم جعفر بنت أبي جعفر المنصور، ولم يتول الخلافة هاشمي الأبوين إلا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم، ومحمد الأمين أبوه الرشيد، وأمه أم جعفر بنت المنصور، تلقب بزبيدة. قال أبو الهول الحميري:

ملك أبوه وأمه من نبعة منها سراج الأمة الوهاج

شربوا بمكة في ذرى بطائحها ماء النبوة ليس فيه مزاج

ثم المتوكل- وهو جعفر بن المعتصم- ثم المنتصر- وهو محمد بن المتوكل- ثم المستعين- وهو أحمد بن محمد بن المعتصم- وأمه ريا.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن ابن محمد، عن أحمد بن حمدون قال: عملت أم المستعين قلادة، لم يبق شيء حسن إلا جعلته فيها، وأنفقت عليها مائة ألف دينار وثلاثين ألف دينار، وسألته أن يقف عليها،

قال أحمد: فما رأينا في الدنيا شيئاً إلا قد عمل فيها، ومددت أنا يدي إلى غزال من ذهب قد ملئ عنبراً، عيناه حبتا جوهر، وعليه سرج ولجام وركاب من ذهب فأخذته، ووضعته في كمي، وجئنا فوصفنا له حسنها، فقال: أترجة أنه سرق منها شيئاً، وغمز به علي، فقلت يا سيدي أألام على مثل هذا؟ فقال: ارجع فخذ ما أطقت حمله مما تريده، فقال أترجة: وأنا معه، فمضينا فملأنا أكمامنا وخفافنا، وفتحنا أقبيتنا، وجعلنا تحتها ما قدرنا عليه، وعقدنا أطراف الشفاشح فوق ذلك، واقبلنا نمشي مشي الحبالى، فلما رآنا ضحك فقال الجلساء: نحن فما ذنبنا؟ قال: قوموا أنتم أيضاً، وقال المغنون: مثل ذلك، فأذن لهم، وجاء فوقف على الطريق ينظر كيف يحملون ما معهم ويضحك، فنظر يزيد المهلبي إلى سطل من ذهب مملوء مسكاً فأخذه، وخرج. فقال: إلى أين؟ قال: إلى الحمام. فضحك وأمر الأطباء والخدم والفراشين فانتهبوا الباقي، فوجهت إليه أمه سراً، لله أمير المؤمنين في جميع أفعاله، كنت أحب أن يراها قبل أن يفرقها، فقال: يعاد مثلها فأعيد في مدة شهرين في كلام هذا معناه.

ثم المعتز، وأمه فتحة، وسميت بذلك عوذة من العين، لخلوها من جميه العيوب، أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن عبد الله بن المعتز قال: لما بويع لأبي بالخلافة قال مروان بن أبي الجنوب يخاطب أمه:

لله درك يا عقيلة جعفر	ماذا ولدت من التقى والسؤدد
إني لأعلم أنه لخليفة	أن بيعة عقدت وإن لم تعقد
إن الخلافة قد تبين نورها	للناظرين على جبين محمد

فدعته فوضعت في فمه حبتين من جوهر، فزعم أنه باعهما بمائة ألف درهم.

ثم المعتضد- وأمه ضرار- ثم المطيه- وأمه مشعلة- و لم يتول أحد الخلافة وأبوه باق إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وقد ذكرناه.

أول من خلع عثمان في حياته عمرو بن زرارة: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن بعض أصحابه، عن هشام بن محمد قال: أول من خلع عثمان في حياته وبايع علياً عمرو بن زرارة والحارث بن عداء، أقام حياته ببني أود فخلعه وقال:

أقسمت بالله رب البيت مجتهداً	أرجو الثواب به سراً وإعلانا
لأخلعن أبا وهب وصاحبه	كهف الضلالة عثمان بن عفانا

في كلام أوردت منه ما احتيج إليه.

وعثمان رضي الله عنه أول من اتخذ صاحب شرطة، وكان صاحب شرطته عبد الله بن منقذ بن تميم قريش.

أول من بايع علياً عليه السلام: ذكر الواقدي عن رجاله قالوا: جاء الأشتر إلى علي حين قتل عثمان رضي الله عنه فقال له: قم فبايع الناس، فوالله لو تكلمت لتعصرن عليها عينك مرة أخرى، فجاء حتى دخل بين سكن، واجتمع الناس إليه، وفيهم طلحة والزبير لا يشكان أن الأمر شورى، فقال الأشتر: هل تنتظرون أحداً؟ قم يا طلحة فبايع. فقام يجر رجله حتى بايع علياً، فقال حبيب بن زؤيب أو ذؤيب: أول من بايعه أشل، فما أظن أمره يتم، وأول من بايعه أشتر، ألقى خميصة كانت عليه، وأخذ السيف وجذب يد علي فبايعه وقال: والله لا يتكلم أحد منكم إلا ضربت عنقه، فقام طلحة والزبير فبايعا، وبايع الناس فكانا يقولان بعد ذلك بايعنا واللج على رؤوسنا، أي السيف.

أول من بايعه من أهل مصر عبد الرحمن بن عديس: بايعه وقال:

خذها إليك واعلمنّ أبا الحسن | أنّا نمر الأمر إمرار الرسن

وخطب علي رضي الله عنه : أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن محمد بن القاسم، عن أبيه قال: لما استخلف علي صعد المنبر ثم قال: حق وباطل، ولكل أهل، وقال: ما أدبر شيء ثم أقبل، وإني لأخشى أن تكونوا في فترة من دينكم، ولئن ردت عليكم أموركم أنكم لسعداء، قد كانت أمور ملتم فيها عن الحق ميلاً كبيراً، كنتم فيها غير محمودين، ولو أشاء لقلت عفا الله عما سلف، مضى الرجلان، وقام الثالث كالغراب، همته بطنه، ويجد لو قطع رأسه وجناحاه كانا خيراً له، ثلاثة واثنان ليس لها سادس. نبي أخذ الله بيده. وملك طار بجناحيه، وساع مجتهد، وطالب يرجو، ومقصر في النار، هلك من ادعى، وخاب من افترى، اليمين والشمال مظلمة والطريق المنهج عليه، ما في الكتاب وآثار النبوة، إن الله تعالى أدب هذه الأمة بالسيف والسوط، ليس فيهما هوادة، فاستتروا في بيوتكم، وتفقدوا أعمالكم، والتوبة من ورائكم، من أبدى صفحة للحق هلك، ألا كل قطيعة أقطعها عثمان، ومال من مال الله فهو رد على المسلمين في بيت مالهم، والله لو رأيناه نكح به النساء وتفرق به في البلدان، لرددناه، لأن الحق قديم لا يخلق، وإن لكم في الحق سعة، ومن ضاق عنه الحق فالباطل عنه أضيق، ثم بعث لي سيفه ودرعه ونجائب كانت له فأخذها، فقال الوليد بن عقبة:

ألا من الليل لا تعود كواكبه | إذا غاب نجم لاح نجم يراقبه
خليلي إني لست أنسى مصابه | وهل ينسين الماء من هو شاربه
همو قتلوه كي يكونوا مكانه | كما غدرت يوماً بكسرى أقاربه
هو الأنف والعينان مني وليس لي | سوى الأنف والعينين وجه أصاحبه

ثلاثة رهط قاتلان وسالب سواء علينا قاتلاه وسالبه
بني هاشم كيف المودة بيننا وعند علي سيفه ونجائبه

أول قتال كان بين فريقين من أهل القبلة: أخبرنا أبو احمد، عن عبد الله بن العباس، عن رجاله، عن الواقدي، عن عبد الله بن الحارث، عن أبيه، وأبي القاسم عن رجاله عن المدائني قال: لما صارت عائشة رضي الله عنها وطلحة والزبير لحفر أبي موسى، بعث إليهم عثمان بن حنيف- وهو عامل على البصرة- عمران بن حصين فدخلا على عائشة رضي الله عنها وقالا: ما جاء بك؟ قالت: غضبنا لكم من سوط عثمان، أفلا أغضب لعثمان من سيوفكم؟ قالا: وما أنت وسوط عثمان وسيوفنا؟ أنت حبس رسول الله صلى الله عليه وسلم، نذكرك الله أن تهرق الدماء في سببك، قالت: وهل أحد يقاتلني؟ قال أبو الأسود: نعم. والله قتال أهونه شديد، ثم دخلا على الزبير وطلحة، وكلماهما، فوقعا في علي ونالا منه، فأتيا عثمان فعرفاه، فأمر الناس فلبسوا السلاح، ودخل طلحة والزبير وعائشة حتى انتهوا إلى المربد، فخطبت فقالت: إن عثمان غير وبدل، فلم نزل نغسله حتى أنقيناه، وبلوناه بالسدة حتى أخلصناه، ولما صار كالذهب المصفى عدا عليه السفهاء فقتلوه، ثم أتوا علياً فبايعوه على غير ملأ من الناس، أفنغضب لكم من سوط عثمان، ولا نغضب لعثمان من سيوفكم، لا يصلح هذا الأمر حتى ترد شورى كما فعله عمر رضي الله عنه، فقال بعضهم: صدقت. وقال بعضهم: كذبت واضطربوا .واضطربوا بالنعال، فصارت تجمعها، فاستقبلهم عثمان في الناس، فشجوهم بالرماح، ورماهم النساء والصبيان من فوق البيوت، وأفواه السكك، فاندفعوا حتى أتوا مقبرة بني مازن، فنابت إليهم نائبة من الناس، ولقيهم عثمان من الغد في أصحابه فاقتتلوا قتالاً شديداً، حتى زالت الشمس، وكثرت القتلى، ثم كتبوا بينهم كتاباً لا يتعرض بعضهم لبعض حتى يرد علي عليه السلام، فوقفوا أياماً ثم جاء عبد الله بن الزبير في أصحاب له، فطرق عثمان بن حنيف وأسره، وجيء به إلى طلحة والزبير فأمرا به فضرب، ونتف لحيته، وأرادا قتله، فقال معاذ بن عبد الله: إن قتلتموه لا آمن الأنصار على ذراريكم بالمدينة، فحبسوه، ثم أرسلوه، فقال حكيم بن جبلة: ما كنت في شك من قتالهم، ولقد ازددت فيه بصيرة، فمن كان في شك فلينصرف، فخرج في سبعمائة من عبد القيس وبكر بن وائل، فقاتلهم، فضرب رجل منهم ساق حكيم فقطعها، فأخذها حكيم فرماه بها فصرعه ثم جاء إليه فقتله، واتكأ عليه، فمر به رجل فقال: من قاتلك؟ قال: وسادتي؛ وقتل يومئذ سبعون رجلاً من عبد القيس، وبلغ أمرهم علياً فقال:

دعا حكيم دعوة سميعة نال بها المنزلة الرفيعة
يا لهف نفسي على ربيعة ربيعة السامعة المطيع

في كلام هذا معناه.

وحدث أسد بن سعيد، عن أبيه، عن جده، عن جد أبيه قال: بلغني أن عبد الملك بن مروان قال لجلسائه: أخبروني عن حي من العرب فيهم أشد الناس وأسخاهم وأخطبهم وأطوعهم في قومه وأعظمهم خطراً وأحلمهم وأحضرهم جواباً وأسرعهم انتصافاً قالوا: في قريش؟ قال: لا. قالوا: ففي حمير؟ قال: لا. قالوا: ففي مضر؟ قال: لا. قال: مصقلة العبدي: فهم في ربيعة ونحن منهم. قال: صدقت. قالوا: فمن هؤلاء؟ قال: أما أشد الناس، فحكيم بن جبلة قطعت ساقه فرمى بها الذي قطعها فجندله ثم جاء إليه وقال: يا ساقي لن تراعي. إن معي ذراعي. أحمي بها كراعي. فقتله واتكأ عليه، فقيل: من قاتلك؟ قال: وسادتي.

وأما أسخى الناس: فعبد الله بن سوار. استعمله معاوية على السند فرحل إليها في أربعة آلاف لا يوقد مع ناره نار، فرأى ذات يوم ناراً في معسكره فأنكرها، فقال صاحبها: اعتل بعضنا واشتهى الخبيص. فاتخذناه له، فأمر ألا يطعم الناس إلا الخبيص حتى ضجوا، فردهم إلى الخبز واللحم.

وأما اسود الناس وأطوعهم في قومه: فالجارود بن بشر، قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم فارتدت العرب، ومنعت الصدقات، فقال لقومه: إن كان الله قبض رسوله فهو حي لا يموت، فتمسكوا بدينكم، فمن ذهب له شيء فعليّ مثلاه، فما خالفه أحد.

وأما أحضر الناس جواباً وأشدهم انتصافاً: فصعصعة بن صومان، وفد على معاوية في وفد العراق فقال: مرحباً بكم قدمتم البلاد المقدسة، وأرض المحشر والمنشر، والأنبياء والرسل، والعلم والحلم، إن أبا سفيان لو ولد الناس جميعاً لكانوا حلماء علماء عقلاء.

فقال صعصعة: ليس الناس تقدسهم البلاد ولكن تقدسهم أعمالهم، ولن يضر مؤمناً بعد المحشر، ولن ينفع كافراً قرب المنشر، ومن سكنها من الجبابرة والفراعنة أكثر، وأما قولك: إن أبا سفيان لو ولد الناس جميعاً لكانوا حلماء علماء عقلاء: فقد ولدهم خير من أبي سفيان آدم عليه السلام، فمنهم السفيه والحليم والأحمق والكيس، فقال معاوية: أتردن عليّ؟ لأشرّدنك في البلاد، ولأجفينك عن الوساد. قال: أجد في الأرض سعة وفي فراقك دعة. فقال: قد كنت ابغض أن أراك خطيباً، قال: وأنا والله ابغض أن أراك أميراً.

وأما أحلم الناس: فالأشج العبدي، فإن وفد عبد القيس وردوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعهم صدقاتهم، وفيهم الأشج. وكان أول عطاء إرتزقه رسول الله من ذلك المال، فقال: يا أشج فيك خصلتان، الحلم والأناة، وكفى برسول الله شهيداً.

قالوا: و لم يغضب الأشج قط وكان ينبغي أن يورد هذا الخبر في الباب الثالث، فأغفلناه حتى أوردناه في

هذا الموضع.

أول من عمل بآية النجوى علي عليه السلام: أخبرنا أبو القاسم بن سموان، عن الجلودي، عن محمد بن عيسى، عن الجماني، عن علي بن هشام، عن محمد بن عبد الله بن رافع، عن عبد الله بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي أيوب الأنصاري قال: لما نزلت آية النجوى أشفق الناس وبخلوا، فناجى علي عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر نجاوى، وتصدق كل مرة بدينار فلما علم الله بخلهم أنزل الرخصة فلم يعمل بها إلا علي، والآية هي: "يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة" والرخصة: "فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة".

أول من اتخذ بيتاً يطرح الناس فيه القصص: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري عن أبي زيد، عن محمد بن حاتم، عن مسعدة بن اليسع، عن أبي عون، عن محمد بن سيرين قال: اتخذ علي بيتاً يلقي الناس فيه القصص، حتى كتبوا شتمة فألقوه فيه فتركه، ثم اتخذه المهدي أيام خلافته.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن محمد بن إسحاق قال: كان المهدي يجلس للمظالم فارتشى أصحابه على تقديم بعضها على بعض، فاتخذ بيتاً له شباك حديد على الطريق، وأمر فنودي بطرح القصص فيه، فكان يدخله وحده فيأخذ ما يقع بيده أولاً، فينظر فيه لا يقدم بعضها على بعض، وكان المهدي في بني العباس، نظير عمر بن عبد العزيز في بني أمية، كان يلبس الصوف ويصوم الدهر، قيل إنه ما أفطر في أيام خلافته إلا الأعياد وأياماً اعتل فيها، وكان يصلي أكثر الليل.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، قال: قدم رجل من الرملة يتظلم إلى المهتدي فأنصفه فاستخفه الفرح حتى غشي عليه، فأتاه المهتدي بنفسه، فلما أفاق، قال: ما حسبت أني أعيش حتى أرى هذا العدل، فلما رأيته داخلني من السرور ما زال معه عقلي، فقال: كان الواجب أن ننصفك في بلدك، فإذا لم نطق ذلك، فنعطيك ما أنفقت في طريقك، وكان أنفق عشرين ديناراً، فأمر له بخمسين ديناراً، وأستحله من تأخر حقه، فما سمع بهذا منه أحد إلا خشع له قلبه، في كلام هذا معناه.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن الفضل قال: طالب رجل بعض قواد الأتراك بضيعة غصبه عليها بحضرة المهتدي، فقال التركي: لي وفي يدي، وقالت الفقهاء: لمن هي في يده، وعلى خصمه البينة. فقال المهتدي: علمت هذا، وذهب أمرك على من علمك وأنت في الإسلام منقطع وحدك لا إرث لك، ولا يجوز أن تملك مال هذه الضيعة إلا بأقطاع أو شرى أو إرث عن زوجة، فهل ورثتها عن زوجة؟ قال: لا. قال: فأحضرني كتب أقطاعك أو شراك، وإلا سلمتها إليه، فخرج التركي فاشتراها منه، وعجب الناس من فطنة المأمون وكان الملك في الجاهلية يجلس للعامة، في النيروز مرة، وفي المهرجان مرة فيأتونه

بظلاماتهم، فإن تظلم منه متظلم، جاء حتى جلس مع خصمه عند المربد، فإذا نظر بينه وبينه لبس تاجه، وانتصب للنظر في أمور الناس، فلم يطمع أحد في ظلم أحد بعد ما رأى من إعطاء الملك الحق من نفسه، وقال أنوشروان: خفت أن يحجب عني المظلوم، فعلق على أقرب الأستار إليه أجراساً، ووصلها بسلسلة ونادى مناديه، من ظلم فليحرك السلسلة، وهو الأصل في قول الناس حرك فلان السلسلة على فلان إذا وشى به، وكان ملوك الفرس إذا بلغهم أن كلباً مات بقرية أخذوا أهلها بالبينة أنه مات حتف أنفه، و لم يمت جوعاً.

أول من فرق بين الخصوم علي عليه السلام: خرج قوم في خلافته سفراً فقتلوا بعضهم، فلما رجعوا طالبهم علي به، وأمر شريحاً بالنظر في أمرهم بإقامة البينة، فقال علي عليه السلام:

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل

أراد أنه قصر، و لم يستقص كتقصير صاحب الإبل في تركها، واشتماله ونومه، ثم فرق بينهم، وسألهم فاختلفوا، فلم يزل يبحث حتى أقروا، فقتلهم، وذلك أول ما فرق بين الخصوم.

أول من سن صلاة الركعتين عند القتل خبيب بن عدي: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن إبراهيم بن المنذر، عن محمد بن فيلح، عن موسى بن عقبة، عن ابن شهاب، وعن الجوهري، عن أبي زيد عن غير هؤلاء، جعلت أحاديثهم حديثاً واحداً، قالوا: بعث النبي صلى الله عليه وسلم عاصم بن أبي الأفلح، ومرثد بن أبي مرثد، وخبيب بن عدي، وزيد بن الرثنة، وعبد الله بن طارق إلى مكة، يتخبرون له خبر قريش، فلما كانوا بالرجيع اعترضهم بنو لحيان- حي من هذيل- فجعل عاصم يقاتل وهو يقول:

ما علتي وأنا جلد نابل ... والقوس فيها وتر عتابل

تزل عن صفحتها المعاول ... أترأس القوم ولا نقاتل

والموت حق والحياة باطل

وقال: اللهم إني أحمي دينك فاحم لي لحمي، فلما قتل أراد القوم أن يحملوا رأسه، فاجتمع عليه الدبر- النحل- فلم يقدروا عليه، فقال الأحوص:

فحزت واعتمت فقلت ذريتي ... ليس جهل أتيته ببديع

فأنا ابن الذي حمت لحمه الدبر ... قتيل اللحيان يوم الرجيع

وأما خبيب وزيد فصعدا في الجبل، فحمل القول لهما الأمان من القتل، فلما نزلا، أوثقوهما، وانطلقوا بهما إلى مكة، فباعوهما فابتاع بنو الحارث بن عامر بن نوفل خبيباً، وكان قتل الحارث يوم بدر، فلما انسلخ الأشهر الحرم أخرجوه إلى الحل ليقتلوه، فقال:

ولست أبالي حين أقتل مسلماً على أي جنب كان في الله مصرعي

وذلك في ذات الإله وإن يشأ يبارك على أعضاء شلو ممزع

ثم ركع ركعتين وقال: والله لولا تحسبوا أني أجزع من القتل لزدت، وهو أول من فعل ذلك، فقام عقبة بن الحارث فقتله، وصلبوه، وقتل بسطاس مولى صفوان بن أمية زيد بن الدثنة فقال حسان:

يا عين جودي بدمع واكف سرب على حبيب مع الغادين لم يؤب

فرع توسط في الأنصار منصبه صافي الضريبة محض غير مؤتسب

بني سحينة إن الحرب قد لقحت يحلو بها الصاب يهديه لمختلب

فيها اسود بني النجار يقدمهم زرق الأسنة في معصوصب لجب

أول من بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الرضوان سنان السدي: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر عن المدائني، عن رجاله قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبعمائة من أصحابه، ومعه سبعون بدنة، يريدون زيارة البيت، فلقيه خالد بن الوليد في خيل فصده، وكان يبعث عثمان رضي الله عنه إلى قريش يستأذن له في الدخول، فأجاره سعيد بن العاص، وتأخر رجوعه، فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قتل، فبايع الناس على ألا يفروا، وهي بيعة الرضوان، فكان أول من ضرب يده على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها سنان بن سنان الأسدي، فضرب رسول الله إحدى يديه على الأخرى وقال: هذه يد عثمان، ثم كتب قريش بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلح عشر سنين، وأن ينصرف عامة ذلك ويعتمر من قابل، فرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد عن إبراهيم بن المنذر، عن عبد الله بن وهب، عن الليث بن سعد أن يزيد بن أبي حبيب حدثه عمن حدثه، أن عبد الرحمن بن عوف أرسل إلى عثمان وهو مريض يعاتبه في بعض ما عتب الناس عليه، وقال لرسوله: إقرأ على أمير المؤمنين السلام، وقل له: وليتك ما وليتك من أمور الناس وإن لي أموراً ما هي لك، لقد شهدت بدراً وما شهدتها، وشهدت بيعة الرضوان وما شهدتها، ولقد فررت يوم أحد وصبرت، فقال عثمان رضي الله عنه لرسوله: اقرأ على أخي السلام وقل له: أما ما ذكرت من شهودك بدراً وغيبتي عنها، فقد خرجت لها وردني رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الطريق إلى ابنته التي كانت تحتي بها من المرض، ووليت منها الذي يحق علي ثم دفنتها، ثم لقيت رسول الله منصرفه من بدر فبشرني بأجر عند الله مثل أجوركم، وأعطاني سهماً مثل سهامكم، فأنا أفضل أم أنتم؟ وأما بيعة الرضوان فإن رسول الله كان بعثني لأستأذن له من قريش في الدخول بالهدي، يطوف

بالبيت، وينحر هدية، ويحل من عمرته، فاستبطأني، وخاف أن يكون غدر بي، فهاجه مكاني على بيعة الرضوان، فلما فرغ من بيعتكم ضرب بإحدى يديه على الأخرى وقال: هذه بيعة عثمان. فأيديكم أفضل أم يد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وأما ما ذكرت من صبرك يوم أحد وفراري، فقد كان ذلك، فأنزل الله العفو في كتابه عني، فعيرتني بذنب غفره الله لي، ونسيت من ذنوبك ما لا تدري أغفر الله لك أم لم يغفر. فلما جاء الرسول بهذا بكى، وقال: صدق والله أخي، لقد عيرته بذنب غفره الله له، ونسيت من ذنوبي ما لا أدري أغفرت لي أم لم تغفر.

أول من شهر سيفه في سبيل الله الزبير بن العوام: أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن القعنبي، عن سفيان بن عيينة. وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني عن لوط بن يحيى، عن مجالد، عن الشعبي قال سفيان: أول سيف شهر في الإسلام سيف الزبير، قيل له: قد قتل رسول الله فخرج بسيفه يسعى، وهو غلام، قالوا: فلما قتله بن جرموز جاء علياً فقال علي عليه السلام: بشر قاتل ابن صفية بالنار. ونظر إلى سيفه فقال: كم كشفت به الغماء عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو جعفر: فقال ابن جرموز:

أتيت علياً برأس الزبير	رجوت به عنده الزلفة
فبشر بالنار قبل العيان	وبئست بشارة ذي التحفة
فقلت له ان قتل الزبير	لولا رضاك من الكلفة
وسيان عندي قتل الزبير	وضرطة عير بذي الجحفة

فلما ورد مصعب البصرة استخفى ابن جرموز، فقال مصعب: ليظهرن سالماً وليأخذ عطاءه موفوراً، أيظن أني أقتله بأبي عبد الله؟ وأجعله نداً له، فكان هذا من الكبر المستحسن. وكان ابن جرموز يدعو لدنياه فقيل له: هلا دعوت لآخرتك! فقال: أيست من الجنة بقتل الزبير. في كلام هذا معناه.

أول من أراق دماً في سبيل الله سعد بن أبي وقاص: أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله بن العباس، عن الفضل، عن إبراهيم، عن الواقدي، عن أبي بكر بن إسماعيل، عن أبيه، عن عامر بن سعد، عن أبيه قال: خرجت أنا وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، وخباب بن الأرث، وعمار بن ياسر، وابن مسعود، في شعب أبي دب نتوضأ ونصلي، ونحن مستخفون، إلى أن ظهر علينا نفر من المشركين، قد كانوا يرصدوننا، واتبعوا أثرنا، أبو سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق، وغيرهم، فعابوا علينا ذلك وأنكروا. حتى بطشوا بنا، فتضاربنا واقتتلنا، فأخذ سعد لحي جمل فضرب به رجلاً من المشركين فأشجه شجة أوضحت، فأنكر

المشركون، وقوي أصحابي، فطردناهم حتى خرجوا من الشعب، فكنت أول من أهرق دماً في الإسلام.

أول من جمع بالمدينة أسعد بن زرارة: جمع في أربعين رجلاً في هزمة بين ظهري بني بياضة يقال لها الخضمات، وقيل أول من جمع فيها مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف في دار سعد بن خيثمة قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أول من أفشى القرآن بمكة عبد الله بن مسعود: وكان صاحب سواد رسول الله- أي أسراره- وصاحب وساده- أي فراشه- وسواكه ونعليه وطهوره في السفر. وكان يستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويمشي معه فردين، ويلبسه نعليه، ويمشي أمامه بالعصا، وإذا أتى مجلساً نزع نعليه وأدخلهما في ذراعه، وكان يشبه به في سمته وهديه.

أول من رمى بسهم في سبيل الله: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري عن أبي زيد، عن عمر بن عون، عن خالد بن أبي عبد الله، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم قال: سمعت سعداً يقول: إني لأول رجل من العرب رمى بسهم في سبيل الله، ولقد كنا نعدو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى أن أحدنا ليشع كما يضع البعير ماله خلط، ثم أصبحت بنو أسد تغمزني على الدين، لقد خبت إذاً وضل عملي، وكانوا وشوا به إلى عمر وقالوا: لا يحسن أن يصلي. وأما أول من رمى من عسكر المسلمين يوم أحد فقرمان وكان من المنافقين، وعظم بلاؤه يومئذ، وجرح فقيل له: لتهنك الشهادة. فقال: والله ما قتلت للشهادة، ولكن للحفاظ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله ليؤيد دينه بالرجل الفاجر.

ومما يجري مع هذا ما أخبرنا به أبو القاسم، عن العقدي أبي عرفة، عن عيسى بن يونس، عن عبد الرحمن بن زيد، عن جابر، عن أبي سلام الدمشقي عن خالد بن يزيد الجهني قال: كنت رجلاً رامياً وكان يمر بي عقبة بن عامر الجهني فيقول: أخبرك بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فأتيته فقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه محتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومناوله، فارموا واركبوا، وإن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا، وليس اللهو إلا في ثلاث: تأديب الرجل فرسه، وملاعبته امرأته، ورميه بنبله، ومن ترك الشيء بعدما علمه رغبة عنه، فإنها نعمة كفرها".

أول من استشهد في الإسلام الحارث بن أبي هالة: أخبرنا أبو القاسم بن سيران، عن عبد الرحمن بن جعفر، عن العلاء، عن بشر بن حجر الشامي، عن علي بن منصور الأنباري، عن سرفي القطامي قال: أول قتيل في الإسلام الحارث بن أبي هالة، وكانت أمه خديجة قد ولدت الحارث وهنداً ابني أبي هالة، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أمر أن يصدع بما يؤمر قام في المسجد الحرام فقال: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، فوثبت عليه قريش، فأتى الصريخ أهله، فكان أول من أتاه الحارث ابن أبي هالة،

فضرب في القوم ففرقهم عنه، ثم عطفوا عليه، فضربوه حتى قتلوه، وقال غيره: أول من استشهد في الإسلام سمية أم عمار، طعنها أبو جهل في فرجها فقتلها حين أظهرت الإسلام.

أول من دفن بالبقيع عثمان بن مظعون: أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله بن الفضل، عن إبراهيم، عن الواقدي، عن رجاله وعن الجوهري عن أبي زيد عن شيوخه قالوا: أول من مات من المهاجرين، وأول من دفن بالبقيع، عثمان بن مظعون، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مات وجعل في أثوابه، فقالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، إني شاهدة إن الله قد أكرمك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: وما يدريك؟ فقالت: يا رسول الله لا أدري فمه؟ فقال: إني أرجو له الجنة ولا أدري ما يفعل بي وأنا رسول الله. قالت: فوالله لا أزكي بعده أحداً أبداً، ثم لحد له رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفصل حجراً من حجارة لحده، فوضعه عند رجليه، فمر مروان حين ولي فأمر به فنحي، وقال: والله لا يكون على قبر عثمان بن مظعون حجر يعرف به، وليس على قبر عثمان بن عفان حجر يعرف به. فلامته بنو أمية، وقالوا: عمدت إلى حجر وضعه رسول الله فأزلته، وأمروا به أن يرد، فقال: والله إذ رميت به لا يرد، في كلام هذا معناه.

أول من أتى أرض الحبشة من المهاجرين حاطب بن عمرو: وكانت إلى الحبشة هجرتان، وإلى المدينة هجرة واحدة، قالوا: لما أظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم الدعاء إلى الإسلام، اشتد كياد المشركين عليه، وعلى من أسلم من قبائلهم، فأمر رسول الله بالخروج إلى الحبشة، فخرجوا إليها، فكان أول من أتاها حاطب بن عمرو، أخو سهيل بن عمرو، فلما هاجر إلى المدينة، لحقوا به.

أخبرنا أبو أحمد عن عبد الله عن الفضل عن الواقدي قال: قالوا: لقي عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسماء بنت عميس، وكانت من المهاجرين إلى الحبشة، وقال لها: سبقناكم بالهجرة، فقالت: بل نحن سبقناكم بها مرتين، وشركناكم في الثالثة، ثم قالت: لعمري لقد كنا الطرداء، وكنتم أنتم مع رسول الله في عشائركم، يطعم جائعكم، ويعلم جاهلكم، ويؤمن خائفكم، فسكت عنها عمر.

أول من قدم من المهاجرين إلي المدينة: أبو سلمة بن عبد الأسد، ثم عامر بن أبي ربيعة، وامرأته ليلى بنت أبي حثمة، وهي أول ظعينة قدمت المدينة.

أول من ضرب على يد رسول الله ليلة العقبة البراء بن معرور: أخبرنا أبو أحمد بإسناده عن الواقدي في خبر طويل، قال: اجتمع الأنصار مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على البيعة، فقالوا: إننا نخاف إن أعزك الله وأظهرك، أن ترجع إلى قومك وتدعنا، فقال النبي: الدم الدم، الهدم الهدم، أي دمي دمكم ما قمتم به قمت معكم، وما هدمتم هدمته، فلما أرادوا البيعة قال العباس: يا معشر الخزرج، إنما تبايعون هذا

الرجل على حرب الأسود والأحمر، فإن كنتم إذا أنهكت أموالكم، وقتلت أشرافكم، أسلمتموه فمن الآن، قالوا: فإنا نقبله على مصيبة الأموال، وقتل الأشراف قال: فأخذ العباس بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا معشر الأنصار، أخفوا جرسكم فإن علينا عيوناً، وقدموا ذوي أسنانكم فإنا نخاف قوامكم عليكم، فإذا بايعتم فتفرقوا في رحالكم، فاكتموا أمركم، فإن طويتم هذا الأمر حتى يتصدع هذا الموسم فأنتم الرجال، وأنتم لما بعد اليوم. فقال البراء بن معرور: والله عندنا كتمان ما تحب، وإظهار ما تحب، وبذل مهجنا رضاء ربنا، إنا أهل حلقة وافرة، وأهل منعة، وعز، وكنا على ما كنا عليه من عبادة ونحن كذلك، فكيف اليوم! وقد بصرنا الله ما عمي على غيرنا، وأيدينا بمحمد، أبسط يدك. فكان أول من ضرب يده على يد رسول الله للبيعة في كلام هذا معناه.

وقالوا: أول من ضرب على يده أبو الهيثم بن التيهان، وكان أحد الخطباء.

أخبرنا أبو أحمد عن أبي بكر بن دريد، عن علي العكلي، عن أبي خالد، عن الهيثم بن عدي قال: قام أبو الهيثم بن التيهان خطيباً بين يدي علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: إن حسد قريش أياك على وجهين، أما خيارهم فتمنوا أن يكونوا مثلك، منافسة في الملأ، وارتفاع الدرجة، وأما شرارهم فحسدوك حسداً اثقل القلوب واحبط الأعمال، وذلك أنهم رأوا عليك نعمة قدمك إليها الحظ، وأخرهم عنها الحرمان، فلم يرضوا أن يلحقوك حتى طلبوا أن يسبقوك، فبعدت عليهم والله الغاية، وأسقط المضمار، فلما تقدمتهم بالسبق، وعجزوا عن اللحاق، بلغوا منك ما رأيت، وكنت والله أحق قريش بشكر قريش، نصرت بينهم حياً، وقضيت عنه الحقوق ميتاً، والله ما بغيهم إلا على أنفسهم، ولا نكثوا إلا بيعة الله، يد الله فوق أيديهم، فها نحن معاشر الأنصار، أيدينا وألسنتنا لك، فأيدينا على من شهد، وألسنتنا على من غاب.

أول من أذن في الإسلام بلال رضي الله عنه : أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن محمد بن حاتم، عن هيثم، عن بشر، عن أبي عمير، عن أنس عن عمومته من الأنصار وعن غير هؤلاء قالوا: اهتم رسول الله صلى الله عليه وسلم بجمع الناس للصلاة، فقال بعضهم: أنصب راية، وذكر بعضهم: الشبور، وبعضهم الناقوس، فلم يعجبه ذلك، ثم أتاه عبد الله بن زيد الأنصاري وقال: إني لبين النائم واليقظان، فرأيت رجلاً عليه ثوبان أخضران، قام فأذن ثم قعد، ثم قام فقال مثلها، إلا أنه قال: قد قامت الصلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، علمها بلالاً، فكان بلال يؤذن، فإذا غاب أذن ابن أم مكتوم، وإذا غاب أذن أبو محذورة، قال الشاعر:

كلا ورب الكعبة المستورةوما تلا محمد من سورةوالنغرات من أبي محذورة

فقال رسول الله: "إذا أذن بلال فلا يطعم أحد. وإذا أذن عمرو فكلوا واشربوا فإنه ضرير البصر" فاستدل بعض الفقهاء بهذا على جواز آذان الفجر قبل طلوع الفجر.

أخبرنا بعض أصحابنا قال: استقصى بعض العلويين بواسط فجمع الفقهاء ليتناظروا في مجلسه، فقال بعضهم: ما الدليل على جواز آذان الفجر قبل طلوع الفجر فقال: قول النبي صلى الله عليه وسلم : " إذا أذن بلال فلا يطعم أحد، وإذا أذن عمرو فكلوا واشربوا". قال: فهذا دليل على أنه كان يؤذن قبل طلوع الفجر، قال: فقال القاضي: أليس قول النبي صلى الله عليه وسلم: " علي مني كهارون من موسى" دليلاً على أن آذان الفجر لا يجوز قبل طلوع الفجر، قال: فقلت له: ما أنكرت أن قول النبي: "اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر" وقول الله تعالى: "قل يا أيها الكافرون، لا أعبد ما تعبدون"، وقول علي: لا رأي لمن لا يطاع وكل خبر يروى، وكل آية نزلت دليل على جواز آذان الفجر قبل طلوع الفجر، قال: وارتجّ المجلس ضحكاً، والقاضي ميت لا يدري ما قال وما قلت له، فقمت وقلت: أنزل الله القضاء على من ولاك القضاء.

أول مولود ولد في الإسلام قبل الهجرة عبد الله بن عمر: وأمه زينب بنت مظعون الجمحي تزوجها عمر في الجاهلية، فولدت له عبد الله، وعبد الرحمن الأكبر، وحفصة، وكان عبد الله ممن لم يدخل في الفتنة، وممن لا يرى طلاق المكره، وكان إذا اغتسل من الجنابة غسل داخل عينيه حتى ذهب بصره، فإذا توضأ غسل بيده إلى منكبه، ودخل على بعض الأمراء فأحضر له بربطاً، فقال: أتعرف هذا يا أبا عبد الرحمن؟ فقال: نعم. هذا مهران حيراني، وذلك من سلامة قلبه، وأعجب من غسل عبد الله داخل عينيه من الجنابة صنيع أنس بن مالك، وأبي طلحة الأنصاري.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن المغيرة بن محمد، عن علي بن محمد بن سليمان النوفلي عن أبيه قال: قلت لعيسى بن جعفر وهو والي البصرة، لو أحضرت عدة من الفقهاء، والأدباء، وأطايب الناس مجلسك في كل أسبوع يوماً، فتغدوا عندك وتذاكروا الفقه والآثار وأخبار الناس، فتستفيد معرفة وذكراً حسناً، فقال: اختر لي منهم عشرة، واقبض كل شهر ألف درهم، وفرقه فيهم، فلما حضروا تذاكروا أنس بن مالك، فقلت: ولاه الحجاج نيسابور من ارض فارس، فأقام فيها سنتين يقصر الصلاة ويفطر، ويقول: ما أدري كم مقامي ومتى يوافيني العزل، فأنكر عيسى ذلك، فتبادر القوم بالأسانيد بصحته، فقلت: أعجب من هذا صنيع أبي طلحة الأنصاري، كان يأكل البرد في شهر رمضان، ويقول: ليس بطعام ولا شراب،

فأنكره عيسى، فتبادر القوم بالأسانيد. فقال حماد بن زيد: كأنك تحب أن تذكر مساوئ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: والله ما قصدت ذلك، ولا أبغضت واحداً منهم، ولكني أعلمك أنك على خطأ إذا حدثت عن النبي أنه قال: "أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم" فترسل هذا ولا توضحه فيسمعه من لا يدري، فيفعل فعل أبي طلحة وأنس، فيكون الإثم عليك، وإنما عنى صلى الله عليه وسلم العلماء منهم، مثل عمر وعلي وابن مسعود ومعاذ بن جبل ومن شاههم، لا على الجمهور.

أول مولود ولد بالمدينة بعد الهجرة عبد الله بن الزبير: أخبرنا أبو أحمد بإسناده، عن الواقدي، عن مصعب، بن ثابت عن أبي الأسود قال: لما قدم المهاجرون المدينة أقاموا لا يولد لهم مولود، فقالوا: سحرهم اليهود، فكان أول مولود ولد في الإسلام من المهاجرين عبد الله بن الزبير: قال: فكبر الناس تكبيرة ارتجت منها المدينة، وفرحوا، وكان الزبير يهنأ به وأبو بكر، وكانت ولادته في شوال لعشرين شهراً من الهجرة، فحنكه رسول الله صلى الله عليه وسلم بتمرة، وأمر أن يؤذن في أذنه بالصلاة، فأذن أبو بكر فيها، وكان عبد الله بن الزبير أحد فضلاء الناس، عقلاً وحزماً وشجاعة وبياناً غير أنه كان بخيلاً متناهي البخل.

أخبرنا أبو أحمد، عن دريد عن أبي حاتم قال: قرأت على أبي عبيد حديث مادر فضحك، وقال: تعجبني من العرب قد ضربت المثل في البخل بمادر لفعلة تحتمل التأويل، وتركوا مثل ابن الزبير، مع ما يؤثر عن لفظه وفعله من دقائق البخل، نظر وهو خليفة إلى رجل يقاتل الحجاج على دولته وقد دق في صدور أهل الشام ثلاثة أرماح، فقال: اعتزل حربنا فإن بيت المال لا يقوى على هذا، وقال في تلك الحرب لجنده أكلتم تمري وعصيتم أمري، سلاحكم رث، وحديثكم غث، عيال في الجدب، أعداء في الخصب، وقال لرجل كان يتعاطى بيع الرقيق: ما أشد أقدامك على ركوب الغرر، وإضاعة المال، قال بماذا؟ قال: بضاعتك هذه الملعونة، قال: وما لها؟ قال: من ضمان نفس، ومؤونة ضرس، قال: وسمع أن مالك بن الأشعر الدارمي من بني مازن أكل من بعيره وحده، وحمل ما بقي منه على ظهره، فقال: دلوني على قبره حتى أنبشه، وقال لرجل أتاه مجتدياً، وقد أبدع به فشكا إليه حفاء ناقته، فقال: أخصفها بلهب، وارفعها بسبب، وانضح خفها بالماء، وأعد بها يبرد خفها، فقال: يا أمير المؤمنين: جئتك مستوصلاً لا مستوصفاً، فلا بقيت ناقة حملتني إليك، فقال: أن وصاحبها، قال: فلو تكلف الحارث بن كلدة طبيب العرب، ومالك بن زيد مناة، وحنيف الحناتم إبلال العرب، ما تكلفوا تكلف هذا الخليفة في وصف علاج ناقة الأعرابي.

وكان يأكل في سبعة أيام أكلة، ويقول في خطبه: إنما بطني شبر في شبر فما عسى أن يكفيني، فقال فيه الشاعر:

لو كان بطنك شبراً كان قد شبعت وكنت أفضلت فضلاً للمساكين
فإن تصبك من الأيام جائحة لم أبك منك على دنيا ولا دين

والمادر رجل من بني هلال بن عامر بن صعصعة سقى إبله فبقي في أسفل الحوض ماء قليل، فأحدث فيه، ومدر الحوض به لئلا ينتفع به أحد فسمي مادراً. وذكر أن بني فزارة وبني هلال سافروا إلى أنس بن مدرك الخثعمي، فقالت بنو عامر: يا بني فزارة أكلتم أير الحمار، فقالوا: أكلناه و لم نعرفه، وحدثت أن ثلاثة نفر اصطحبوا. فزاري وتغلبي، وكلابي، وصادوا حماراً ومضى الفزاري في حاجة، فطبخا وأكلا، وخبأ للفزاري جردان الحمار، فلما رجع قالا قد خبأنا لك، فجعل يأكل ولا يكاد يسيغه، وجعلا يضحكان، ففطن وقال: آكل سواء العير وحومانه وحومان الحمار جردانه، ثم أخذ السيف وقال: لتأكلانه وإلا قتلتكما، وقال لأحدهما وكان اسمه مرقمة، كل فأبى، فضربه فأبان رأسه، فقال الآخر طاح مرقمة، فقال: وأنت أن تلقمه، أراد إن تلقمها، فلما ترك الألف، ألقى الفتحة على الميم كما قالوا: ويل أم الحيرة وأبي رجال به أي بها، قال الكميت بن ثعلبة:

نشدتك يا فزار وأنت شيخ إذا خيرت تخطئ في الخيار
أصيحانية أدمت بسمن أحب إليك من أير الحمار
بلى أير الحمار وخصيتاه أحب إلى فزارة من فزاري

فقالت بنو فزارة ولكن لكم يا بني هلال من فري حوضه وسقي ابله، فلما رويت سلم فيه ومدره بخلاً أن يشرب غيره منه، فقضى أنس بن مدرك على الهلاليين.
وبإسناد لنا أن رجلاً تقاضى فزارياً ديناً له عليه، فقال له الفزاري: ما أعطيتك أير حمار. فقال له: بورك لكم في أير الحمار تأكلونه إذا جعتم وتقضون ديونكم إذا استدنتم.
أول مولود ولد من النصار النعمان بن بشير لأربع وعشرين شهراً من الهجرة: أخبرنا أبو أحمد بإسناده عن الواقدي قال: قالوا: أتى النبي صلى الله عليه وسلم بالنعمان بن بشير اليوم السابع من مولده، وعليه شعر البطن، فأمر بحلقه وقال: عقوا عنه بشاة، وتصدقوا بزنة شعره على المساكين، فهو أول من تصدق بزنة شعره.
أول مولود ولد بالبصرة عبد الرحمن بن أبي بكرة:
أول من لاعن في الإسلام هلال بن أمية الواقفي: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أبي داود، عن عباد بن منصور، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: "والذين يرمون

المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة" قال: سعد ابن عبادة: يا رسول الله، أهكذا أنزلت؟ فلو وجدت لكاعاً متفخذها رجل لم يكن لي أن أخبركم حتى آتي بأربعة شهداء؟ فوالله لا آتي بهم حتى يقضي حاجته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر الأنصار، ألا تسمعوا ما يقول سيدكم، قالوا: لا تلمه فإنه رجل غيور، والله ما تزوج قط إلا عذراء، ولا طلق إمرأة فاجترأ رجل منا أن يتزوجها، فقال سعد: والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق، قال: فإن رسول الله لكذلك إذ جاء هلال بن أمية الواقفي فقال: إني جئت البارحة عشاء إلى حائط لي، فرأيت مع أهلي رجلاً، فكره رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جاء به، وقيل تجلد، وتبطل في المسلمين فقال هلال: يا رسول الله إني لأجد في وجهك كراهة ما جئت به، وإني أرجو أن يجعل الله لي فرجاً، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكذلك إذ نزل عليه الوحي، وكان إذا نزل عليه الوحي يربد وجهه وجسده لذلك، وأمسك عنه أصحابه، فلم يكلمه أحد، فلما رفع الوحي قال: يا هلال أبشر، فقد جعل الله لك فرجاً، ثم قال: أدعوها فدعيت، فقال: إن الله جل ثناؤه يعلم أن أحدكما كاذب، فهل منكما تائب، فقال هلال: ما قلت إلا حقاً، وقالت هي: كذب، فقيل لهلال: اشهد فشهد بأربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين وقيل له في الخامسة: اتق الله، فإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، وإن هذه توجب عليك العذاب، قال: لا يعذبني الله عليها أبداً كما لا يجلدني عليها، فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين، وقيل لها: اشهدي، فشهدت أربع شهادات بالله أنه لمن الكاذبين، وقيل لها عند الخامسة: اتقي الله، فإن عذاب الله أشد من عذاب الناس، وإن هذه توجب عليك العذاب، فصبرت ساعة ثم قالت: والله لا أفضح قومي، فشهدت الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين، وقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا ترمى ولا يرمى ولدها، ومن رماها ورمى ولدها جلد الحد، وليس عليه قوت ولا سكنى، من أجل أنهما يتفرقان بغير طلاق ولا هو متوفى عنها، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبصروها، فإن جاءت به أشبح أصهب أرشح حمش الساقين فهو لهلال بن أمية، وإن جاءت به خدلج الساقين، سابغ الإليتين، أورق جعداً جمالياً فهو لصاحبه، فجاءت به خدلج الساقين، سابغ الإليتين، أورق جعداً جمالياً، فقال رسول الله: لولا الإيمان لكان لي ولها أمر.

أول من ظاهر من امرأته أوس بن الصامت: أخبرنا أبو أحمد بإسناده، عن الواقدي، عن عبد الحميد، عن عمران بن أنس عن أبيه قال: كان من ظاهر في الجاهلية حرمت عليه امرأته آخر الدهر، وكان أول من ظاهر في الإسلام أوس بن الصامت، وكان به لمم، لاحى امرأته خولة بنت ثعلبة، فقال لها: أنت علي كظهر أمي، فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ما أراك إلا قد حرمت عليه، فجادلته مراراً، ثم دعت الله، فأنزل الله تعالى:"قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله" إلى آخر القصة،

فقال لها رسول الله: مريه فليعتق رقبة، قالت: من أين يجدها؟ والله ما له خادم غيري، قال: فليصم شهرين متتابعين، قالت: لا يطيق إنه لكالحرثاه، قال: فليطعم ستين مسكيناً، قالت: وأنى له ذلك؟ إنما هي وجبة، قال: فليأت أم المنذر- وكان عندها تمر الصدقة- فليأخذ شطر وسق، فليتصدق به على ستين مسكيناً، ففعل وكان يطعم كل مسكين مدين، هذا معنى الحديث.

أول من رجم في الإسلام ماعز: أول من استقبل القبلة حياً وميتاً البراء بن معرور:

أول ما نسخ من الشريعة أمر القبلة: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: اختلف الناس فقال بعضهم: لم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسجد نحو بيت المقدس، ويجعل الكعبة وراء ظهره، وقال بعضهم: لم يستقبل الكعبة حتى أتى المدينة، فجعل يصلي إلى بيت المقدس، لئلا تكذب به اليهود إذا صلى غلي غير قبلتهم مع ما يجدون من نعته، فصلى إليه سبعة عشر شهراً، وقالوا: ستة عشر شهراً، ثم سأل الله أن يحوله إلى الكعبة فأنزل الله: "فول وجهك شطر المسجد الحرام" فعل وكان ذلك أول ما نسخ من الشريعة. فقالت قريش: قد تردد على محمد أمره، وقد توجه إليكم، وهو راجع إلى دينكم، وشق على اليهود توليه عن بيت المقدس، فقال حيي بن أخطب للمسلمين: إن كانت صلاتكم إلى بيت المقدس هدى، فقد رجعتم عنه، وإن كانت ضلالاً، فقد مات عليها جماعة منكم، أسعد بن زرارة، والبراء بن معرور، وغيرهما، فأنزل الله تعالى: "وما كان الله ليضيع ايمانكم" وكانت الأنصار تصلي إلى بيت المقدس قبل مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم بسنتين، وأول من توجه إلى الكعبة البراء بن معرور.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن عيسى، عن عبد الله بن وهب، عن يونس، عن ابن شهاب، عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من سيدكم يا بني سلمة؟ قالوا: جد بن قيس، قال: لم سودتموه؟ قالوا: لأنه أكثرنا مالاً، وإنا لنذمه بالبخل، قال: وأي داء أدوى من البخل؟ بل سيدكم بشر بن البراء بن معرور، وكان البراء أول من استقبل القبلة حياً، فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فأمره أن يستقبل بيت المقدس فأطاع، حتى إذا حضرته الوفاة قال: وجهوني نحو المسجد الحرام، فلما قدم الرسول المدينة صلى إلى بيت المقدس ثلاثة عشر شهراً، هكذا قال: ثم صرفت القبلة إلى البيت الحرام في جمادى والبراء أول من صلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم من المسلمين.

أول ما حرمت الخمر أول من جلد فيها عبد الله الحمار: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن عبد الرحمن الفرشي عن الوليد بن مسلم عن مرزوق بن أبي الهذيل وغيره أنهم سمعوا ابن شهاب يحدث أن أول آية نزلت في تحريم الخمر: "يسألونك عن الخمر والميسر" فتواعظ المسلمون فيما بينهم، وقالوا: من اتبع هواه لا يتركها حتى تحرم، فأنزل الله تعالى: "لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى"

فانتهى بعضهم عنها و لم ينته بعض فشرب سعد بن أبي وقاص مع رجال من بني عمرو بن عوف، فسكروا فاقتتلوا، فكسروا أنف سعد، فأنزل الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب" إلى قوله: "فهل أنتم منتهون" فقال عمر: لننتهين، وكان عمر حرمها على نفسه قبل التحريم، وقال الواقدي: أول من أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل يقال له عبد الله الحمّار، قد شرب وسكر، فأمر فحثوا في وجهه التراب، وضربوه بنعالهم، ثم أتى به الثانية، ففعل به مثل ذلك، والثالثة حتى ضربوه مراراً، فقال عمر: اللهم العنه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله، وكان يشتري الشيء يأتي به الرسول على أنه هدية، فإذا أكله وفرقه قال: يا رسول الله هذا صاحبه، فأعطه ثمنه، فيضحك الرسول، ويأمر بإرضاء صاحبه، هذا معنى الحديث.

وقيل أول من ضرب في الخمر نعيمان والأول أصح.

أول فرس عقر في الإسلام فرس جعفر بن أبي طالب: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر عن المدائني عن رجاله، قالوا: وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم جعفر بن أبي طالب سنة ثمان إلى مؤتة في جيش فنزلوا عمان، فلقوا جمعاً للروم، معهم قوم متعربة من لخم وجذام ونهد، أو غيرهم، عليهم مالك بن نافلة، فالتقوا فعقر جعفر فرسه، ليعلم المشركين أنه الموت أو النصر، فكان أول فرس عقر في الإسلام، ثم قتل جعفر، وأخذ الراية عبد الله بن رواحة فقتل، وقتل قطنة بن قتادة مالك بن نافلة فقال:

طعنت ابن نافلة الرائش	برمح مضى فيه ثم انحطم
ضربت بسيفي شرى سيفه	فما كما مال غصن السلم

واجتمع الجيش إلى خالد بن الوليد، وانصرف ففتح الله عليه.

أول من استصبح في مسجد رسول الله وأول من عمل المنبر تميم الداري: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، وعن غير هؤلاء قالوا: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشتكي رجله إذا قام وقعد من وجع يقال له الرجز، فقال له تميم الداري: ألا أعمل لك منبراً؟ قال: وكيف المنبر؟ وكان تميم الداري رأى منابر الكنائس بفلسطين، فقطع أثلاً، وعمله وجعله درجتين ومقعداً، فتحول إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فحن الجزع، فوضه يده عليه فسكت، ثم دفن تحت المنبر، ثم كتب معاوية إلى مروان أيام خلافته أن يبعث إليه بمنبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقطعه مروان، فأصابتهم ريح مظلمة بدت فيها النجوم، فتركه وزاد فيه ست درجات، فصار تسع درجات، وما زاد فيه أحد قبله ولا بعده، وتميم أول من استصبح في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، هكذا رواه لنا في كتاب المدينة.

الباب الخامس

في ما جاء من ذلك عن الملوك في الإسلام

أول من بايع لولده معاوية وأشار عليه المغيرة بن شعبة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن الهيثم، عن عدي، عن الشعبي قال: كتب المغيرة بن شعبة إلى معاوية حين كبر وخاف العزل، فكتب إليه معاوية، أما ما ذكرت من كبر سنك، فأنت أكملت عمرك، وأما ما ذكرت من اقتراب أجلك، فإني لو أستطيع دفع المنية لدفعتها عن آل أبي سفيان، وأما ما ذكرت من سفهاء قريش، فإن حلماء قريش أنزلوك هذا المترل، وأما ما ذكرت من العمل فصح رويداً تدرك الهيجاء جمل، فاستأذن معاوية في القدوم فأذن له، فقال الربيع بن هريم: فخرج المغيرة، وخرجنا معه إلى معاوية، فقال له: يا مغيرة! كبرت سنك، واقترب أجلك، و لم يبق منك شيء، ولا أظنني إلا مستبدلاً بك، قال: ستعلمون. قال: فأتى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، إن الأنفس يغدى عليها ويراح، فلو نصبت لنا علماً نصير إليه، مع أني قد دعوت أهل العراق إلى يزيد فركنوا إليه، حتى جاءني كتابك، فقال: يا أبا محمد، انصرف إلى عملك، فأحكم هذا الأمر لابن أخيك، فاقبلنا على اليزيد نركض، فقال: يا مغيرة! وضعت رجلك في ركاب طويل، القي على أمة محمد، قال: فذاك الذي دعا إلى البيعة ليزيد.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن عبد الله بن محمد بن حكيم، عن خالد بن سعد، عن أبيه قال: لما أراد معاوية أن يعقد البيعة ليزيد قال لأهل الشام: إن أمير المؤمنين قد كبر، ودنا من أجله، فما ترون؟ وقد أردت أن أولي أمركم رجلاً من بعدي، قالوا: عليك بعبد الرحمن بن خالد، فأضمرها، واشتكى عبد الرحمن بن خالد، فأمر ابن أتال طبيباً من عظماء الروم فسقاه شربة فمات، فبلغ معاوية موته، فقال: ما أنجد إلا ما أنقص عنك من تكره، وبلغ حديثه ابن أخيه خالد بن المهاجر، فورد دمشق مع مولى له، يقال له نافع: فقعد لابن أتال ليلاً، فلما طلع منصرفاً من عند معاوية شد عليه خالد، فضربه وقتله، فطلبهما معاوية فوجدهما، فقال لخالد: قتلته لعنك الله؟ قال: نعم، قتل المأمور وبقي الآمر، ولو كنا على سواء ما تكلمت بهذا الكلام، فضرب معاوية نافعاً مائة سوط، وقضى في ابن أثال بالدية بإثني عشر ألف درهم، وأدخل بيت المال منها ستة آلاف، فكانت دية المعاهد مثل ذلك، حتى قام عمر بن عبد العزيز فأبطل الذي كان يأخذه السلطان منها، وقال خالد حين رجع إلى المدينة:

قضى لابن سيف الله بالحق سيفه ... وعرى من جمل الدخول رواحله

فإن كان حقاً فهو حق أصابه ... وإن كان ظناً فهو بالظن فاعله

سل ابن أثال هل ثارت ابن خالد ... وهذا ابن جرموز فهل أنت قاتله

يقول لعروة بن الزبير، وقال كعب بن جعيل يرثي عبد الرحمن:

ألا تبكي وما ظلمت قريش بأعوال البكاء على فتاها
ولو سئلت دمشق وارض حمص وبصرى من أباح لكم قراها
فسيف الله أدخلها المنايا وهدم حصنها وحمى حماها
فأسكنها معاوية بن حرب وكانت أرضه أرضاً سواها

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن سعيد بن عامر، عن جويرية بن أسماء قال: لما أراد البيعة ليزيد كتب إلى مروان وهو على المدينة فقرأ كتابه على الناس فقال: إن أمير المؤمنين قد كبر سنه، ورق عظمه، وخاف أن يأتيه أمر الله، فيدع الناس حيارى كالغنم، لا راعي لها، فأحب أن يعلم علماً، ويقيم إماماً بعده، فقيل: وفق الله أمير المؤمنين وسدده فليفعل، فكتب مروان إليه بذلك، فكتب أن سمّ يزيد، فسماه، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر، كذبت والله، وكذب معاوية، لا يكون ذلك أبداً، أشبه الروم كلما مات هرقل، قام هرقل، فقال مروان: هذا الذي قال الله فيه: "والذي قال لوالديه أف لكما" فأنكرت عائشة عليه ذلك، وكتب مروان إلى معاوية بذلك، فأقبل، فلما دنا من المدينة استقبله أهلها، فيهم عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، والحسين بن علي، رضي الله عنهم، وعبد الرحمن بن أبي بكر، فلما رآهم سبهم واحداً واحداً، ودخل المدينة، وخرج هؤلاء الرهط، معتمرين، ثم خرج معاوية حاجاً، فاستقبلوه، فلما دخلوا عليه رحب بهم وألطفهم، ثم أرسل إليهم يوماً، فقالوا لابن الزبير: أنت صاحبه فكلمه، فلما دخلوا عليه دعاهم إلى بيعة يزيد، فسكتوا، فقال: أجيبوني، فقال ابن الزبير: اختر خصلة من ثلاث: إما أن تفعل فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا تستخلف، أو فعل أبي بكر نظر إلى رجل من أعراض قريش؛ أو فعل عمر جعلها شورى في ستة فقال: ألا تعلمون أني قد عودتكم من نفسي عادة أكره أن أمنعكم إياها حتى أبين لكم؟ إني كنت أتكلم بالكلام فتعرضون فيه، وتردون علي، وإياكم أن تعودوا، وإني قائم فقائل مقالاً لا يعارضني فيه أحد منكم إلا ضربت عنقه.
ثم وكل بكل واحد منهم رجلين، وقام خطيباً فقال: إن عبد الله بن عمر وابن الزبير والحسين بن علي وعبد الرحمن بن أبي بكر قد بايعوا، فبايعوا، فابتدر الناس يبايعون حتى إذا فرغ ركب نجائبه، ومضى إلى الشام، وأقبل الناس على هؤلاء يلومونهم، فقالوا: والله ما بايعنا ولكن فعل بنا ما فعل، هذا معنى الحديث.
أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري عن أبي زيد قال: قدم معاوية حاجاً في عام واحد وخمسين، وأذن لمروان وقال: أشر عليّ في أمر الحسين، قال: أرى أن تخرجه معك فتقطعه عن أهل العراق، وتقطعهم عنه، قال:

أردت والله أن تستريح منه، ونحمل مؤونته، على أن ينال مني ما ينال منك فإن انتقمت قطعت رحمه، وإن صبرت صبرت على أذاه، ثم أذن لسعيد بن العاص، فقال: أشر علي في أمر الحسين قال: أرى أنك لا تخافه على نفسك، وإنما تخافه على من بعدك، وأنت تدع له قريناً إن قاتله قتله، وإن ماكره ماكره، فاترك حسيناً بمنبت النخلة، يشرب من الماء، ويذهب في الهواء، لا يبلغ عنان السماء، قال: أصبت.

لأخبرنكم عني يا بني أمية: لن يبرح هذا الأمر فيكم ما عظمتم ملوككم، فإذا تمناها كل امرئ منكم لنفسه وثب بنو عبد المطلب في أقطارها، وقال الناس: آل رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكانت الخلافة فيكم كحجر المنجنيق يذهب أمامه، ولا يرجع وراءه.

أول من وضع البريد في الإسلام معاوية بن أبي سفيان وأحكم أمره عبد الملك: فقال لابن الزعيزعة: وليتك ما خلف بابي إلا أربعة المؤذن فإنه داع إلى الله فلا حجاب عليه، وطارق الليل، فإنه لو وجد خيراً لنام، والبريد متى جاء من ليل أو نهار فلا يحجب، وربما أفسد علي القوم تدبير سنتهم حبسهم البريد ساعة، والطعام إذا أدرك فافتح الباب وارفع الحجاب وخل بين الناس وبين الدخول، ومن هذا أخذ الشاعر قوله:

بأبي خلائق خالد وفعاله	ألا تجنب كل أمر عائب
وإذا حضرنا الباب عند غذائه	أذن الغذاء لنا برغم الحاجب

وروي هذا الكلام عن زياد أيضاً.

أول من سمى الغالية غالية معاوية أيضاً: شمها من عبد الله بن جعفر وسأله عنها فوصفها له فقال: إنها غالية، ويقال: إنه شمها من مالك بن أسماء بن خارجة، وكانت أخته هند أول من صنعتها، فسألها عنها فقالت أخذته من شعرك:

أطيبى الطيب طيب أن أبان	فأر مسك بعنبر مسحوق
خلطته بزنبق ولبان	فهو إحدى على اليدين شريق

وأنكر الجاحظ ذلك وقال: نحن نجد في أشعار الجاهلية ذكر الغالية وأنشد البيتين ونسبهما إلى عدي، وذكر قول الهيثم: إن أربعة أشياء أتت قريشاً والعرب من جهة البشة: الغالية، وحمل النساء إذا متن في النعوش، والمصحف له دفتان، وصداق أربعمائة دينار.

قال: ولا أظن الهيثم يثبت في هذا الحديث، وإنما يؤتى الناس من ترك الثبت، وقلة المحاسبة، ولا يدفع التثبت والتحفظ من قريحة جيدة وقد قال الشاعر:

إنما تنفع التجارب ن كان عاقلا

قد علمنا أن ولد هارون النبي من اليهود كانوا طبقوا الحجاز وقرى العربية، وما زالوا يحملون موتاهم من الرجال والنساء في النعوش، وما زالت التوراة في أيديهم بين الدفتين، وأما الغالية: فمتى كانت الحبشة أصحاب عيش رقيق وتنعم، فهل بعدلهم شيء آخر يشبه الغالية، ومعجونات العطر كلها عربية، يدل على ذلك أن أسماءها كلها عربية صحيحة مثل الغالية والشاهرية والخلوق واللخلخة والعطن وهو العود المطري والذريرة. ولو كانت عجمية لكانت أسماؤها معربة كما يقولون في أسماء ألوان الطبيخ مثل السكباج والدغياج والطباهجة. والمصوص بالفارسية مزرور والمردون- وهو السميط- والسميط بالفارسية روا.

قال والخلوق وهو مما استعملته العرب قديماً، وكان السيد منهم إذا قتل رجلاً من غير رهطه، وكان أولياء الدم أعزاء قالوا: إما أن يقتلك صاحبنا، وإما أن تدفع إلينا رجلاً من رهطك شريفاً نقيده به، فكان السيد يعمد إلى رجل شريف فيلبسه أجود لباس ويخلقه ويزفه إليهم، فإن وجدوه كفوءاً قتلوه، أو عفوا عنه بعد القدرة. قال: فقتل حاجب بن زرارة مرار بن حنيفة فقالت قبائل دارم: إما ان بنفسك، واما ان تدفع الينا رجلاً من رهطك فامر فتى من بني زرارة من عدس ان يصير إليهم حتى يقاد، فمروا بالفتى على أمه مزيناً مخلقاً، فأنشد أخوها:

تضمخ بالخلوق وجهزوه ... لناجز حتفه والسيف دامي
وكان كظبية عترت ضلالاً ... وكان الشاة في الشهر الحرام

وهذا مثل قول الحارث بن حلزة:

عنتاً باطلاً فظلماً كم ... تعتر عن حجرة الربيض الظباء

وإنما قال أخوها هذا القول لتجزع أمه فلعل حاجباً يدفع إليهم سواه، فقالت الأم: إن حيضة وقت حاجبا الموت لعظيمة البركة، فجعلت ابنها حيضة في جانب ما يدفع الأذى عن السيد.

أول من عمل المقصورة معاوية: قال العبثي: رأى معاوية على منبره كلباً فأمر فاتخذ له المقصورة في المسجد، وقالوا: أول من اتخذها مروان.

أخبرنا أبو أحمد بإسناده عن الواقدي عن عبد الحكم بن عبد الله بن المطلب بن عبد الله قال: أول من أحدث المقصورة في المسجد مروان بن الحكم، بناها بحجارة منقوشة وجعل لها كوى، وكان قد بعث ساعياً إلى تهامة، فظلم رجلاً يقال له دب، فجاء حتى قام حيث يريد مروان أن يصلي، فطعنه بسكين معه، فلم يصنع شيئاً، وأخذوه، وقالوا: ما حملك على ما صنعت؟ قال: بعثت عاملك فأخذ مالي، فقلت أذهب إلى الذي بعثه أقتله فهو أصل الظلم، فحبسه مروان حيناً، ثم أمر به فاغتيل سراً، وأمر ببناء

المقصورة. قال: بعثت عاملك فأخذ مالي، فقلت أذهب إلى الذي بعثه أقتله فهو أصل، وكان يصلي فيها مخافة أن يصيبه ما أصاب عمر رضي الله عنه.

أول من نقص التكبير وأول من خطب جالساً: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن رجاله، عن إبراهيم، عن الشعبي قال: أول من خطب جالساً معاوية، حين كثر شحمه وعظمت بطنه، وهو أول من نقص التكبير، كان إذا قال: سمع الله لمن حمده انحط إلى السجود و لم يكبر فعد الناس خطبته جالساً من البدع، حتى بعث عبد الملك بن مروان خنيس بن دلجة فدعا بخبز ولحم أكله على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا بماء فتوضأ عليه، ودعا الناس إلى بيعة عبد الملك فبايعوه كرهاً، ثم بعث ابن الزبير أخاه عروة فقتله.

أول ملك عبثت به رعيته واجترئ عليه أشد الاجتراء معاوية: أخبرنا أبو أحمد بإسناده، عن أبي زيد قال: بلغني فيما روي في ذلك أن معاوية لما حج قال شاب من قريش لمولى: إن أنت قمت إلى معاوية، فسألته، من كان زوج أمه قبل أبي سفيان، فلك كذا، فقام الرجل إليه فقال: ليخبرنا أمير المؤمنين من كان زوج أمه قبل أبي سفيان؟ قال: حفص بن المغيرة، فكلم ذلك الرجل عمرو بن الزبير بعد ذلك بكلام أغلظ له فيه، فأمر بع فضرب حتى مات، فبلغ معاوية فتغيظ على عمرو، وهم به، فقيل هو الرجل الذي قام إليك بمكة، فقال كذا فقال: فأنا إذا قتلته وأنا أحق من وداه.

أول من أقر التسليم على الملوك معاوية: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن عبد الله بن عبد الصمد بن خداش، عن الوليد بن مسلم قال: سألت الأوزاعي عن التسليم على الأمراء فقال: أول من فعله معاوية، وأقره عمر بن عبد العزيز، قال الأوزاعي: إني لأكرهه لأنه مفسدة لقلوبهم، وكره من الداخل على الملك أن يسلم لأن التسليم يقتضي الرد، وليس ينبغي أن يخاطب الملك بما يوجب عليه كلفة رد، ورجع جواب، ألا ترى أنه لا ينبغي لأحد أن يسأله عن حاله، وعما بات عليه في ليله إلا أن يكون طبيباً، فيسأل عن ذلك ليكون علاجه له بحسبه، ولأن التسليم أيضاً مبتذل في سائر الناس، وعادات الملوك مباينة لعادات الرعايا، فسبيل الداخل عليهم، إن كان من الأشراف أن يجرد عليهم الدعاء، ويخلص التمجيد والثناء، قائماً بحيث لا ينأى عنهم، ولا يقرب منهم، فإن استدناه الملك، أكب على أطرافه فقبلها، ثم قام، فإن أومأ إليه بالقعود قعد، فإن كلمه أجابه بانخفاض صوت، وقلة حركة وإن سكت، نهض قبل أن يتمكن به المجلس بغير تسليم، ولا توديع، ولا انتظار أمر.

وإن كان من الطبقة لوسطى، فينبغي أن يقف نائياً عن الملك، وإن استدناه دنا خطوات ثلاث، فإن استدناه ثانياً، دنا مثل ذلك، فإن أومأ إليه بالقعود قعد مقعياً، أو جاثياً، وإن كان في دخوله محاذياً له

عدل يميناً أو شمالاً، إن أمكن ذلك، ثم ينحرف إلى مجلسه، فإذا وقعت عينه عليه هرول إليه حتى يقف بين يديه، ويدعو قائماً وإن سكت عنه انصرف ومشى القهقرى من غير سلام ولا كلام، وإن أمكن أن يستتر بشيء عن نظره فعل. فإذا دخل إليه من يساويه في السلطان فينبغي للملك أن يقوم إليه فيعانقه، ويجلس مجلسه، ويجلس دونه، فإذا انصرف مشى معه خطى يسيرة، ويدعو بدايته، ويأمر حشمه بالسعي بين يديه، ليفعل به مثل ذلك إذا كان في مثل حاله.

ومن حضر طعام الملك فينبغي أن يقل الأكل غاية الإقلال، حتى يأكل ما تأكل الطير، فإنما يراد بمؤاكلة الملوك التشريف لا الشبع.

وروي أن سابور ذا الأكتاف أراد أن يولي رجلاً قضاء القضاة، فأحضره طعامه، فأكل أكلاً واسعاً، فلما فرغ قال له: انصرف فإن من شره بين يدي الملوك كان إلى مال الرعية أشره.

ودعا المنصور فتى من بني هاشم إلى طعامه فقال: قد أكلت، فعدل به الربيع فضربه ثلاثين مقرعة، فعاتبه المنصور فقال: إن هذا كان يقف في النظارة فاستدناه أمير المؤمنين، حتى دعاه إلى طعامه، فظن أن ذلك يراد به الشبع، واغفل ما فيه من التشريف، فأدبته على سوء تمييزه، فشكر له المنصور وأجازه، ومن يدنه الملك لمنادمته ينبغ أن ينادمه على حسب عادة الملك في ذم نفسه، وإرسالها عند الشرب، ولا يسأله حاجة إذا سكر، فإن ذلك يجري مجرى الخداع، وإذا أراد أن يقوم لحاجة فينبغي أن يلاحظ الملك، فغن نظر إليه قام مائلاً، فإن نظر إليه مضى. وإن عاد وقف أبداً حتى إذا نظر إليه قعد مقعياً أو جاثياً، فإذا نظر إليه تمكن، وليس له أن يختار كمية الشرب وكيفيته، وعلى الملك أن يأمر بالكف عنه إذا بلغ الكفاية، ولا يكلفه فوق وسعه، فإن من يجاوز حد العدل على الخاصة، لم تطمع العامة في إنصافه، وغذا كان من اسم الداخل عن الملك بعض صفات الملك، فسأله الملك عن اسمه، فينبغي أن يكني عنه، ويصف الملك بتلك الصفة.

دخل سعيد بن مرة الكندي على معاوية فقال له: أنت سعيد؟ قال: أمير المؤمنين السعيد، وأنا ابن مرة، وقيل للعباس بن عبد المطلب: أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: رسول الله أكبر مني، وأنا أسن منه.

وإذا حدثه الملك بحديث فينبغي أن يصرف فكره وذهنه نحوه، ويظهر السرور بالفائدة منه. روي أن بعضهم ساير أنوشروان، فقال له أنوشروان: حدثني حديث كذا، وكان يعرفه، فأنكر معرفته، وأخذ أنوشروان يحدثه الحديث، أصغى إليه بجوارحه كلها، وكان سيرهما على شاطئ نهر، فأغفل الرجل النظر إلى مواطئ دابته، فمالت به إلى النهر، فابتدره الحاشية أخرجوه فقال له: كيف غفلت عن موطئ دابتك؟

فقال: إن الله إذا أنعم على رجل بنعمة قابلها بمحنة، وعلى قدر النعم تكون المحن، وإن الله أنعم عليّ نعمتين: إقبال الملك عليّ من بين هذا السواد الأعظم، والفائدة بحديثه، فلما اجتمعنا جاءت على أثرهما هذه المحنة، فأمر فحشي فمه جوهراً ودراً ثميناً. ومثل ذلك أن يزيد بن سحرة ساير معاوية يوماً، فاقبل عليه يحدثه، فصك وجه يزيد حجر عاثر، فصار الدم يسيل على ثيابه ولا يمسحه ولا يشتغل به، فقال له معاوية: أما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك؟ قال: وجهك يسيل، قال: عتق ما أملك إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألهاني، وغمر فكري، فما شعرت بما أصابني، فقال معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء، وأمر له بخمسمائة ألف درهم، وزاد في عطائه ألفاً، ولا شك أن يزيد تصنع لمعاوية في هذا الكلام، وإن معاوية تخادع له الحسن أدبه.

أخبرنا أبو احمد بإسناده، عن الواقدي، عن ابن أبي قال: قلت للزهري من أول من سلم عليه؟ فقيل: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة، حي على الفلاح،الصلاة يرحمك الله، فقال: معاوية بالشام، ومروان بن الحكم بالمدينة، كانوا يقولون: السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله وبركاته، حي على الصلاة، حي على الفلاح، الصلاة يرحمك الله، انتهى.

أول من استحلق في الإسلام معاوية: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي يزيد، عن حيان بن بشر، عن جرير بن المغيرة، عن الشعبي. وأخبرنا أيضاً عن الجوهري عن أبي زيد عن أبي عمرو ومحمد بن محمد بن خلاد، عن المدائني، وعن غير هؤلاء جعلت أحاديثهم حديثاً واحداً قال: فرض عمر لزياد ألف درهم، فلما أخذها قال: ما فعلت ألفك؟ قال: أعتقت بها عبيداً. قال: نعم الألف ألفك! وكان يكتب من زياد بن عبيد، حتى قال أبو سفيان لعلي عليه السلام: لولا أن يستوفي عمر أهابي لعرفت أن زياداً قريب النسب مني، أنا غرسته في رحم أمه، ثم ولاه علي عليه السلام فارس، فكتب إليه معاوية: أما بعد؛ فإنك امرؤ سفيه يغرك مني قلاع تأوي إليها كما تأوي الطير إلى أوكارها، وأيم الله لولا انتظاري ما الله محدث لك، لكنت أنا وأنت كما قال العبد الصالح: "فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها" وكتب في أسفل الكتاب يعلمه أنه يريد الدعاء فقال فيها:

لله در زياد أيما رجل	لو كان يعلم ما يأتي وما يذر
أفخر بوالدك الأدنى ووالده	إن ابن حرب له في قومه خطر
واترك ثقيفاً فإن الله باعدهم	حتى يلاقيهم في نسبه مضر
إن انتحالك قوماً لا تناسبهم	إلا بأمك ذنب ليس يغتفر

فلما قرأ الكتاب قال: العجب لابن آكلة الأكباد، وكهف النفاق، يتهددني وبيني وبينه ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم في مائة ألف، وأيم الله لئن أفضى إليّ ليجدن مني أحمر ضراباً بالسيف ثم بعث بكتابه إلى علي، فكتب إليه: أما بعد: فإني قد وليتك ما وليتك ما أنت أهل له، وأنا أعلم أنك لم تضبطه إلا بالتقوى والصبر، وقد قرأت كتاب معاوية، فاحذر فإنه الشيطان يأتي المرء من بين يديه ومن خلفه، وكانت من أبي سفيان زمن عمر فلتة فلا يثبت بها نسب، ولا يستحق بها ميراث.

فلما قرأه زياد قال: شهد لي أبو الحسن ورب الكعبة، فلما قتل علي رضي الله عنه، واجتمع الأمر لمعاوية قال للمغيرة بن شعبة: إن داهية العرب متحصن في قلاع فارس، معه الأموال، ما يؤمنني أن يدعو إلى رجل من أهل البيت، فيعبد على الأمر جذعة، قال: أتحب أن أكون رسولك إليه؟ قال: نعم، فخرج حتى ورد عليه فقال: إن معاوية أقلقه الوجل منك، وقد استقام له الأمر، وبايعه الحسن، وليس في أهل هذا البيت أحد يمد إليه الناس أعناقهم، ورأى أن تصل حبلك بحبله، وتنقل أصلك إلى أصله، ففعل وقدم إلى معاوية فادعاه، وخطب وقال: إنه من يرد الله دفع خسيسته، وإثبات وطأته، سبب له الأمور، وأجرى له المقادير، حتى يبلغ بن النسب المشهور، والأمد المذكور، وإن زياداً منّ الله عليه وعلينا معه بصلة رحم، مدها رحم مقطوعة فوشمت العروق في مناسبها واشتبكت الأرحام في معادنها، فالحمد لله الذي وصل ما قطعه الناس، وألطف لما جفوا عنه، وحفظ ما ضيعوا منه، فقال يونس بن سعيد: خالفت قول النبي صلى الله عليه وسلم: "الولد للفراش وللعاهر الحجر" قال: لقد هممت أن أطير بك طيرة بطيئة وقوعها قال: ثم يكون الرد إلى الله تعالى قال: أجل، أستغفر الله! فقال عبد الرحمن بن الحكم:

ألا أبلغ معاوية بن حرب	مغلغة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفّ	وترضى أن يقال أبوك زان
فأقسم أن رحمك من زياد	كرحم الفيل من ولد الأتان

ومعاوية أول من اتخذ الخصيان لخاص خدمته، وللجاحظ فيه كلام نذكره بعد إن شاء الله تعالى.

أول من أخرج المنبر في العيد مروان: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن الزعفراني، عن محمد بن عبيد، عن الأعمش، عن إسماعيل بن رجاء عن أبيه قال: أول من أخرج المنبر في يوم العيد مروان، فبدأ بالخطبة قبل الصلاة، فقام إليه رجل فقال: خالفت السنة، فأخرجت المنبر و لم يكن يخرج، وبدأت بالخطبة قبل الصلاة، فقال أبو سعيد: من هذا؟ قالوا: فلان ابن فلان. فقال: أما هذا فقد قضى ما عليه، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من رأى منكم منكراً فإن استطاع غيره بيده، وإن لم يستطع فبلسانه،

فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان" .

أول غدر كان في الإسلام: ما كان من أمر عبد الملك بن مروان مع عمرو بن سعيد. أخبرنا أبو احمد عن أبي بكر بن دريد عن عمه عن أبيه عن ابن الكلبي قال: كان مروان بن الحكم ولي العهد عمرو بن سعيد بن العاص بعد أبيه، فقتله عبد الملك، وكان قتله أول غدر في الإسلام فقال بعضهم:

يا قوم لا تقلبوا عن داركم لقد — جربتم الغدر من أبناء مروانا
أمسوا وقد قتلوا عمراً وما رشدوا — يدعون غدراً بعهد الله كيسانا
يقتلون الرجال البزل ضاحية — لكي يولوا أمور الناس ولدانا
تلاعبوا بكتاب الله واتخذوا — هواهم في معاصي الله قربانا
فهدموا ما أطاقوا من مدائننا — ونحن نحسب ذا عدلاً وإحسانا
ويقطعون بنا أعناق سادتنا — ويغلقون بنا أبواب دنيانا

وقال يحيى بن الحكم أخو مروان يرثيه:

أعينيّ جودا بالدموع على عمرو — عشية شدوا بالخلافة بالختر
كأن بني مروان إذ يقتلونه — بغاث من الطير اجتمعن على صقر
غدرتم بعمر يا بني خيط باطل — ومثلكم يبني البيوت على الغدر
فرحنا وراح الشامتون بنعشه — كأنا على أكتافنا فلق الصخر

قال: وكان مروان يلقب بخيط باطل، وكان عمرو يسمى الأشدق لتشادقه في الكلام قال الشاعر:

تشادق حتى مال بالقول شدقه — وكل خطيب لا أبا لك أشدق

وقيل: بل كان أفقم مائل الذقن، ولهذا سمي لطيم الشيطان وهذا هو الصحيح، وخطب ابن الزبير لما قتله عبد الملك فقال: إن أبا الذبان قتل لطيم الشيطان. "وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون" واستنطقه معاوية وهو غلام فقال: إن أول مركب صعب، وإن مع اليوم غداً، وأول الغدر خرق، وقال: إلى من أوصى أبوك بك؟ قال: أوصى إلي و لم يوص بي. وهذا من قول الراجز:

إني إذا ما القوم كانوا أنجيه — واضطرب القوم اضطراب الأرشيّه

وشد فوق بعضهم بالأروية — هناك أوصيني ولا توصي بيّه

أول من نهى عن الأمر بالمعروف: أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن يونس الكريمي، عن أبي عاصم الضحاك عن ابن مخلد، عن أبي خديج عن أبيه قال: خطبنا عبد الملك بن مروان بالمدينة، بعد قتل ابن الزبير، في العام الذي حج فيه، سنة خمس وسبعين فقال: بعد حمد الله والثناء عليه، أما بعد: فلست بالخليفة المستضعف، ولا الخليفة المداهن، ولا الخليفة المأفون، ألا وإن من كان قبلي من الخلفاء كانوا يأكلون ويطعمون من هذه الأموال، ألا وأني لا أداوي أدواء هذه الأمة إلا بالسيف، حتى تستقيم لي، فكأنكم تكلفوننا أعمال المهاجرين الأولين، ولا تعملون مثل أعمالكم، فلن يزدادوا إلا اجتراحاً، ولا تزدادوا إلا عقوبة، حتى حكم السيف بيننا وبينكم، هذا عمرو بن سعيد، قرابته قرابته، وموضعه موضعه، قال برأسه هكذا، فقلنا بسيوفنا هكذا، ألا وإنا نحتمل لكم كل شيء، إلا وثوباً على منبر، أو نصب راية ألا إن الجامعة التي جعلتها في عنق عمرو بن سعيد عندي، والله لا يفعل أحد فعله إلا جعلتها في عنقه، ثم لا أخرج نعشه إلا صعداً، وزاد غيره: والله لا يأمرني أحد بتقوى الله إلا ضربت عنقه. ثم نزل فركب ناقته واخذ بزمامها البهي بن رافع فقال:

فصحت ولا شلت وضرت عدوها يمين هراقت مهجة بن سعيد

أول من نهى الناس عن الكلام بحضرة الخلفاء: أول من فعل ذلك عبد الملك بن مروان، وكان الناس قبله يراجعون الخليفة فيما يقول، ويعترضون عليه فيما يفعل، وأكثروا من ذلك على عثمان، ثم على معاوية، وكان يجري في مجلسه من المنازعات والخصومات ما يجل وصفه، وكان يحتمل ذلك تحلماً وإبقاء على ملكه، فلما صار الأمر إلى عبد الملك، أخذ الناس مأخذ ملوك الأعاجم، فنهاهم عن الكلام بحضرته، والمنازعة في مجلسه، وتوعدهم على مخالفة رسمه في ذلك، وكان يقول: لست بالخليفة المستضعف، يعني عثمان، ولا الخليفة المداهن، يعني معاوية، ولا الخليفة المأفون يعني يزيد.

قلنا: ومن حق مجلس الملك، ألا ترفع فيه الأصوات، إذا كان ذلك زائداً في مهابة الملك وأبهته، ولما كان في حفظ الصوت من بهاء المجلس، وكمال صاحبه، قال الله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي". وحرمة مجلس الرئيس إذا غاب كحرمته إذا حضر. وكان لملوك العجم عيون على مجالسهم، يتأملون من حضرها، فمن كان كلامه وإشارته، وحسن لفظه إذا غاب الملك على مثل ما يكون عليه إذا حضر، سمي ذواجه، ومن كان بخلاف ذلك سمي ذا وجهين وكان مبتغضاً عندهم منقوصاً.

أول خليفة بخل عبد الملك بن مروان: أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن الغلابي، عن محمد بن عبد الله العتبي من ولد عتبة بن أبي سفيان، عن أبي خالد القرشي من ولد أمية بن خالد قال: قال عبد الملك-

وكان أول خليفة بخل- أي الشعراء أفضل؟ فقال له كثير بن هواسة يعرض به: أفضلهم المقنع الكندي حيث يقول:

إني أحرض أهل البخل كلهم	لو كان ينفع أهل البخل تحريضي
ما قل مالي إلا زادني كرماً	حتى يكون برزق الله تعويضي
فالمال ينفع من لولا دراهمه	أمسى يقلب فينا طرف مخفوض
لن يخرج البيض عفواً من أكفهم	إلا على وجع منهم وتمريض
كأنها من جلود الباخلين بها	عند النوائب تجدي بالمقاريض

فقال عبد الملك- وقد عرف ما أراد- الله أصدق من المقنع حيث يقول: "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا" وكان عبد الملك يسمى رشح الحجارة لبخله، ويكنى أبا الذبان لبخره.

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: نظر عبد الملك إلى خالد بن يزيد- وقد شابت عنفقته- كأنك عاض على حجرة فقال: إنهن يلثمن فاي ولا يشممن قفاي، يعرض به أنه أبخر، فالنساء يشممن قفاه دون وجهه، والناس يرون أن أنفاس النساء وأنفاس الطيب تشيب. قال الشاعر:

إنما شيبني الطيب وأنفاس الغواني

وأخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: قال سعيد بن عثمان- و لم يكن بالحصيف- للحسن بن علي عليهما السلام: ما بال أصداغنا تشيب قبل عنافقنا؟ وعنافقكم تشيب قبل أصداغكم؟ فقال: إن أفواهنا عذبة، فنساؤنا لا يكرهن لثامنا، ونساؤكم يكرهن لثامكم، فيصرفن وجوههن، فيتنفسن في أصداغكم.

وكان المنصور في ولد العباس كعبد الملك بن مروان في بني أمية في بخله، ورأى بعضهم عليه قميصاً مرقوعاً فقال: سبحان من ابتلى أبا جعفر بالفقر في ملكه، وأجاز سلمان الحادي بنصف درهم فشتان ما هو والمأمون أو غيره من خلفاء بني العباس سمع مرة بعض ولده يقول لوكيله: قد رأيت في السوق بقلاً حسناً فاشتر لنا منه بنصف درهم، فقال: أما أنك إذا عرفت للدرهم نصفاً، فإنك لا تفلح أبداً، واستعمل الحسن يقاسم المؤمن أخاه درهماً؟ وأنشد ابن هرمة المنصور:

له لحظات من خفافي سريره	إذا كرها فيها عقاب ونائل
فأما الذي أمنت أمنه الردى	وأما الذي حاولت بالثكل ثاكل

فدفع إليه عشرة آلاف درهم، وقال: يا إبراهيم احتفظ بها فليس لك عندنا مثلها، فقال: يا أمير المؤمنين، إني ألقاك بها على الصراط بختم الجهبذ.

أول من ضرب الدراهم في الإسلام وأول ما عملت الأوزان: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن المدائني وأبي عبد الرحمن الثعلبي، وأخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن خالد بن عبد العزيز الثقفي، وعن غير هؤلاء جعلت أحاديثهم حديثاً واحداً، قالوا: كان عبد الملك أول من كتب في صدور الطوامير "قل هو الله أحد" وذكر النبي صلى الله عليه وسلم مع التاريخ، فكتب ملك الروم: إنكم قد أحدثتم في طواميركم شيئاً من ذكر نبيكم، فاتركوه، وإلا أتاكم في دنانيرنا من ذكره ما تكرهون، فعظم ذلك في صدر عبد الملك، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية - وكان أديباً عالماً - فقال: يا أبا هشام، أجدني بباب طبق، قال: أفرج الله روعك يا أمير المؤمنين، حرم دنانيرهم، واضرب للناس سككاً فيها ذكر الله تعالى، وذكر نبيه صلى الله عليه وسلم، ولا تعفهم مما يكرهون، فضرب الدنانير سنة خمس وسبعين، وكانت الدراهم العشرة منها وزن عشرة مثاقيل، والعشرة منها وزن ستة، فتقدم عبد الملك بذلك واستمر.

وضرب الحجاج الدراهم، ونقش فيها: الله أحد، الله الصمد، فكرهها الناس لمكان القرآن فيها، لأن الجنب والحائض يمسها، ونهى أن يطبع أحد غيره، فطبع سمير اليهودي دراهمه السميرية، فضة خالصة وجعل فيها ذهباً، فأتى بها الحجاج وبسمير، فأمر بقتله. فقال: انظر إليها فإن لم تكن أجود من دراهمك فاقتلني، فنظر فوجدها أجود، فأمر بقتله لجرأته على ضربها بغير إذنه، قال: فإني أعرض عليك أمراً إن رأيته أصلح للمسلمين من قتلي قبلته وأعفيتني، قال: هاته، فوضع الأوزان: وزن ألف وخمسمائة، وثلاثمائة، إلى وزن ربع قيراط، فجعلها حديداً ونقشها، وجاء بها الحجاج وقال: هذا أنفع للمسلمين، لا يغبن أحد معها، وكان الناس إنما يأخذون الدرهم الوازن فيزنون به غيره، وأكثر ذلك يؤخذ عدداً، حتى كان من أمر سمير ما كان. أخبرنا هذا الخبر أبو أحمد عن الجوهري عن أبي زيد عن خالد بن عبد العزيز الثقفي عن أشياخه.

أول من شدد في أمر العيار: وأول من شدد في أمر العيار يوسف بن عمر، أمر ألا يضرب درهم بنقص حبة، فما فوقها، ثم امتحن بعد ذلك درهماً، فوجده ينقص حبة، فأمر أن يضرب كل واحد من الضاربين ألف سوط - وكانوا مائة - فضرب في حبة واحدة مائة ألف سوط.

ومما يشبه هذا من فعله أنه أمر أن يتخذ له طنافس فلما عملت، أمر يده عليها، فعلقت بإبهامه عقدة من طنفسة فقطع يد الصانع، وكان مع ذلك يقول في خطبته: اتقوا الله عباد الله، فكم من مؤمل أملاً لا يبلغه، وجامع مالاً لا يأكله، ومانع ما سوف يتركه، ولعله من باطل جمعه، وعن حق منعه، أصابه حراماً،

وورثه عدواً، واحتمل بأصره، وباء بوزره، ذلك هو الخسران المبين.

وكان قصيراً كأنه عقدة رشاء، أو سجة عصا، وكان إذا وصف بالقصر اغتاظ، وكان الخياط إذا قال له: يقنعك هذا الثوب ويحتاج فيه إلى زيادة، فرح وخلع عليه، وإذا فضل من الثوب شيء، أمر بضربه وحبسه، وكان له نديم يقال له عبدان،- وكان من أطول الناس- فقال له: يا عبدان، انا أطول أم أنت؟ قال: فوقعت في محنة تحتها السيف، فقلت: اصلح الله الأمير، أنت أطول مني ظهراً، وأنا أطول منك ساقاً، فضحك وقال: أحسنت.

أول من نقل الديوان من الفارسية إلى العربية: أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن بعض رجاله قال: استكتب زازان فروخ صالح بن عبد الرحمن- وكان من سبي سجستان- فلما ولي الحجاج رأى ذكاء صالح، فقال صالح لزازان: إن الأمير سيقدمني عليك، وأنت سببي فيه، ولست أحب ذلك، فقال: لا بد للأمير مني، إنه لا يجد من يقوم بحساب ديوانه غيري، قال صالح: إنه إن امرني بنقل الديوان إلى العربية فعلت. قال: فانقل بين يدي منه شيئاً، ففعل، فقال: فكسف تصنع بالإضافات؟ قال: أقول أيضاً. فقال زازان لكتابه الفرس: التمسوا مكسباً فقد ذهب مكسبكم. ثم نقل صالح الديوان إلى العربية، فكان كتّاب العراقيين غلمانه وتلامذته.

وكان ديوان الشام إلى سرجون، وكان رومياً نصرانياً، كتب لمعاوية، ولمن بعده إلى عبد الملك، ثم رأى عبد الملك منه توانياً وإدلالاً، فقال لسليمان بن سعد مولى الحسين- وكان على الرسائل- ما أحتمل تسحب سرجون، فقال: أنقل الحساب إلى العربية؟ قال: أو تفعل ذلك؟ قال: نعم. قال: فانقله، فنقله فولاه عبد الملك جميع دواوين الشام، فكان عليها حتى أيام عمر بن عبد العزيز، فعزله واسكتب صالح بن كثير الصدائي. هذا معنى الحديث، وعبد الملك أول من رفع يديه على المنبر.

أول من أخذ الجار بالجار والولي بالولي مروان بن الحكم: هكذا سمعناه، ولا ندري أكان ذلك أيام خلافته أو إمارته. ذكر بعض الشيوخ مروان بأبيه فجلده وتمثل:

جانيك من يجني عليك وقد تعدى الصحاح مبارك الجرب

فقال فتى: ما هكذا قال الله تعالى، قال: " ولا تزر وازرة وزر أخرى" فرق له وخلاه.

ومن مليح ما جاء في ذلك، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الريان، عن أبي جعفر بن العيني، عن أبيه قال: أول خليفة أخذ الجار بالجار والولي بالولي سليمان بن عبد الملك، قال: دخل عليه فتى ظريف، وعلى رأس سليمان وصيفة حسناء قائمة، فجعل الفتى يديم النظر إليها، فقال سليمان: هات سبعة أمثال قيلت في

الأست وهي لك، فقال الفتى: أست لم تعود المحجرة، قال: واحدة، قال: أستي أختي، قال: اثنان، قال: أست المسؤول أضيق، قال: ثلاثة، قال: أست العامر أعلم، قال: أربعة، قال: منّ الله عليه وأسته، قال: خمسة، قال: الحر يعطي العبد بنجع أسته، قال: ستة، قال: لا مالك أبقيت، ولا حرك أنقيت، قال: ليس هذا من ذلك، قال التنى: أخذت الجار بالجار كما يفعل أمير المؤمنين، قال: خذها- لا بارك الله لك فيها ! وروي هذا الحديث أيضاً عن بعض شيوخه عن ابن الأعرابي.

أول من لبس النعال الصوارة المرواني: وكان قصيراً، وكان يتخذ الغلاظ من النعال النباتية لأمرين: أحدهما أن ذلك يزيد في قامته، والآخر أن يؤذن جواره وحرمه بصريرها أوان دخوله عليهن، فإن كانت إحداهن على حالة لا يجوز أن يطلع عليها تغيرت عنها، وكان ذلك من الآداب المستحسنة، فاتخذ أهل الوقت بعد ذلك نعال الخشب، يتوخون بها ما توخاه المرواني بالنعال الصوارة.

أول من رد فدكا عمر بن عبد العزيز: أخبرنا أبو أحمد، عن محمد بن زكريا، عن ابن عائشة، وعن أبيه عن عمه قال: شهد علي وأم أيمن عند أبي بكر رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهب فدكاً لفاطمة، وشهد عمر وعبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها، فقال أبو بكر: صدقوا وصدقت، كان مالاً لأبيك، وكان يأخذ منها قوته ويقسم الباقي، فما تصنعين بها؟ قالت: صنيع أبي، قال: فلك عليّ أن أصنع فيها صنيع أبيك عليه الصلاة والسلام، فكان يدفع إليهم ما يكفيهم، ويقسم الباقي، وكذلك فعل عمر وعثمان وعليّ، فلما ولي معاوية- وذلك بعد الحسن- تداولوها حتى ولي مروان، فوهبها لعبد العزيز بن مروان، فتخلصها عمر ابنه في حياة أبيه، فلما ولي كانت أول مظلمة ردها على بني عليّ عليه السلام، ثم قبضها يزيد بن عبد الملك، فلما ولي أبو العباس ردها إلى عبد الله بن الحسن، ثم قبضها أبو جعفر، ثم ردها المهدي على ولد فاطمة، ثم قبضها موسى وهارون، ثم ردها عليهم المأمون.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن محمد بن زكريا، عن مهدي بن سابق قال: جلس المأمون للمظالم، وأول رقعة وقعت في يده نظر فيها وبكى، ثم قال: أين وكيل فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقام شيخ وعليه دراعة وعمامة وخف ثغري، فتقدم فجعل يناظره في فدك، والمأمون يحتج عليه وهو يحتج على المأمون، ثم أمر أن يسجل بها لهم فسجل وأمضاه المأمون، فأنشأ دعبل يقول:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا ... برد مأمون هاشم فدكا

فلم تزل في أيديهم حتى كان أيام المتوكل، فأقطعها عبد الله بن عمر الباريار، وكان فيها إحدى عشرة نخلة مما غرسه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، وكان آل ابي طالب يأخذون ذلك الثمر، فإذا قدم الحجاج أهدوا إليهم منه، فيصل إليهم به مال جليل، فبلغ المتوكل ذلك، فأمر عبد الله بن عمر بصرمه وبعصره، فوجه رجلاً يقال له بشر بن أمية الثقفي، فصرمه وعصره، وذكروا أنه جعله نبيذاً، فكما وصل إلى البصرة حتى ملح، وقتل المتوكل.

أول من لبس السواد حين قتل مروان بن محمد، إبراهيم بن محمد الإمام: جيء به مروان فقال: أنت الذي تدعي لك الأمامة؟ قال: لست به، فقال: أسوة بمن في الحبس من بني أبيه، وكان فيه جماعة من قريش، فلما أحس إبراهيم بالقتل، عهد إلى شيعته، أن لا يهولنكم قتلي، وكونوا على ما انتم عليه من تضافركم، وتعاونكم، فإذا تمكنتم من أمركم، فاستخلفوا عليكم ابن الحارثية- يعني أبا العباس- ثم قتله مروان، فلبس شيعته السواد، فلزمهم وصار شعاراً لهم، فقال شريف منهم أيام أبي العباس، يذكر قتل إبراهيم:

علام وفيم يترك عبد شمس — لها في كل داعية ثغاء

فما بالقبر في حران منها — ولو قتلت بأجمعها وفاء

أخبرنا أبو أحمد عن عمه عن أبي عبيدة قال: حدثني الحسن بن علي قال: حدثني بعض أصحابنا، عن محمد بن أبي كامل، عن رجل قال: قال إبراهيم بن المهدي، كنت عند الخيزران يوماً وعندها الهاشميات وغيرهن، وهي على أنماط عليها وسائد أرمنية، وزينب بنت سليمان جالسة عن يمينها، إذ عرضت امرأة من آخر المجلس، عليها أطمار فقالت: يا أم الخليفة الأول والثاني، وامرأة الخليفة، أنا امرأة مروان بن محمد، قد أصار بي الدهر إلى ما ترين، فغيري من حالي، فرقت لها، وهمت لها بالخير، فقالت لها زينب بنت سليمان: لا زلت كذلك، ولا زالت هي حالك، ولا كرامة لك، اذكري وقد قتل مروان إبراهيم الإمام، وأشفقت أن يمثل به، فأتيت هذه وهي جالسة على هذا الفرس بعينه، فكلمتها تسأله في هبة جثته لي لأواريها، فقطبت وجهها وقالت: ما للنساء وللدخول في أمر الرجال، فأيست وترضت لمروان، فكان أوصل لرحمه، فدفعه إليّ وأعانني على جهازه، فجهزته ودفنته.

أول من ظهر لندمائه من ملوك بني العباس المهدي: أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن يحيى بن عليّ، عن أبيه، عن إسحاق الموصلي قال: كان المهدي في أول أمره يحتجب على ندمائه، متشبهاً بالمنصور نحواً من سنة، ثم ظهر لهم لما قال مسلم الخاسر:

من راقب الناس مات غماً — وفاز باللذة الجسور

فأشار إليه أبو عون أن يحتجب عنهم فقال: إليك عني يا جاهل إنما اللذة مع مشاهدتها، وفي إدراك الجوارح لها لذة، فأما من وراء الحجاب فما له معنى. وكان بشار قال:

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

فلما سمع بيت مسلم قال: ذهب ابن الفاعلة ببيتي. ومن ها هنا أخذ أبو نواس قوله:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر ولا تسقني سراً إذا أمكن الجهر

وبخ باسم من أهوى ودعني من الكنى فلا خير في اللذات من دونها ستر

وهذا أشأم بيت قيل، وكان سبب زوال ملك محمد الأمين وقتله هذا البيت. لما اتصل بالمأمون أمر منادياً فنادى به في بلاد خراسان وقال: قائل هذا البيت ينادم محمداً، ويقول مثل هذا بحضرته، فلا يكون منه نكير، فاشتد أهل خراسان على محمد، واستحلوا قتله، واتصل ذلك بمحمد فحبس أبا نواس، وأنكر عليه.

وكان أبو العباس يظهر لندمائه في أول خلافته، ثم قال له أسد بن عبد الله الخزاعي- وكان صاحب حرسه- إن الخلافة ترق على كل شيء، والبذلة فيها أكبر الخطأ، فاحتجب عنهم بستارة، وكان لا ينصرف عنه نديم، ولا مله في كل يوم يجلس لهم فيه غلا بعطاء كثير أو قليل، وهذه فضيلة لم تكن لعربي ولا عجمي قبله ولا بعده إلا أنوشروان، فقد حكي عنه مثل ذلك، وكان يقول: أعجب من إنسان يفرحه إنسان ويمكنه مكافأته فيؤخرها ويجعلها عدة وتسويفاً، فيتكدر صفوها، وينطمس نورها.

والمهدي أول من علق الخيس، وذلك أنه جلس إلى جنب حائط عليه منديل رطب، فوجد برده، فأمر باتخاذ الخيس، وكان ملوك بني أمية يعدون تطيين البيوت التي يبردون فيها أشهر الصيف مرات في الأسبوع.

قال الجاحظ: هذه ملوك نزلوا على دجلة، من دون الصيادة إلى قرية بغداد في القصور والبساتين، وكانوا أصحاب نظر واستخراج، من لدن أزدشير بن بابك إلى زمن فيروز بن يزدجرد، وقبل ذلك أيضاً ما كان نزلها ملوك الأزدوان بعد ملك الاسكندر، فهل رأيتم أحداً منهم اتخذ حراقة أو دلالة أو قارباً؟ وهل عرفوا الخيس مع حر البلاد وشدة وقوع السموم؟ وهل عرفوا الجمازات في أسفارهم؟ وهل عرف فلاحوهم من الأثمار المطعمة، وغراس النخل على الفرد دون الشطر؟ وأين كانوا في تزيين سقوفهم بالرديات؟ وأين كانوا عن استنباط قهوة العصفر؟ وأين كانوا عن مراكب الأمم في ممارسة العدو في البحر؟ إن طلبت النوازح أدركتها، وإن كرهتها فاتتها، بعد أن كانوا أسارى في يد الهند، تتحكم عليهم، وتتلعب بهم، وأين كانوا عن الرمي بالنيران؟ وكانوا يتخذون الأدهان، وينفقون عليها، فترى الرجال رسم العمائم،

وسخ القلانس، وكان الرجل إذا مر بالعطار، وأراد كرامته دهن رأسه ولحيته، وكان الرجل من عوام الناس إذا أطعم ضيفاً أو زائراً كسر الخبز بين يديه، كي لا يحتشم من أكل الكثير، وكان أهل البيت إذا طبخوا اللحم غرفوا للجار والجارة منه غرفة، وكان الناس لا يغسلون أيديهم للطعام قبله كما كانوا يغسلونها بعده، ثم اتخذوا الموائد السفر وبسطوا اللبود على وجوه البسط الكريمة، وكانوا يستخدمون في منازلهم الرجال الشباب، والوصائف الرومية، من الكواعب والنواهد. فاستحدثوا الخصيان والغلمان بدلاً من الجواري، وكان خوان أحدهم طسموان، فاستبدلوا الخلنج بالصفر، وجعلوا الصفر الطاس والأباريق، وكانت المرأة إذا خرجت شدت رأسها بالرمائد- والرمائد على زي نساء العرب اليوم- وكانوا يلبسون القمص على الجلباب، لا يعرفون المبطنات، فترى القميص متقلصاً عن جبة الراكب، واتخذوا المرفلات، وشربوا الثلج، وأحصوا ما وجدوا في ديوان الفرس من أسماء غريبة، فلم يجدوه على عشر العشر مما استخرج بعد، وكانوا يأتون الصين في سنة ويرجعون في سنة، ويقيمون سنة، وقد رجع إلى البصرة رجال لم يتم لهم أن يغيبوا ثمانية عشر شهراً، وكانوا يلبسون الديباج، فجعله هؤلاء أفيفاً لدوابهم، وكان الكتاب إذا كتبوا وفرغوا من الرسائل قطعوا الكاغد بالمقاريض، ثم حددوا أظفار الإبهام فقطعوه به، ثم قطعوه بمواخر الأقلام، وهذه خطوط الأول في المصاحف والسجلات والعهود، وهذه خطوط الناس اليوم.

وكانوا يشربون في جامات الذهب والفضة، وقد عرف الناس فضيلة الزجاج في خفة المحمل، وفي إدراء ما وراءها من الأشخاص؟

قال أبو هلال:- أيده الله- يريد أن عمل الحراقات والدلالات، وصب الزردج، واستخراج النساسخ، وتعليق الخيوش ، وعمل الرديات، إنما كان في الإسلام، وكذلك أجزاء السفن القيرة في البحر.

أول من زاد في الكتابة بعد حمد الله الصلاة على رسول الله هارون الرشيد: كان إذا كتب فأتى أحمد الله إليك كتب: وأسأله أن يصلي على محمد وآله، قالوا: وكان ذلك من أفضل مناقبه، وكان الرشيد كاتباً شاعراً، خطيباً.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبيه، عن عسل قال: كانت على الروم امرأة منهم، وكانت تلاطف الرشيد، ولها ابن صغير، فلما نشأ فوضت الأمر إليه، فعاث وأفسد وخاشن الرشيد، فخافت على ملك الروم فقتلته، فغضب الروم، فخرج عليها يقفور فقتلها، واستولى على الملك، وكتب إلى الرشيد، أما بعد؛ فإن هذه وضعتك موضع الشاة، ووضعت نفسها موضع الرخ، وينبغي أن تعلم أني أنا الشاة وأنت الرخ، فأدّ إليّ ما كانت المرأة تؤدي إليك، فلما قرأ الكتاب قال للكتاب: أجيبوا عنه، فأتوا بما لم يرتضه، فكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى يقفور كلب الروم، أما بعد: فقد فهمت كتابك، والجواب ما تراه لا ما تسمعه، والسلام على من اتبع الهدى.

ثم خرج في جمع لا يسمع مثله، فتوغل في بلاد الروم، يقتل ويسبي ثم أوقد يقفور في طريقه ناراً ليصده بها، فخاضها محمد بن يزيد الشيباني، وتبعه الناس حتى صاروا من ورائها، فرأى يقفور أنه لا قبل له به، فصالحه على الجزية يؤديها عن رأسه، وعن سائر أهل مملكته، فقال أبو العتاهية:

تسقي إمام الهدى أصبحت بالدين معنيا　　وأصبحت تيقي كل مستمطر ريّا

قضى الله أن صفى لهارون ملكه　　وكان قضاء الله في الخلق مقضيا

تحلبت الدنيا لهارون بالرضا　　وأصبح يقفور لهارون ذمّيا

فلما سقط الثلج أمن يقفور على نفسه فنقض العهد، فلم يجرؤ أحد أن يذكر ذلك للرشيد إلا شاعر من أهل جده، أعطاه يحيى بن خالد مائة ألف درهم، ودخل عليه وأنشده:

نقض الذي أعطيته يقفور　　فعليه دائرة البوار تدور

أبشر أمير المؤمنين فإنه　　فتح أتاك من الإله كبير

فلقد تباشرت الرعية إذ أتى　　بالنقض منه وافد وبشير

أعطاه جزيته وطأطأ خده　　حذر الصوارم والردى محذور

إن الإمام على اقتسارك قادر　　قربت ديارك أو نأت بك دور

فقال الرشيد: أو فعلها؟ ورحل في بقية الثلج، وأقام على هرقلة يرمي حصنها بالنيران حتى افتتحها فقال بعضهم:

هوت هرقلة لما أن رأت عجبا　　جواثماً ترتمي بالنفط والقار

كأن نيراننا في جنب قلعتهم　　مصقلات على أرسان قصار

فعاد يقفور إلى الجزية، ورجع الرشيد.

وأما ما جاء في خطابته: فأخبرنا أحمد عن الصولي عن الحسين بن يحيى، عن محمد بن عمر والدومي قال: كان الرشيد ربما خطب مرتجلاً من غير أن يعد كلاماً، فصعد يوماً المنبر، وقد شغب الجند، ثم سكنوا بعد إيقاع بهم، فقال: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد والملائكة المقربين، وعلى الأنبياء أجمعين، أما بعد: فقد كان لكم ذنب، ولنا عتب، وكان منكم إجرام، ومنا انتقام وعندي بعد هذا لكم التنفيس عن المكروبين، والتفريج عن المغمومين، والإحسان إلى المحسنين، والتعمد لإساءة المسيئين، ألا يكفر لكم بلاء، ولا يحبس عنكم عطاء، وعليّ بعد ذلك الوفاء إن شاء الله.

وأما الشعر فطبقته فيه عالية، أنشدنا أبو أحمد عن الصولي للرشيد:

وإذا نظرت إلى محاسنها	فبكل موضع نظرة نبل
وتنال منك بحد مقلتها	ما لا ينال بحده النصل
شغلتك وهي لكل ذي بصر	لاقى محاسن وجهها شغل
فلقلبها حلم يباعدها	عن ذي الهوى ولطرفها جهل
ولوجهها من وجهها قمر	ولعينها من عينها كحل

وقل ما تسمع شعراً يشبه هذا الشعر.

أول من دعى إلى بيعته على المنبر محمد الأمين: أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن يحيى قال: كانت العرب تسمي مواضع أرصاد السلطان مسالح من السلاح، فكره المأمون هذا الاسم فسماها مصالح من المصلحة ثم أنشد:

تذكرتها وهنا وقد صال دونها	قرى أذربيجان المسالح والخالي

يعني الذي خلى عن بلاده إلى هذا الموضع.

واستبقاء المأمون إبراهيم المهدي فعلة لم يسبقه إليها أحد من الأولين والآخرين، وذلك أنه استبقاه بعد وثوبه على الخلافة، وبيعة الناس له بها، وعادة الملوك إذا ظفروا بمن ينازعهم الملك أن يقتلوه.

كان المأمون قد ولّى علي بن موسى الرضا العهد بعده، فغضبت بنو العباس، فخلعوه، وبايعوا إبراهيم بن المهدي في محرم سنة اثنين وثمانين، فحارب الحسن بن سهل إبراهيم فهزمه، والمأمون بخراسان، فلما قدم بعد أن ظفر بإبراهيم قال له: قد استشرت في أمرك فأشير عليّ بدمك، فقال: إن المشير أشار عليك بما جرت به عادة السياسة، إلا أنك أبيت أن تطلب النصر إلا من حيث عودته، من العفو، فإن عاقبت فلك نظير، وإن عفوت فلا نظير لك، وإن جرمي أعظم من أن أنطق فيه بعذر، وعفو أمير المؤمنين أجل من أن يقابل بشكر، وإن لي لشفعة الإقرار بالذنب، وحق العمومة بعد الأب، فلا يسقط عن كرمك عملك، ولا يقع دون عفوك عندك، فقال المأمون: لو لم يكن من حق نسبك الصفح عنك ما بلغك أملك حسن تنصلك، ولطف توسلك.

روى جعفر بن قدان بن زياد الكاتب عن سارية الكبيرة قالت: قال إبراهيم بن المهدي: لما قدم المأمون مدينة السلام من خراسان، أمن الناس غيري، فتواريت فاحتللت احتلالاً شديداً، فقالت لي عجوز من الأزد:- كانت تخدمني- سأحتال لك في أن يصل إليك مال، فركبت زورقاً، فلما حازت المأمون في قصره على دجلة صاحت: النصيحة فأمر بها فأدخلت إليه، فقالت: إن دللتك يا أمير المؤمنين على إبراهيم

بن المهدي فما تجعل لي؟ قال: مائة ألف درهم. قالت: وجه معي رسولاً، ومره أن يطيعني في جميع أمره، وادفع إليه ألف دينار، ومره أن يدفعها إليّ حين أريه وجه إبراهيم، فوجه المأمون معها حسين الخادم، ودفع إليه الدنانير، وأمره بما قالت، فجاءت بالحسين حتى دخلت به مسجداً فيه صندوق عظيم، فقالت له: أدخل هذا الصندوق. فتأبى، فقالت: ألم يأمرك أمير المؤمنين بطاعتي؟ وإن لم تفعل انصرفت، و لم يتهيأ ما يريد إلا بهذا، فدخل الحسين الصندوق، فأتت بحمال فحمله، فجعلت تطوف به في الأسواق
والشطوط، فمرة يسمع صوت الباعة، ومرة يسمع صوت الملاحين، فلما أظلم الليل أدخلته داراً، وفتحت عنه، وإذا مجلس عظيم في صدره إبراهيم بن المهدي يشرب، وبين يديه جوار يغنينه، فانكب حسين على رجل إبراهيم فقبلها، وسأله إبراهيم عنه وعن المأمون، وتناولت المرأة منه الدنانير، وقال له إبراهيم: كل عندي لقمة، واشرب قدحاً، وتحمل عني رسالة، وامض محفوظاً، قال: أفعل. وقدم إليه طعاماً فأكل، ثم سقي شراباً فيه ببخ، فشربه فسكر وأدخل الصندوق، وأقفل عليه، وحمل حتى أتي به باب العامة فوضع، فلما أصبح النلس رأوا الصندوق وليس معه أحد، فانهوا خبره إلى صاحب الحرس، وكتب في الخبر إلى المأمون، فأحضر وفتح، وإذا الحسين متلوث مسلوت، فعولج حتى أفاق فقال المأمون: أرأيت إبراهيم؟ قال له: أي والله. قال: أين هو؟ قال: لا أدري. وحدثه بالقصة. فقال المأمون: خدعتنا والله، وذهب المال فقال إبراهيم: فتفرجت بالألف مدة مديدة.

أول من اتخذ الأتراك المنصور: اخبرنا أبو احمد، عن الصولي، قال: حدثنا ثمود بن المزرع قال: حدثنا الجاحظ قال: أول من اتخذ الأتراك المنصور، اتخذ حماداً التركي، ثم اتخذ المهدي مبارك التركي، وتوليا التركي، وهو الذي قتل الوليد بن طريف الخارجي مع يزيد بن مزيد.

وأما الخصيان فذكر الجاحظ انهم اتخذوا في الإسلام.

أول كتاب صدر من ملوك بني العباس فيه شعر: أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن القاسم عن إسماعيل قال: وثب أهل حمص بعاملهم على المعونة موسى بن إبراهيم بن البغيث الرافقي - وكان قتل رجلاً من رؤسائهم - وأخرجوه ثم وثبوا على محمد بن عبدوية - وكان وليهم بعد ابن البغيث - وأمر المتوكل إبراهيم بن العباس أن يكتب إليهم كتاباً مختصراً يحذرهم فيه فكتب:

أما بعد: فإن أمير المؤمنين يرى من حق الله عليه، فيما قوّم به من أود، أو عدل به من ريع، أو لمّ به من شعث، استعمال ثلاث يقدم بعضهن على بعض: أولهن ما يستظهر به من عظمة وحجة، وما يشفعه من تحذير وتنبيه، ثم التي لا تقع بحسم الداء غيرها.

أناة فإن لم تغن عقب بعدها   وعيداً فإن لم تجد أجدت عزائمه

وكان إبراهيم ابتدأه كلاماً، فرآه يتزن، فجعله بيتاً، هكذا رواه لنا عن الصولي، وروي لنا أيضاً عنه عن محمد بن زكريا الغلابي، عن مهدي بن سابق قال: كتب رافع إلى الرشيد كتاباً في أسفله:

إذا جئت عاراً أو رضيت بمثله　　　فنفسي على نفسي من الكلب أهون

فكتب إليه الرشيد كتاباً في أسفله:

ورفعك نفساً طالباً فوق قدرها　　　يسوق لك الحيف المعجل والذلا

أول من أخر النيروز المتوكل: أخبرنا أبو أحمد الصولي، عن يحيى بن علي، عن أبيه، وأحمد بن يزيد عن أبيه قال: سمعت إبراهيم بن المدبر يحدث بطرف منه قال: بينا المتوكل يطوف في متصيد له، رأى زرعاً أخضر فقال: قد استأذنني عبد الله بن يحيى في فتح الخراج، وارى الزرع أخضر، فقيل له: إن هذا قد أضر بالناس، فهم يقترضون ويستسلفون، فقال: أهذا شيء حدث أم هو لم يزل كذا؟ فقيل له: هو حادث. ثم عرف أن الشمس تقطع الفلك في ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وأن الروم تكبس في كل أربع سنين يوماً، فيطرحون من العدد، فيجعلون شباط ثلاث سنين متواليات ثمانية وعشرين يوماً، وفي السنة الرابعة- وهي التي تسمى الكبيسة- يكمل من ذلك الربع يوم تام، فيصير شباط تسعة وعشرين يوماً. وكانت الفرس تكبس الفصل الذي بين سنتها وبين سنة الشمس في كل مائة وست عشرة سنة شهراً، وهذا الكبس في طوله اصح من كبس الروم، لأنه أقرب إلى ما يحصله الحساب من الفصل في سنة الشمس، فلما جاء الإسلام عطل ذلك و لم يعمل به، فأضر بالناس ذلك، وجاء زمن هشام، فاجتمع الدهاقنة إلى خالد بن عبد الله القسري، فشرحوا له، وسألوه أن يؤخر النيروز شهراً، فكتب إلى هشام بن عبد الملك- وهو الخليفة- فقال هشام: أخاف أن يكون ذلك من قول الله تعالى: "إنما النسيء زيادة في الكفر" فلما كان أيام الرشيد، اجتمعوا إلى يحيى بن خالد البرمكي وسألوه أن يؤخر النيروز نحو شهر، فعزم على ذلك، فتكلم أعداؤه فيه، وقالوا: يتعصب للمجوسية، فأضرب عنه، وبقي على ذلك إلى اليوم. وأحضر المتوكل إبراهيم بن العباس، وأمره أن يكتب عنه كتاباً في تأخير النيروز بعد أن يحسبوا الأيام، فوقع العزم على تأخيره إلى سبعة وعشرين يوماً من حزيران، فكتب الكتاب على ذلك، وهو كتاب مشهور في رسائل إبراهيم.

وإنما احتدى المتوكل بالله ما فعله المتوكل إلا أنه قد قصره في أحد عشر يوماً من حزيران، فقال البحتري يمدح المتوكل ويذكر تأخير النيروز:

لك في المجد أول وأخير　　　ومساع صغيرهن كبير

إن يوم النيروز عاد إلى العهد　　　الذي كان سنه أزدشير

أنت حولته إلى الحالة الأولى	وقد كان جائراً يستدير
وافتتحت الخراج فيه فللأم	ة في ذاك مشهد مذكور

قال أحمد بن يحيى البلاذري: حضرت مجلس المتوكل وإبراهيم بن العباس يقرأ الكتاب الذي أنشأه في تاخير النيروز والمتوكل يعجب من حسن عبارته، ولطف معانيه والجماعة تشهد له بذلك فدخلتني نفاسة، فقلت: يا أمير المؤمنين في هذا الكتاب خطأ، فأعادوا النظر، فقالوا: ما نراه، فما في هو؟ فقلت: أرّخ السنة الفارسية بالليالي، والعجم تؤرخ بالأيام، واليوم عندهم أربعة وعشرون ساعة، يشتمل على الليل والنهار، وهو جزء من ثلاثين جزءاً من الشهر، والعرب تؤرخ بالليل لأن سنتهم وشهورهم قمرية، وابتداء رؤية الأهلة بالليل، قال: فشهدوا بصحة ما قلت، واعترف به إبراهيم، وقال: ليس هذا من علمي، فخف عني ما دخلني من النفاسة، ثم قتل المتوكل قبل دخول السنة الجديدة، وولي المنتصر واحتيج إلى المال، وطولب به الناس على الرسم الأول، وانتقص ما رسمه المتوكل، فلم يعمل به حتى ولي المعتضد، فقال ليحيى بن علي المنجم: قد كثر ضجيج الناس من أمر الخراج، فكيف جعلت الفرس مع حكمتها، وحسن سيرتها، افتتاح الخراج في وقت لا يتمكن الناس من أداء الخراج فيه، قال: فشرحت له أمره وقلت: ينبغي أن يرد إلى وقته، ويلزم يوماً من ايام الروم، ولا يقع منه تغيير، فقال: إلق عبد الله بن سليمان، فوافقه على ذلك، فوافقه وحسبنا حسابه، فوقع في اليوم الحادي عشر من حزيران، فأحكم أمره على ذلك، وأثبت في الدواوين. وكان النيروز الفارسي في وقت نقل المعتضد له يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من صفر سنة اثنتين وثمانين ومائتين، ومن شهور الروم الحادي عشر من نيسان، وأخره حسب ما أوجبه الكبس ستين يوماً حتى رجع إلى وقته الذي كانت الفرس ترده إليه، وكان قد مضى لذلك مائتان واثنتان وثلاثون سنة فارسية، تكون من سني العرب مائتين وتسعاً وثلاثين سنة وبضعة عشر يوماً، ووقع بعد التأخير يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة اثنتين ومائتين ومن شهور الروم الحادي عشر من حزيران.

أول من أمر أهل الذمة بتغيير زيهم المتوكل: أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: أمر المتوكل أهل الذمة أن يلبسوا العسلي، وأن تكون ركبهم حصناً وأن يجعل على مقدمة السرج زر، وكذلك على مؤخره، وعلى القلنسوة مثله، وعلى الدراريع رقاع من قدام ومن خلف، وعلى أبوابهم صور من خشب.

وأمر ألا يستعان بهم، فاسلم لهذا السبب جماعة منهم: أبو نوح عيسى بن إبراهيم، وقدامة بن زياد، والهيثم بن خالد كاتب الوزير.

الباب السادس

في ما جاء من ذلك عن الأمراء والوزراء والجلساء

أول الأمراء على مكة: عتاب بن أسيد، ولاه النبي صلى الله عليه وسلم حين صدر عن حجة الوداع.
أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن أبي الحسن، عن رجاله قالوا: لما توفي النبي صلى الله عليه وسلم، ارتدت العرب، وكان عتاب بن أسيد بمكة، استعمله النبي عليها، فخاف أن يرتد أهلها، فبدر إليه منهم بادرة، فنزل من شعابها، فجاء سهيل بن عمرو فأخرجه إلى المسجد، وخطب الناس فقال: إن يكن محمد قد مات، فإن الله حي لا يموت، وقد علمتم أن أكثركم قتباً في بر، وجارية في بحر، فقروا على أمركم، وأدوا زكاتكم، وأنا ضامن إن لم يتم هذا الأمر أن أردها عليكم، فإني والله أعلم أن هذا الأمر سيمتد كامتداد الشمس من طلوعها إلى غروبها، قالوا: وإني علمت ذلك؟ قال: إنا رأينا رجلاً وحيداً جريداً فريداً، لا مال ولا عز ولا عدد، قام في ظل هذه الكعبة فقال: أنا رسول الله إليكم، فكنا بين هازل وضاحك، ومستجهل وراحم، فلم يزل أمره ينمو ويتصاعد، حتى دنا له طوعاً أو كرهاً، ولو كان من عند غير الله، لكان كالكرة في يد بعض سفهائكم، فبلغ أبا بكر قوله فشكر له.
أول الأمراء على المدينة: سهل بن حنيف، وولاه علي عليه السلام حين خرج إلى البصرة لقتال أصحاب الجمل، فلما قتل حكيم بن جبلة، وأريد قتل عثمان بن حنيف قال: إن أخي سهلاً والي علي على المدينة، ولو قتلتموني لانتصر من ذريتكم، فخلوا سبيله.

أول الأمراء على مصر: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي عن أبي جعفر، عن المدائني، عن عمرو بن هشام القرشي ومحمد بن عمرو بن شعيب عن أبيه، وعن غير هؤلاء قالوا: كتب عمر رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص، سنة تسع عشرة، يأمره بالمسير إلى مصر، فأتاه الكتاب وهو محاصر قيسارية فسار في شعبان، في ثلاثة آلاف وسبعمائة، حتى نزل العواصم، فقال رجل من القبط: عجبت لهؤلاء، يدخلون مصر في هذه العدة وهذا العدد وبها عساكر يتبعها عساكر، فقال صاحب له: لا يقصد هؤلاء أحداً إلا قتلوه، ولا ينزلون حصناً إلا فتحوه، حتى يقتلوا خيرهم، فإذا فعلوا ذلك، اختلفوا وضعف أمرهم، وسار عمرو: حتى أتى غزة، فبعث ملكها: أن أرسل إليّ رجلاً من أصحابك أكلمه، فقال عمرو: ماله أحد غيري، فدخل المدينة، فسمع منه كلاماً لم يكن بمثله له عهد، فقال: هل في أصحابك مثلك؟ قال: لا تسأل عن هواني عليهم، وإنما بعثوني إليك وقالوا: لو نزل به حاذر، كان نزل بأهوننا، فأمر له بجائزة وكسوة وبعث إلى البواب، إذا مر بك فاضرب عنقه، وخذ ما معه، فلما خرج لقيه نصراني من غسان، فقال له: يا عمرو قد

أحسنت الدخول، فأحسن الخروج، فنبهه، فرجع إلى الملك فقال: قد نظرت إلى ما أعطيتني فوجدته لا يسع بني عمي، فأردت أن أجيئك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية، وتكسوهم هذه الكسوة، فيكون معروفك عند عشرة، فقال: مرحباً بهم، عجل بهم، وبعث إلى البواب أن خل سبيله، فمر عمرو يتلفت حتى أمن، وندم على ما فعل و لم يفارقه حتى صالحه، فلما أتي به إلى عمرو قال: وأنت هو؟ قال: نعم؟ على ما كان من غدرك.

وسار حتى أتى فسطاط- وقد خندق أهلها- فأقام عليهم، وقدم الزبير بن العوام في خمسة آلاف، وقال: جئت أميراً على الجماعة. فقال عمرو بن العاص: بل جئت مدداً، ثم اتفقا أن يكون كل واحد منهما أميراً على أصحابه، وخرج المشركون فهزمهم المسلمون، ودخلوا حصنهم فحاصروهم، وقال الزبير: ما تطاول قوماً في ديارهم ، يأتيهم أمدادهم، ووضع سلماً على الحصن وصعد، وصعد الناس ففتحوه عنوة، وقيل: بل فتحوه صلحاً على كل رأس دينار، ولكل رجل من المسلمين جبة صوف، وبرنس وعمامة وخفان، ولهم الاتباع نساؤهم وأولادهم، وذلك سنة عشرين. فأقام عمرو بها أميراً أربع سنين، ثم اجتمع العدو بين مصر والإسكندرية، فسار إليهم عمرو في عشرة آلاف، على مقدمة شريك بن سحماء في ألفين، فانهزم الأعداء ودخلوا الإسكندرية، فحاصروها ثلاثة اشهر، فكادوه، فأقاموا النساء على الحصن، ناشرات شعورهن، ووجوههن إلى المدينة، عليهن السلاح، والرجال مقبلون عليه يقاتلونه، يخوفونه بكثرة العدد، فناداهم عمرو فقال: إن كان فيكم رجل مستجاب الدعوة، فسلوه أن يدعو الله تعالى أن يسلطكم علينا فتقتلونا، فإن الآخرة خير لنا من الدنيا.

فتعجبوا وقالوا: من يطيق قوماً راحتهم عندهم القتل؟ وقالوا ليس لنا إلا أن نصالحهم على ثلاثة عشر ألف دينار،- على كل حا لم دينار- وقيل ديناران، على أن يخرج منهم من شاء إلى الروم، ويقيم من شاء منهم بالإسكندرية.

أول الأمراء على البصرة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني. وأخبرنا غيره قالوا: كتب قطنة بن قيادة- وهو أول من أغار على السواد من ناحية البصرة- إلى عمر رضي الله عنه أنه لو كان معه عدد ظفر بمن في ناحيته من العجم، فبعث عمر عتبة بن غزوان أحد بني مازن بن منصور في ثلاثمائة، وانضاف إليه في الطريق نحو مائتي رجل، فنزل أقصى البر- حيث يسمع نقيق الضفادع- وكان عمر يقدم إليه بذلك، فكتب إلى عمر أنا نزلنا بأرض فيها حجارة بيض. فقال عمر: الزموها فإنها أرض بصرة. فسميت بذلك، ثم سار إلى الأيلة فخرج إليه مرزبانها في خمسمائة أسوار فهزمهم عتبة ودخلوا البلد، وأقام عتبة عليها حتى فتحها في شعبان سنة أربع عشرة وقالوا: في رجب، وأصاب المسلمون

سلاحاً وطعاماً ومتاعاً، وكانوا يأكلون الخبز، وينظرون إلى أيديهم، هل سمنوا؟ أو أصابوا براني فيها جوز فظنوه حجارة، فلما ذاقوه استطابوه، ووجدوا صحناة فقالوا: ما كنا نظن العجم تدخر العذرة، وأصاب رجل سراويل فلم يحسن لبسها فرماها وقال: أخزاك الله من ثوب! فما تركك أهلك بخير، أصابوا أرزاً في قشره، فلم يمكنهم أكله، فظنوه سماً، فقالت بنت الحارث بن كلدة: إن أبي كان يقول: إذا أصابت النار السم، ذهبت غائلته وطبخوه وأكلوه، فاستطابوه وجعلوا يأكلونه، ويقدرون أعناقهم، ويقولون: قد سمنا.

وبعث عتبة بالخمس إلى عمر رضي الله عنه ، مع رافع بن الحارث. ثم قاتل عتبة أهل دست ميسان، وظفر بهم، واستأذن عمر في الحج، فأذن له، فلما حج رده إلى البصرة، فلما كان بالفرع وقصته ناقته فمات، فولى عمر البصرة لمغيرة بن شعبة، فرمي بالزنا، فعزله، وولى أبا موسى.

أول الأمراء على الكوفة: سعد بن أبي وقاص، واسم أبي وقاص مالك. أخبرنا أبو أحمد الجوهري، عن أبي زيد، عن الفضل بن الدكين، عن أبي العسل، عن هارون بن عبد الله، عن عفيف بن معد يكرب. وأخبرنا أبو القاسم عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن رجاله قالوا: كان المثنى بن حارثة الشيباني أول من أغار على السواد من ناحية الكوفة، فبعث عمر رضي الله عنه أبا عبيد الله بن مسعود الثقفي، لينضاف إليه المثنى، ويتعاونا على الفرس، فعقد أبو عبيد جسراً، وعزم على العبور إليهم، فنهاه المثنى وغيره من ذوي الرأي، فأبى وعبر بمن كان معه، فقاتلهم فقتل وقتل من المسلمين ألف وثمانمائة رجل، ونجا الباقون بعد جهد شديد، وبعث عمر سعد بن أبي وقاص، فافتتح القادسية والمدائن، ومصر الكوفة، ثم عزله حين وشى به الأشعث ورجاله من أهل الكوفة، قالوا: قدمنا على عمر فقلنا: نحب أن تعزل عنا سعداً، فقد اعتدى علينا، ومنعنا حقوقنا قال: لعل ذلك أن يكون! وولي فندمنا على ما قلنا، وخفنا أن يخبر سعداً، فيكون أخبث لنا صيحة مما كان، فتبعناه فقلنا: إن لم تسمع فيه قولنا، فلا تذكره له. قال: لعل ذلك أن يكون! فغدونا إليه، فخرج سعد من عنده يسب ويلعن، فقلنا: إنه والله بلغه قولنا، واستعمله علينا، ثم قال قائل منا: هذا والله غضب معزول، فدخلنا إليه، فقال: إني قد عزلت عنكم سعداً، فأخبروني، إذا كان الإمام عليكم يمنعكم حقوقكم، ويسيء صحبتكم، ما تصنعون؟ قلنا إن رأينا خيراً حمدنا الله، وإن رأينا شراً صبرنا، فقال: لا والله لا تكونوا شهداء في الأرض حتى تأخذوهم في الحق كأخذهم إياكم فيه، وتضربوهم على الحق، كضربهم إياكم عليه، وإلا فلا، ثم ولاها عمار بن ياسر، وعزله، ثم ولاه ثانية وعزله، وولى جبير بن مطعم واستكتمه، فأتى رجل ابن أبي ثور فقال: رأيت عمر وجبيراً نجيا، وأظنه قد ولاه الكوفة، فبعث ابن أبي ثور امرأته- وكان يقال لها لقاطة الحصى لنقلها الأحاديث- إلى امرأة جبير،

وهي تصلح جهازه للخروج، فقالت: ما تصنعين؟ قالت: أبو محمد يريد سفراً قد كتمنيه. قالت: أو ترضى الحرة من زوجها أن يكتمها أمره؟ فتركت ما كانت عليه متغضبة. فقال لها جبير: عودي. قالت بالنذور العظام لا أمس شيئاً حتى تخبرني لأي شيء خروجك؟ فأخبرها، فرجعت تعالج، وجاءت لقاطة الحصى، فسألتها عن أمره، فقالت: ذكر لي أمره، واستكتمنيه، فقالت: حلفي لو كان بي مرض ما كتمتك، فأخبرتها، فأخبرت ابن أبي ثور، فأخبر صاحبه، فراح إلى عمر فقال: بارك الله لك في رأيك، قد وليته قوياً أميناً، فقال: نشدتك الله! هل رأيتني مخلياً بجبير؟ فأتيت ابن أبي ثور، وأخبرته، فأرسل امرأته إلى امرأة جبير فاقتص الخبر كأنه معهم، فأرسل عمر إلى جبير فقال: لا تحدث شيئاً، فإنك عندي أمين ولكنك ضعيف، فعزله، وولاها المغيرة بن شعبة.

وروي عن المأمون أنه قال: الملوك تحتمل كل شيء إلا القدح في الملك، وإفشاء السر، والتعرض للحرم.

أول الأمراء على الشام أبو عبيدة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن أبي الحسن عن رجاله قالوا: لما فرغ أبو بكر رضوان الله عنه من أهل الردة، وأكر الحيرة، استنهض الناس إلى الشام، فتثاقلوا، فقال عمر: " لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك" فقال خالد بن سعيد بن العاص: لنا تضرب مثل المنافقين،؟ فقال أبو بكر: كلا! ولكن أراد أن يبعث المتثاقلين، فعقد أبو بكر لخالد بن سعيد على الشام، فقال عمر: أتعقد لرجل أمر الناس بالتغالب؟ وكان خالد حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم غائباً، فلما قدم وقد بويع أبو بكر، أتى علياً رضي الله عنه فقال: أرضيتم أن يليكم رجل من تيم؟ فعزل أبو بكر خالداً، فعقد ليزيد بن أبي سفيان، وبعثه في سبعة آلاف، ومشى معه وهو راكب، وأوصاه وودعه. ثم وجه بعد ثالثة شرحبيل بن حسنة في سبعة آلاف. ثم وجه أبا عبيدة بن الجراح في مثلهم أميراً عليهم جميعاً، وبعث عمرو بن العاص في قوم من مسلمة الفتح وغيرهم، فقال عمرو: الست أميراً على جماعة الناس بالشام؟ قال: لا أنت أحد الأمراء، فإذا اجتمعتم لحرب، فأميركم أبو عبيدة، وقال عمرو: لا أرى أن يقدم الذين حادوا الله ورسوله، على من قاتل عن دين الله، فغضب سهيل بن عمرو ورجال من قريش، فظنوا أنه عرض بهم، ثم قال سهيل لهم: اغضبوا على أنفسكم، دعوا ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، والله لا ادع موقفاً وقفته مع المشركين إلا وقفته مع المسلمين، فسار عمرو فترل بغمر الغربان من أرض فلسطين، وأتى يزيد بن أبي سفيان البلقاء، وشرحبيل الأردن، وأبو عبيدة باب، فصالحه أهلها، فكان أول ما صولح عليه من الشام، وكان هرقل بفلسطين، فقال لأصحابه: إنكم قد غيرتم وبدلتم وأفسدتم، فسلط الله عليكم أضعف الأمم عندكم، وإن مدينة من مدائنكم لتعدل أضعافكم، فقاتلوا عن أنفسكم وحرمكم، واستخلف أخاه، وخرج إلى أنطاكية، فقال أبو بكر رضي الله عنه: تحوله أول نقصه وهزيمته.

ثم خرج خالد بن سعيد بن العاص في جماعة إلى مرج الصقر، فبلغ أهل بصرى، فخرجوا في أربعة آلاف، فأتوهم وهم غارون، فقتلوا خالداً وجماعة من المسلمين، وانهزم الباقون، فعزم أبو بكر على تولية خالد بن الوليد الشام، وهو بالحيرة، فكتب إليه بذلك، فاستخلف المثنى بن حارثة، وخرج في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث عشرة في ثمانمائة، فقال محصن بن الحارث الأسدي:

إذا رأيت خالداً مخففاً — وكان بين الأعجمين أنصفا

في فيلق بالنقع قد تحلفا — وهبت الريح شمالاً جرحفا

في حومة الموت إذا الموت هفا — لود بعض القوم لو تخلفا

ليس أخو الإسلام إلا من وفا

فجاء حتى وصل طرف المفازة، فالتمس دليلاً، فجيء برافع بن عمير الطائي، فقال له: لا يسلك هذه المفازة إلا مغرور، فقال: لا بد من سلوكها، قال: فمن استطاع أن يصر أذن بعيره على ماء فليفعل، فحملوا ما قدروا عليه من الماء، وساروا حتى فني ماؤهم، وشارفوا الهلاك، فقال رافع: اطلبوا شجرة عوسج، فطلبوا فلم يروا شيئاً، وكان رافع قد رمد فلم يقدر على الطلب، فقال: هلكت وهلكتم، اطلبوا، فذهبوا يميناً وشمالاً، فوجدوا منها جذماً، فقال: احفروا، فحفروا، فاستطلبوا الماء، فارتووا وحملوا، وارتحل خالد، وطرقوا هنوا من ليلتهم، وهو ماء لكلب ووقتهم ناس من بهرة فانحازوا إليهم، فدخل المسيب بن نخبة بيتاً فسمع غناء ابن النعمان الهزاوي:

ألا عللاني قبل جيش أبي بكر — لعل منايانا قريب ولا ندري

أريني سلاحي يا سميّ فإنني — أخاف بيات القوم مطلع الفجر

فهل لكم في السلم قبل لقائهم — وقبل خروج المعصرات من الخدر

فضرب المسيب فرمى برأسه في جفنة كان يشرب منها، وساق أهله وماله، وقال بعض الطائيين:

لله در رافع أنى اهتدى — فور من قراقر إلى سرا

خمساً إذا ما سارها الجيش بكى — ما سارها قبلك من أنس يرى

وقال رجل من طيء أيضاً:

ونحن جلبنا الخيل يوم يراعة — نطاعن عنها والأسنة تقطر

بدوية مرت كأن سراتها — بأرجائها القصوى ملاء منشر

فكان خالد على الشام حتى قام عمر فعزله.

أول من سلم عليه بالأمرة: قيل له: السلام عليك أيها الأمير، وكانوا قبل ذلك يقولون للأمراء إذا دخلوا عليهم السلام عليكم، كما يقولون لغيرهم، أظن ذلك قيل للمغيرة بن شعبة أيام ولايته على الكوفة لمعاوية.

أول أمير أخذ ما جبى وهرب: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، قال: جبى ابن عباس وهو وال لعلي رضي الله عنهما على البصرة مالاً كثيراً، فقال له أبو الأسود: إن أعطيت من قبلك حقوقهم، وحملت الباقي إلى أمير المؤمنين ليستعين له على أمور المسلمين، فقال: لو كنت يا أبا الأسود من البهائم لكنت جملاً، ولو كنت راعياً ما بلغت به المرعى، وما أحسنت مهنته في المساء، فكتب أبو الأسود إلى علي عليه السلام بذلك، فوجه عليه مولاه سعداً إلى ابن العباس يأمره بحمل المال إليه، فشتمه ابن العباس وهدده، فخرج حتى أتى علياً، فأخبره فكتب إليه يلومه ويعنفه، وكتب هو يعذر نفسه، ويلزم الذنب سعداً، ثم عمد إلى المال، وكان أربعمائة ألف، وقيل سبعة ألف ألف، واحتمله وخرج، وخرج معه عشرون رجلاً من قيس، فجعل يعطي في طريقه كل من يسأله، حتى أتى مكة فأعطى ما كان معه، واحتجز الباقي، وكتب إليه علي عليه السلام: إني أشركتك في أمانتي، و لم يكن أحد من أهل بيتي أوثق عندي ولا أرجى لمواساتي منك، فلما رأيت الزمان على ابن عمك قد كلب، والعدو قد حرب، والأمة فتنت، قلبت ظهر المجن، وخذلتني فلا إمامك آسيت ولا للأمانة أديت، كأنك لم ترد بعملك الله، وكأنك كنت تكيد الأمة عن دنياها، فلما أمكنتك الفرصة، عاجلتهم الشدة، فاختطف ما قدرت عليه اختطاف الذئب دانية المعزى، رحيب الصدر تحملها غير منحرج عن أخذها، كأنك حزت تراثك من أبيك وأمك، واتخذت مكة داراً تشتري بها مولدات الطائف، تختارهن على دينك، تعطي فيهن مال غيرك، سبحان الله! أما تؤمن بيوم الحساب؟ أو ما تخاف الميعاد؟ أو ما يعظم عندك أن تشتري الإماء، وتنكح النساء، بمال اليتيم والأرملة والمسكين.

فأقسم بالله! ما أحب أن ما أصبت كان لي حلالاً أنفقه في سبيل الله لا أحاسب به يوم القيامة، فلا غرو لأكلك له حراماً، فاردد ما أخذت، فوالله لو لم تردده ثم أمكنني الله منك لأعذرن الله فيك، فلو أن حسناً أو حسيناً أتيا مثل الذي أتيت، ما كان لهما عندي هوادة ولا ظفراً فيه مني برخصة، انتهى. فكتب إليه ابن العباس: بلغني كتابك تعظم فيه ما أخذت من المال، ولعمري لحقي فيه أكثر مما أخذت.

فقال علي عليه السلام: العجب ممن يرى أن له من مال المسلمين أكثر مما لرجل منهم، قد أفلحت إن كان يمينك الباطل، وادعاؤك مالاً يكون لك يخرجك من الإثم، ويحل لك الحرام، عمرك الله إنك إذاً لأنت

السعيد.

وبإسناده قال: ولى علي عليه السلام عبد الله بن سوار بن همام العبدي، البحرين، فجبى مالاً وهرب، وكتب إليه علي يتهدده، فكتب إليه ابن سوار بشعر قاله بكير بن وائل الطامي من الأزد:

ما إن نبالي إذا ما كنت جنتنا — أن نشرط المال شرط الماء بالعسل

وأنت بحر على قوم تخافهم — وصخرة في الأداني ماؤها وشل

أول من عرف بالبصرة: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن خلاد بن يزيد، عن ناهض بن سالم، عن أبي بكر الهزلي قال: أرسلني النصر بن عمرو إلى الحسن أسأله عن التعريف ها هنا قال: وما هذا وذاك؟ قلت: إنه لمن خيرهم. قال: أجل فأخبره أن أول من عرّف بالبصرة عبد الله بن العباس، قال للناي: هذا يوم عرفة، فهلموا نجتمع فيه، فندعو الله، لعل دعاءنا يوافق دعاؤهم، فتترل الإجابة فنشركهم فيها، فصعد المنبر، فقرأ سورة البقرة، ففسرها حرفاً حرفاً وكان متجه نجد غرباً.

ومن أوائل أفعاله ما أخبرنا به أبو احمد، عن الجوهري، عن ابي زيد، عن الحجاج بن نصر، عن قرة، عن خالد قال: سئل الحسن عن صلاة الكسوف، فقال: صل كما تصلي، تركع وتسجد، قال رجل: إنهم يقولون: تركع ثم ترفع رأسك ثم تقرأ ثم تركع. قال الحسن: أول من فعل هذا ابن عباس بالبصرة.

أول رأس ثقف في الإسلام: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن أبي الحسن قال: عقد على لقيس بن سعد بن عبادة على مصر، فبايعه أهلها إلا أهل قريات كانوا شيعة لعثمان، قالوا له: نعطيك الخراج، ولا نبايع علياً، حتى يجتمع الناس على إمام، فأعطاهم قيس ذلك، فطمع فيه معاوية، فكتب إليه يدعوه إلى مبايعته فأبى، فقال لعمرو بن العاص: إن قيساً شديد الرأي، شديد البأس، وله نية في قتالنا، وإن اجتمع علينا أهل العراق، وأهل مصر لم نقم لهم، فما الرأي؟ قال: كتب كتاباً على لسانه بالمبايعة لك، فإن عيون علي يكتبون إليه بذلك فيعزله، فكتب معاوية: من قيس بن سعد، أما بعد: فإن قتل عثمان كان حدثاً في الإسلام عظيماً، وإني نظرت لنفسي فلن يسعني في ديني مبايعة أهل البغي، وقد ألقيت إليك التسليم، وأجبتك إلى قتال عدوك والسلام. وقرأه معاوية على الناس، فكتب عيون عليّ إليه به، فقال عبد الله بن جعفر: إن قيساً قد داهن، فاكتب إليه بمنجازة من لم يبايعك، فإن فعل، وإلا فاعزله، فكتب إليه بذلك، فكتب قيس: العجب منك يا أمير المؤمنين! تأمرني بقتال قوم كافين، ومتى قاتلتهم ظاهروا عليك، فاستجاشوا عليك بأعدائك، فلم تكن لنا بهم طاقة، فأكفف عنهم، فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فكتب إليه علي عليه السلام، أنا الشاهد، وأنت الغائب، إن عملت برأيي، وإلا فاعتزل.

وقال عبد الله بن جعفر لعلي: ينبغي أن توليها محمد بن أبي بكر- وكان محمد أخاه لأمه، أمهما أسماء بنت عميس- فولاه إياها، فخرج حتى قدم على قيس، فقال قيس: إن صاحبك وإن كان قوياً في بدنه، فإنه ليس بذي علم في الحرب، فإن أردت أن تبقى لك مصر، فاعمل فيها عملي، وودعه وخرج إلى المدينة، فخير محمد الذين وادعهم قيس بين البيعة لعلي أو القتال أو الجلاء، فتجايشوا عليه، وكانوا اثني عشر ألفا، فاضطرب أمره، فلما انقضى أمر الحاكمين، ازدادوا عليه قوة، واختل أمر مصر، فقال علي: ليس لمصر إلا قيس أو الأشتر، فكتب معاوية إلى جانستان وهو بالقلزم: إذا مر بك الأشتر فاحتل عليه حتى تقتله، فلما حصل عنده سقاه شربة عسل فمات، واشتد أهل مصر على محمد، فاستمد علياً، فندب الناس إليه فتثاقلوا، وخرج عمرو بن العاص إلى مصر، في أربعة آلاف، واستعد لهم محمد، فقاتلهم فغلبهم مراراً، ثم كسروه فتفرق عنه أصحابه، وأخذه معاوية بن خديج، فقال له: أسألك بحق أبي عليك ألا خليت عني! فقال معاوية: أنا أسأل نفسي بحق الله ألا أخلي عنك، وأنت قتلت عثمان، وقدمه فضرب عنقه، وثقف رأسه، وحمله إلى معاوية، وأدخله جيفة حمار وأحرقها، فما أكلت عائشة شواء حتى ماتت.

وقالوا: أول رأس حمل في الإسلام رأس عمرو بن الحمق، قالوا: لما قتل علي عليه السلام بعث معاوية في طلب عمرو بن الحمق، ففاته فأخذ امرأته فحبسها، ثم ظفر عبد الرحمن بن الحكم بعمرو فقتله، وبعث رأسه إلى معاوية، فكان أول رأس حمل في الإسلام، قال أبو هلال: أيده الله فإن كان حمل رأس ابن أبي بكر صحيحاً فهو الأول.

أول أمير مات بالبصرة: أخبرنا أبو أحمد بإسناد بعد على إخراجه قال: قال الحسن: قدم علينا بشر بن مروان بالبصرة- وهو أبيض بض- أخو الخليفة، وابن الخليفة، ووالي العراق، فأتيته مسلماً عليه، فقال الحاجب: من أنت؟ قلت: الحسن البصري. قال: الفقيه؟ قلت: نعم. قال: أدخل على الأمير، وإياك أن تديم النظر إليه، وإن سألك عن شيء فاحذف الجواب حذفاً، ولا يكون كلامك إلا جواباً، وتجوز في المجلس ما استطعت، إلا أن يجلسك، فدخلت وهو على سرير، وعليه فرش قد كاد يغوص فيها، ورجل قائم متكئ على سيفه، فسلمت فقال: من أنت أعرفك؟ قلت: الحسن البصري، قال: فقيه هذه المدرة؟ قلت: نعم. قال: ما تقول في زكاة أموالنا؟ أندفعها إلى الفقراء أم إلى السلطان؟ قلت: أي ذلك فعلت جزا عنك. قال: فرفع رأسه إلى الرجل وقال: لشيء ما يسود من يسود، ثم أومأ إليّ بالجلوس، فجلست، فجعل يخالسني النظر، إذا رميته بطرفي أمال بصره عني، فإذا خفضت عنه ابرز فيّ بصره، فتجوزت في المجلس وقمت، ثم عدت بالعشي، فإذا هو في صحن مجلسه، والأطباء حواليه، وقالوا الأمير محموم، ثم عدت في الغد، فإذا الناعية تنعي والدواب قد جزّت نواصيها، فحمل ودفن جانب الصحراء وجاء الفرزدق فقال:

أعينيّ أما تسعداني بالبكا فما بعد بشر من عزاء ولا صبر

ألم تر أن الأرض دكت جبالها وأن نجوم الليل بعدك لا تسري

سيأتي أمير المؤمنين مصيبة وتمنى إلى عبد العزيز إلى مصر

فإن أبا مروان بشراً أخاكما ثوى غير متبوع بذمّ ولا غدر

وقد كان حيات العراق يخفنه وحيات ما بين المدينة والنهر

فما بقي أحد كان على القبر إلا خر باكياً، وانصرفت وصليت إلى جانب الصحراء ما قدر لي، ورجعت إلى القبر، وقد أتى بعبد أسود يحمله أربعة، فدفن إلى جانب قبره، فوالله ما فصلت بين القبرين حتى قلت: أيهما قبر بشر؟ وقال الشاعر:

والعطيات سباب بينهم وسواء قبر مثر ومقلّ

أول أمير مات بالكوفة المغيرة بن شعبة أول ما سميت العطيات جوائز في سلطان ابن عامر: سمعت أصحابنا يتحدثون أن عبد الله بن عامر بن كريز - وكان على العراق من قبل عثمان- بعث جيشاً مع قطن بن عمرو الهلالي إلى كرمان، في أربعة آلاف، فجرى الوادي بسيل مفرط، فخيف الغرق على من عبر، والعدو على من لم يعبر، فقال القطن: من عبر ألف درهم. فعبر رجل وآخر، حتى عبروا كلهم، فأعطاهم عمرو ذلك، وكان أربعة ألف ألف درهم، فاستكثرها ابن عامر فكتب فيها إلى عثمان رحمة الله عليه، فأجازها وقال: ما كان معونة في سبيل الله فجائزة، وصارت الجائزة اسم العطية.

قال الكندي:

فداء الأكرمين بني هلال على علاتهم أهلي ومالي

هم سنوا الجوائز في معد فصارت سنة أخرى اللیالي

رماحهم تزيد على ثمان وعشر عند تركيب النصال

وقال أهل اللغة: هو من قولهم استجاز الرجل، إذا سأل أن يسقي إبله، وأنشدوا:

عجوز عليها مسحة من ملاحة أقاتلتي يا للرجال عجوز

لو أن مياه الأرض كانت بكفها لما تركتنا بالمياه نجوز

وابن عامر، هو أول من اتخذ ألسنة الموازين من الحديد، وهو أول من لبس الخز. فقال أهل المدينة: قد لبس الأمير جلد دب، وهو أول من لبس الطيلسان من العرب في الإسلام، وقالوا: أول من لبسه جبير بن مطعم.

أول من صلب رجلاً في الإسلام: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: قال أبو يعقوب الشروي: إن الوليد بن عقبة دخل مسجد الكوفة، ودعا بساحر يقال له نطروبي، فأراهم فيلاً فوق فرس يشتد بهم في المسجد، وأراهم ناقة تشتد على حبل، وحماراً عدا حتى دخل فم نطروبي، ثم خرج من دبره، ومر رجل فضرب عنقه، ووقع رأسه جانباً، ثم قال للسيف: أقمه فأقامه. وأتى جندب بن كعب الصياقلة، وأخذ من مولى له سيفاً، وأتى المسجد فضرب عنق نطروبي، وقال: أحي نفسك. فأراد الوليد قتل جندب، فقام قومه دونه، فحبسه، فلما رأى صاحب السجن صلاته، قال: اذهب حيث شئت. فقال: أخاف الطاغية عليك، فقال: ما أسعدني يقتلني! فانطلق جندب، وبعث الوليد إلى صاحب السجن فضرب عنقه وصلبه في السبخة، فكان أول مصلوب في الإسلام. وقالوا: أول من صلب بعد الهجرة رجل بعثته قريش إلى المدينة ليغتال النبي صلى الله عليه وسلم.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن وهب بن جرير، عن أبيه قال: سمعت الحسن يقول: جلس نفر من قريش، فتذاكروا من أصيب منهم ببدر وقالوا: لو وجدنا رجلاً يقتل لنا محمداً، ونجعل له ما يريد، فقال رجل: أنا جريء الصدر، جيد الحديد، جواد الشد اقتله ثم اهرب في أحد القيران أعدو كما يعدو العير فأفلت- والعير الحمار الذكر- فجعل له أربعة رهط كل رجل منهم أوقية، فخرج حتى أتى المدينة، فنزل على ابن عم له، وقال: جئت مسلماً، فأطلع الله نبيه على شأنه، فبعث إلى الرجل شد ضيفك وثاقاً، وائتني به، فجعل يقول: أهكذا تفعلون بمن تبع دينكم؟ حتى أتى به النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: جئت مسلماً، فقال: كذبت وقص عليه قصته فأنكر، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلب على جبل بالمدينة، يقال له: ذباب، وكان أول مصلوب بالمدينة بعد الهجرة.

أول من وضع الكسور والتوابع على أهل الخراج زياد: أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: حكى محمد بن داود بن الجراح عن عبد الله بن سليمان قال: إني لواقف على رأس المهتدي وقد جلس للمظالم، وبحضرته القواد والكتاب، فرفع إليه في قصة الكسور، فقال لأبي: عرفني حالها، فقال: كان عمر رضي الله عنه قسط الخراج ورقاً وعيناً والدراهم تؤدى فيه عدداً، ففسد الناس، فكانوا يؤدون الضريبة ووزن الدرهم فيها أربعة دوانق، ويستبدون بالوافي، ووزنه مثقال، فلما ولي زياد العراق، طلب بأداء الوافي، فشق ذلك على الناس، وكان يلزم في حمل المال مؤونة، فألزمها أصحاب الخراج، وزادت في ذلك عمال بني أمية زيادة أجحفت بالناس، فلما ملك عبد الملك قرر وزن الدرهم على نصف وخمس مثقال، وترك المثقال على حاله، ثم ألزم الحجاج وعماله الناس الوظائف، وهدايا النوروز والمهرجان، فجرى الرسم به حتى ولي عمر بن عبد العزيز، فأمر بإسقاط ذلك كله، وإجراء الناس على رسم عبد الملك، فلما ولي يزيد بن عبد

الملك بعد عمر، رد الأمر على ما كان عليه، وجرى الأمر على ذلك إلى أيام المنصور، فحرب السواد، فأزال المنصور الخراج عن الحنطة والشعير، وصيّرهما مقاسمة، وترك غيرهما على رسمه، وحدث بعد ذلك أشياء لزمت عليها مؤونة، فزيدت على المال، فقال المهتدي: معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً تقدم العمل به وتأخر، وحق ما حمل من بيت من الأموال أن ينفق عليها منها، وتقدم بإسقاط الكسور والتوابع على الناس، فقال الحسن بن مخلد: إن أسقط أمير المؤمنين ذلك، ذهب من مال السلطان عشرة آلاف ألف درهم، ومد بها صوته، فقال المهتدي: قد عرفت مذهبك في هذا القول، تريد تحريض الموالي بما انتقص من أموالهم، وما امتنع أن أقيم حقاً له، وأزيل مظلمة قد تقدمت بها الأيام، وإن كان في ذلك كل حيف على بيت المال، ولو نظر الموالي في أمرك وأمر نظرائك، أخذوا ما خوفتهم أن يذهب من مالهم منك، فارتعد الحسن وأبلس، ثم كلم فيه المهتدي، فوضع له. هذا معنى الحديث.

أول من رسم هدايا النيروز والمهرجان الحجاج، وأول من رفع ذلك عمر بن عبد العزيز، وأول من رسم المقاسمة المنصور، وأول من رفع الثياب، ولبس الخفاف الساذجة بالبصرة من الأمراء، زياد وهو أول من دعا التقرى، وكانوا يدعون الجفلى. قال أبو هلال: أيده الله، الجفلى: أن يدعو الإنسان إلى طعامه جميع الحي، والتقري، أن يخص قوماً دون قوم.

قال طرفة:

نحن في المشتاة ندعو الجفلى ... لا ترى الآدب فينا ينتقر

والآدب، الذي يدعو الناس إلى طعامه، والمأدبة الدعوة. قال الزناد لعجلان! كيف تدعو الناس؟ قال: على الشرف، ثم على الأستان، ثم أدعو الذين لا يعبأ الله بهم شيئاً. قال: ومن هم؟ قال الذين يلبسون ثياب الصيف في الشتاء، وثياب الشتاء في الصيف، فقال: هذا هزل ولو تقدمت إليك فيه لأدبتك.

وأما ترقيعه الثياب فقال: ما بال الرجل يأخذ عطاءه ألفين فلا يبلغ الحول حتى يدان أكثر من ذلك؟ فقيل له: ذهب أموال الناس في الكسوة. فصدر قميصه وجلس فيه، فصدر الناس ثيابهم، وكان الرجل حين ينشق ثوبه يلقيه، فاتخذ الزياد به ولبسها، فلبسها الناس معه، وكان الناس يتكلفون للعيد مراكب يركبونها، فمشى إلى العيد ومشى الناس معه، والناس يقتدون برؤسائهم في أكثر أمورهم، حتى يسمون بأسمائهم، ويكتنون بكناهم، ويفعلون ما يقدرون عليه من أفعالهم.

وكان زياد يرقع ثوبه لئلا يستحي غيره من ترقيع ثوبه، ولا يحمل على نفسه في استثرائه واستجادته، وكان يعطي الكثير وربما أعطى القليل، لئلا يأنف المسؤول عن تقليل العطية عند تعذر الإمكان، ولا يقع حجة السائل عن المسؤول إذا أعطاه قليلاً. وسأله رجل فأعطاه درهماً؟ فقال: نعم. إن من بيده خزائن

السماوات والأرض ربما رزق أخص عبيده، وأقربهم منه وسيلة، التمرة واللقمة فما يكبر عندي أن أصل رجلاً من إخواني ثمانية ألف درهم ، ولا يصغر عندي أن أطعم سائلاً رغيفاً، إذا كان الجواد الكريم، أرحم الراحمين، يفعل ذلك.
وهو أول من اتخذ الذراع التي تذرع بها الأرضون هكذا قالوا.

وأخبرنا أبو القاسم بإسناده، عن المدائني، عن أبي عمرو العمري، عن أبي عبد الرحمن البعلي، عن أبي ليلى، عن الحكم، عن عمر أنه كتب إلى عثمان بن حنيف بمساحة السواد، فمسحها بذراع كانت ذراعاً وقبضة، فقام الإبهام شيئاً يسيراً، فهي بين المنتصب والمنضجع.
وقال جعفر بن مهلهل: جعل عبيد الله بن معمر لأهل البصرة ذراعاً يذرعون بها الدور، من أطول ذراع وجدها الرجل وأقصر ذراع وجدها الآخر. أما الذراع التي يذرع بها الأرضون، فإن زياداً وضعها. فلما قدم سليمان بن علي زاد فيها وسماها الهاشمية، فبقيت إلى اليوم، وكانت تسمى الزيادية، وقيل إن ذراع أيام عمر كانت ذراعاً وقبضة الإبهام منتصمة، وقالوا: إنه نظر إلى ثلاثة نفر من أطول من يعلمه ذراعاً وأوسطه وأقصره فجمعها فأخذ ثلثها، فبعث به إلى الكوفة، وأمر سعداً حين كوف الكوفة أن يجعل سككها خمسين ذراعاً بذلك.
أول من جمع العراقين: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري عن أبي زيد، عن المدائني، وأخبرنا عن غيره قال: كان زياد على البصرة وأعمالها إلى سنة خمسين، فمات المغيرة بن شعبة بالكوفة،- وهو أميرها- فكتب معاوية إلى زياد بعهده على الكوفة مع البصرة، فكان أول من جمعتا له، فشخص إلى الكوفة، واستخلف سمرة بن جندب فرجع زياد وقد قتل سمرة ثمانية آلاف رجل، قالوا: جاء رجل فأعطى زكاة ماله، وصلى ركعتين، فقتله سمرة، فاتاه أبو بكر فقال له: ثم قتلت رجلاً عندما حسن عمله، قال: أخوك زياد يأمرني بذلك، قال: أنت وأخي في النار.
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسمرة وأبي هريرة وأبي محذورة: آخركم موتاً في النار، فمات أبو هريرة، وكان سمرة يسأل عن أبي محذورة، وأبو محذورة يسأل عن سمرة، فمات أبو محذورة، ثم أخذ سمرة الزمهرير، فمات شر ميتة، وكان سمرة أول من باع خمراً في الإسلام، وأول من اتخذ الحرس والعسس، ومشى بين يديه بالحراب والعمد، وجلس بين يديه على الكراسي وأول من اتخذ السقيف على حوانيت السوق زياد، وذلك حين أمر ألا تغلق أبواب الحوانيت، وكانت الكلاب تطرق الأمتعة، فأمر بمد السقف عليها، وكان يقول: إنا والله ما علونا أعوادكم، واستحللنا فيكم إلا بذنّبنا عن حريمكم، وأيما عقال أصيب من مقامي هذا إلى خراسان، فأنا ضامن له.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن السودكي، عن سليمان بن مسلم عن أبيه قال: سمعت زياداً يقول: من سرق له متاع لم نسأله البينة، فليجئ فليأخذه، وكان الناس يغطون أمتعتهم ويذهبون.
أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن علي بن محمد قال: كان زياد يؤخر العشاء الآخرة، حتى يصليها آخر من يصلي، ثم أمر رجلاً فيقرأ سورة البقرة أو مثلها، يرتل ترتيلاً، ثم يمهد قدر ما يرى أن إنساناً يبلغ آخر بيت ثم يأمر صاحب شرطته بالخروج، فيخرج، فلا يرى إنساناً إلا قتله، فأخذ ذات ليلة أعرابياً فأتى به زياداً، فقال: هل سمعت النداء؟ قال: لا والله. قدمت بحلوبة لي فغشيني الليل فاضطررتها إلى موضع، وأقمت لأصبح، ولا علم لي بما كان من الأمير، قال: أظنك صادقاً. ولكن في قتلك صلاح الأمة، فأمر فضربت عنقه. وزياد أول من شدد أمر السلطان، ووكد أمر الملك وأخذ بالظنة، وعاقب على الشبهة، وخاف الناس من سلطانه حتى أمن بعضهم بعضاً، فكان الشيء يسقط من الرجل أو المرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتي صاحبه فيأخذه، وتبيت المرأة فلا تغلق بابها عليها، وأدر العطاء، وبنى دار الأرزاق، فقال حارثة بن بدر العرائي، يذكر سيرته:

ألا من مبلغ عني زياداً	فنعم أخو الخليفة والأمير
لأنت غمام معدلة وقصد	وحزم حين تحضرك الأمور
أخوك خليفة الله بن حرب	وأنت وزيره نعم الوزير
نصبت على الهوى منه ومالي	محبة ما يجن له الضمير
بأمر الله منصور معان	إذا جار البرية لا يجور

وقال في آخرها:

تقاسمت الرجال به هواها	فما تخفي ضغائنها الصدور

وكان زياد يسوي بين طعامه وطعام أصحابه، فوضع يوماً على مائدة شهدة، فقال: أعلى كل مائدة مثلها؟ قبل: لا. قال: فارفعوها.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن علي بن محمد، عن مسلمة بن محارب قال: قال زياد لمولاه عجلان: قد وليتك حجابتي، وعزلتك عن أربعة: طارق الليل، فشر ما جاء به، لو كان خيراً ما كنت من شأنه، ورسول صاحب الثغر، فإنه إن جلس ساعة فسد عمل سنة، والمنادي بالصلاة، وصاحب الطعام، فإن الطعام إذا أعيد عليه التسخين فسد، فأبطأ زياد يوماً بالغداء لشيء كان فيه من أمر الدهاقين، فقال شعبة بن المحسن الضبي: الغداء- أصلح الله الأمير- فقال رجل من الدهاقين: بأي ذنب أتيناه حتى

ابتلينا بهؤلاء الكلاب؟ فسمعها زياد فقال: بجرأتك على الله وشركك به، وكذبك عليه يا ابن المحسر، لا تعودن لمثل هذا، ودعا بالطعام فأكل، وكان أكولاً ذميماً، فقال له زياد: ما لك من الولد؟ قال: تسع بنات. قال: وأين أكلهن من أكلك؟ قال: أنا أجمل منهن، وهن آكل مني، فقال زياد: ما أحسن ما سألت!! ففرض لهن، فقال ابن محسن:

إذا كنت مرتاد السماحة والندى	فناد زياداً أو أخاً لزياد
يجبك امرؤ يعطى على الحمد ماله	إذا ضن بالمعروف كل جواد
ومالي لا أثني عليه وإنما	طريفي منهم كله وتلادي
هما أصلحا أمر البرية بعدما	تفانوا وكادوا يصبحون كعاد

وهو أول من عرف العرفاء: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن ابن سلام، عن أبي المعتمر قال: زياد أول من عرف العرفاء، وجعل عليهم المناكب، وقال: العرفاء كالأيدي، والمناكب فوقها، وقيل لمعاوية: أنت أذكى الناس أم زياد؟ فقال: إنه لا يدع الأمر يتفرق عليه، وإنه يتفرق عليّ ثم أجمعه، وقال له معاوية: أنا أسوس منك. ضبطت سلطاني باللين، وضبطت سلطانك بالشدة.

وخطب زياد فقال: لا أجد ساقطاً رد على شريف، أو حدثاً رد على شيبة إلا أوجعت بطنه وظهره، وكتب زياد إلى معاوية: إني ضبطت العراق بشمالي، ويميني فارغة يسأله ولاية الحجاز. فكره ابن عمر ذلك فدعا عليه فخرج في أصبعه طاعونة، فأراد قطعها، فنهاه شريح عن ذلك وقال: تلقى الله أجزم، قد قطعت يدك خوفاً من لقائه. فمات في سنة ثلاث وخمسين، وكانت ولايته العراق خمس سنين.

أول من أذن معه في المقصورة أبان بن عثمان: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: قال الواقدي: أول من أذن معه المؤذنون في المقصورة أبان بن عفان، وإنما كان يؤذن فيما مضى على المنارة، وكان أبان سحلاً.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن العليمي، عن المدائني، عن عبد الله بن حفص التميمي ومسلمة بن حرب بن خالد بن يزيد بن معاوية: أن أعرابياً توجه من الموسم يريد المدينة، فكسر به بعيره، فأقبل برحله يحمله، حتى أتى أبان بن عثمان، وهو على المدينة، فسأله فحرمه، فأتى عبد الله بن جعفر فقال لآذنه: إن معي هدية فأعلموه، فأعلمه فقال: هدية تحملها أو يحملها غيرك؟ قال: أحملها. قال: هات، فقال:

أبا جعفر إن الجياد تواكلت	وأدركت عند الحصار فتور
أبا جعفر ضنّ الأمير بماله	وأنت على ما في يديك أمير

فقال: قد يكون ذلك. فقال: أجل. فقال:

أبا جعفر يا ابن الشهيد الذي له جناحان في أعلى الجنان يطير

أبا جعفر إن الحجيج ترحلوا وليس لرحلي فاعلمن بعير

قال: أصبته انطلق إلى الإبل، فتخير أفضل ناقة أو جمل فخذه، فجاء أعرابي بصير بالإبل، فتخير ناقة يعدها لرحلة، فمنعه الغلام، فرجع إلى عبد الله فأخبره، فوجه معه، فقال: أعطه الناقة التي طلب، والغلام الذي منعه، فجاء الغلام إلى عبد الله فقال: جعلت فداك! صحبتي. فقال: لا بأس إنه بنا لصب، أتبيعه؟ قال: نعم. قال: بكم؟ قال: ثلاثمائة. قال: هي لك، ودونك السيف فلا تحد عنه، فإني ابتعته بأربعمائة دينار، وأعتق العبد وزوجه وولده، فقال الأعرابي:

حباني عبد الله نفسي فداؤه بأعبس موار سباط مشافره

والأعبس الأبيض تعلوه حمرة والجمع عبس، والموار السريع السير، والسبوط في سائر النجائب يستحب.

وأبيض من ماء الحديد كأنه شهاب بدا والليل ملق عساكره

سأثني بما أوليتني يا ابن جعفر وما شاكر عرفاً كمن هو كافره

ومما روي عن أبان بن عثمان من الأمثال ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي يزيد، عن هارون بن معروف، عن عبد الله بن وهب قال: قال حيان: أخبرني أبو عثمان أنه سمع أبان بن عثمان يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "المجالس أمانة" وقالوا: أحسنوا مجلس العشيرة، فقال: الرجل إذا كان في مجلس العشيرة لم يبال ما قال، وإذا كان في غيره تحفظ في كلامه.

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي قال: حدثنا ابن ذكوان قال: حدثني الثوري قال: لما ولي أبان بن عثمان المدينة كان يطوف بالبيوت بنفسه ليسمع ما يحدث خوفاً من أن يعاب بشيء، فسمع قائلاً يقول: اللهم اعزل أبان، فقال أبان:- والمديني لا يعرفه- وما صنع بك؟ قال: ما صنع بي شيئاً، ولكني استطلعت ولايته ومللتها، قال له: ويحك! إنما له ستة أشهر، قال: ففي دون هذا نفع الملك، والله إني لأمل كنيتي فأغيرها في كل جمعة، وإني لأؤذن فإذا توسطته مللت، فجئت بمن يتمه عني.

أول من رفع يديه في الخطبة يوم الجمعة: عبيد الله بن عبد الله بن معمر، وكان أول من حكم في الوصية برأيه، وكان يقول: من سمى جعلته حيث سمى ومن أوصى به حيث أمر الله جعلناه في الأقربين، وكان أحد الأجواد المذكورين.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا الجوهري قال: قال أبو زيد: كانت لرجل جارية تعجبه، فاحتاج إلى بيعها،

فجعل يتصبر حتى اضطر، فقالت الجارية: إني أرى ما بك، فلو بعتني فانتفعت بثمني كان أمثل مما أراك تلقى! قال: أفعل على كره. فأتى بها عبيد الله بن عبد الله بن معمر، فأعجبته فقال: بكم؟ قال: بمائة ألف درهم، هي خير من ذلك، فنقده الثمن، فلما نهض قال:

ولولا قعود الدهر بي عنك لم يكن يفرقنا شيء سوى الموت فاعذري

أروح بهمّ في الفؤاد مبرح أناجي به قلباً قليل التصبر

عليك سلام لا زيادة بيننا ولا وصل إلا أن يشاء ابن معمر

قال: شاء ابن معمر، خذ بيدها والمال لك.

وقالوا: أتى بها عمر بن عبيد الله بن معمر، فذكر البحتري بعد ذلك عبيد الله فقال: وقد رد عليه الحسن بن سهل غلامه نسيماً بعد أن أعطاه ثمنه:

وأعطيت ما أعطيت والبشر شاهد على فرح بالبشر منك مبشر

وكان العطاء الجزل ما لم تحله ببشرك مثل الروض ما لم ينوّر

أطعت لسلطان التكبر واللهى وعاصيت سلطان الهوى والتكبر

فوالله ما أدري سلوت عن الهوى فأعطيتنيه أو حسدت ابن معمر

أول من رآه الناس يتوضأ بالماء بالبصرة: عبيد الله بن أبي بكرة فقالوا: انظروا إلى هذا الحبشي يلوط استه بالماء، وكان عبيد الله أحد الصلحاء الأجواد.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن معاوية، عن محمد بن داود: أتت امرأة إلى عبيد الله بن أبي بكرة فقالت: أتيتك من بلدة شاسعة، تخفضني خافضة وترفعني رافعة، لملمات برين عظمي، وأذهبن لحمي، فصرت ولهى، أمشي بالحضيض، قد ضاق عليّ العريض، فسألت في أحياء العرب عن المحمود سيبه، المأمون عيبه، والمرجو نائله والكريم شمائله، فدللت عليك، وأنا امرأة من هوازن قد هلك الوالد، وغاب الوافد، ومثلك سد الخلة، وفك الغلة، فافعل بي إحدى ثلاث: إما أن تحسن صفدي، أو تقيم أودي، أو تزودني إلى بلدي، قال: بل أجمعهن لك.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد عن الأصمعي قال: مر عبيد الله بن أبي بكرة ببني ضبيعة، فسلم، فقال رجل: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقال لمن معه احفظوا إليّ اسم الرجل، فما برحوا حتى أتاه صلة.

أول من ميز العتاق والهجن المنذر بن أبي حمضة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن معاوية بن عمرو، عن أبي إسحاق الفزاري، عن أبي عيينة، عن إبراهيم بن المنتشر، عن علي بن الأقمر، إن

الخيل أغارت بالشام وعلى الناس المنذر بن أبي حمضة الوادعي، وأدركت الفرات من يومها، وجاءت الكوادن ضحى المغد فقال: لا أجعل ما أدرك كما لم يدرك، وكتب في ذلك إلى عمر رضي الله عنه فقال: لقد هبلت الوادعي أمه، لقد أذكرته، أمضوا على ما قال وفي رواية أبي أحمد قال رجل منهم:

ومنا الذي قد سل في الخيل سيفه ... وكانت سواء قبل ذاك سهامها

وقالوا: أول من ميز بينها سليمان بن ربيعة.

أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن معاوية، عن إسحاق، عن أبي رجاء، عن موسى بن عثمان بن الأسود قال: بعث عمر سليمان بن ربيعة على جيش، وسار معه عمرو بن معد يكرب وطلحة الأسدي، فلقوا العدو فهزموهم وأصابوا غنائم كثيرة، فلما قفل قسمها، وأمر أن تعرض عليه الخيل، فكان يسهمها ولا يسهم إلا لكل عتيق، فمر به فرس لعمرو وفيه غلظ فقال سليمان: إنه لهجين، وما أريد أن أسهمه، فغضب عمرو وقال: أجل ما يعرف الهجين إلا الهجين، فقدم إليه الأشتر وكان من رهطه فقال: يا عمرو ما تراك إلا سلبت الحال التي تكون عليه بالبادية، أما تعلم أن هذا الإسلام، وأن أمر الجاهلية قد اضمحل، أما لو أمرنا بك لأخذناك له فقال عمرو: ما عرفت الذل قبل اليوم، وبلغ أمرهما عمر فكتب إلى سليمان: أما بعد: فقد بلغني صنيعك بعمرو، وإنك لم تحسن بذلك و لم تجمل فيه، وإذا كنت بمثل مكانك من دار الحرب، فانظر عمراً وطلحة، وقربهما منك، واسمع منهما فإن لهما بالحرب علماً وتجربة، وإذا وصلت إلى دار السلام، فأنزلهما مترلتهما التي أنزلا أنفسهما بها، وقرب أهل الفقه والقرآن.

وكتب إلى عمرو: أما بعد فقد بلغني اقتحامك لأميرك، وشتمك له، وإن له لسيفاً يسميه الصمصامة، وإن لي سيفاً أسميه المصمم، وإني أحلف بالله لو قدر لي ووضعته على هامتك لا أرفعه حتى أقدك به، فلما جاءه الكتاب قال: والله إن هم ليفعلن.

أول من مشت معه الرجال وهو راكب الأشعث بن قيس: وكان بنو عمرو بن معاوية ملكوه عليهم وتوجوه.

أخبرنا أبو القاسم، عن المدائني بإسناده قال: قدم حجاج كندة فيهم بنو ربيعة، وهم من عمرو بن معاوية، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل، فعرض نفسه عليهم فلم يقبلوه، فلما هاجر صلى الله عليه وسلم جاءه وفد كندة، فيهم بنو وليعة والأشعث، فأطعم رسول الله بني وليعة طعمة من صدقات حضرموت واستعمل على حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وأجراها لهم، ثم حدث أمر أوجب

أن يتجافوا عنها سنتهم، فأبوا وأبى زياد أن يعطيهم إياها، واختلفوا فارتدت بنو وليعة، وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم على ردهم، فأظهروا الشماتة بموته صلى الله عليه وسلم، وغنت بناياهم وخضبن أيديهن له، فأقر أبو بكر زياداً على حضرموت، وأمر بأخذ البيعة له على أهلها، واستفاء صدقاهم فبايعوه غير بني وليعة، ثم خرج يقبض الصدقات من بني عمرو بن معاوية، فأخذ ناقة لغلام لهم، فهتف بمسروق بن معد يكرب، فقال لزياد أطلقها، فأبى، فقال مسروق:

تطلقها شيخ بخديه شيب ملمعاً فيه كتلميع الثرب

ماض على الريب إذا كان الريب

وقال للغلام: قم فأطلقها، فلما قام أمر زياد بحبسه، فاجتمعوا على حرب زياد، فبيتهم زياد وهم غارون، فقتل وليعة في جماعة كثيرة، ونهب وسبى، ولحق من نجا منهم بالأشعث، فاستنصره على زياد فقال: لا أنصركم حتى تملكوني عليكم، فملكوه وتوجوه، فخرج في جمع كثيف، فكتب أبو بكر إلى المهاجر بن أمية - وهو بصنعاء - أن يسير بمن معه إلى زياد، فاستخلف على أن يترلوا على حكم أبي بكر، فأرسلوا هانئ بن مسروق بن معدي وقتل مروان، ولجأ الباقون إلى حصن بجير، فحاصرهم المسلمون، فصالحوهم على أن يترلوا على حكم أبي بكر، فأرسلوا هانئ بن مسروق بن معدي كرب، وزرعة بن قبيسة إلى أبي بكر ووقتوا لهما وقتاً، فكتب معهما أبو بكر إلى زياد والمهاجر، إذا أتاكم كتابي، و لم تحدثوا في القوم شيئاً، فخلوا سبيلهم، على أن يقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، وأخرج معهما المغيرة بن شعبة، فلقيهما رجل فقال لهما: قد هزم المهاجر، فكتما المغيرة الخبر، وتباطأا، فقال الأشعث لأصحابه: أرى صاحبيكما لا يرحبهان بخير، فصالح الأشعث المسلمين على أن يؤمنوا منهم عشرة، وكتب في ذلك كتاباً، فقال له الحفشيش: تكتب نفسك وتدعمي، والله لتمحون اسمك وتثبت اسمي، ففعل خوفاً منه، واستترل القوم، وأخذت أسلحتهم، وقالوا للأشعث: أعزل العشرة، فتركوهم وقتلوا الباقين، وكانوا سبعمائة وقيل: ثمانمائة، وقطعوا أيدي النساء اللاتي شمتن بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأرادوا قتل الأشعث فقال: أترون إني طلبت لغيري وتركت نفسي، قال: هو ما ترى، قال: أصيروا حكمي إلى أبي بكر، فحمل إلى المدينة في الحديد، فعفا عنه أبو بكر وزوجه أخته أم فروة، وكانت مكفوفة فولدت محمداً وإسماعيل، وإسحاق، فخرج الأشعث إلى السوق، فما مر ببعير ولا شاة ولا بقرة إلا عقرها، فصرخ الناس، وجاءوا إلى أبي بكر بخبره، فأنكره، فقال: يا خليفة رسول الله أنا رجل غريب، وقد أولمت بها، وأثمانها في مالي، فدفع أثمانها.

قالوا: وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أسامة أسود أفطس، فقال أهل اليمن: ألهذا الحبشي جيشنا فارتدوا بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أول من ادعى نصرة أهل البيت: المختار بن أبي عبيد الثقفي، وهو أول من نال الرئاسة بالحيلة في الإسلام.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أبي أحمد، عن عيسى بن دينار قال: سألنا أبا جعفر عن المختار قال: كان كذاباً يكذب على الله ورسوله، ولكنه أول من نصرنا، ومن مليح حيله ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي بكر الهزلي، عن الأصمعي قال: أراد محمد بن الحنفية أن يقدم الكوفة أيام المختار، وكان المختار يدعو إليه ويزعم أنه أمره، فبلغ المختار ذلك فقال: إن في المهدي علامة أن يضربه رجل في السوق ضربة بالسيف فلا يضره، فلما بلغ ذلك محمداً أقام، وإنما قال ذلك لعلمه أن محمداً إذا ورد الكوفة لم يكن للمختار فيها معه أمر.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن رجاله قال: قال المختار: أي عبد بايعنا فهو حر، فسمعها عبد الله بن الزبير فقال: كان يقول: أني أعرف كلمة لو قلتها كثر تبعي، وهي هذه الكلمة.

قال أبو هلال- أيده الله- أحب الزنج وبنى أمره على هذا فاستمال العبيد.

وكان المختار لا يقرأ حرفاً من القرآن، وكان يصلي بالناس صلاة النهار ولا يصلي بهم صلاة الليل، فاتهموه فكانوا يقرؤون خلفه.

أخبرنا بإسناده عن أبي زيد، عن رجاله، عن طفيل بن جعدة بن هبيرة قال: رأيت لجار لنا زيات كرسياً قد شربه الزيت وركبه وسخ كثير، وكنت قد أعدمت، فأخذته منه وجئت المختار، فقلت: كنت أكتمك شيئاً ثم لم أستحل ذلك، معنا كرسي كان جعدة بن هبيرة يجلس عليه يرى أن فيه أثره من العلم، قال: سبحان الله! أفأخرته إلى اليوم! ابعث به، فبعثت به وقد غسل فخرج عود نضار أبيض، فغشاه وأمر لي باثني عشر ألف درهم وخطب فقال: لم يكن في الأمم الخالية أمر إلا كان في هذه الأمة، وكان في بني إسرائيل التابوت، وفيكم هذا الكرسي، اكشفوا عنه، فكشفوه فكبر الناس، ثم أقبل عبيد الله بن زياد يريد قتاله، فقال لإبراهيم بن الأشتر: أمرني جبريل أن أوليك حربه، فخرج في اثني عشر ألفاً وقال له: سيكون لأصحابك جولة، فلا تروعنك، فعندها نزول الملائكة لنصري، ودفع إلى مولاه طيوراً بيضاً وقال: كن من ورائهم، ولا يعلمن بك أحد، فإذا التقوا وجالوا فأرسلها، ففعل، وخرج إبراهيم، ومعه الكرسي على بغل يمسكه سبعة عن يمينه وسبعة عن يساره، فقتل من أهل الشام مقتلة عظيمة، وازدادت فتنتهم بالكرسي، وقتل إبراهيم عبيد الله بن زياد وهو لا يعرفه، فلما أصبحوا رأوه فاحترزوا رأسه، وحمله

إبراهيم إلى المختار، فوضعه بين يديه وهو يتغدى، فقال: الحمد لله، وكان قد وضع رأس الحسين عليه السلام بين يدي ابن زياد، وهو يتغدى ثم بعث به المختار إلى ابن الحنفية، فأرسله ابن الحنفية إلى علي بن الحسين، فوصل إليه وهو يتغدى فقال: الحمد لله! دخلت على ابن زياد، وبين يديه رأس أبي وهو يتغدى، وأتى ابن الزبير بالرأس، ووضع بين يديه، فخرجت حية من تحت الأستار فأخذت بأنفه، فأمر به وألقي في بعض شعاب مكة، ثم سار مصعب من البصرة يريد قتال المختار، فأخرج إليه جيشاً فهزمهم مصعب، وجاء فخرج إليه المختار، فقاتله وانهزم وتمثل:

كل بؤس ونعيم زائل ... ويتات الدهر يلعبن بكل

والعطيات شتات بينهم ... وسواء قبر مثر ومقل

ودخل القصر، ومعه خمسة آلاف من أصحابه، فحاصرهم مصعب، فتمثل المختار بشعر غيلان بن سلمة:

فلو رآني أبو غيلان إذ حسرت ... عني الأمور إلى أمر له طبق

لقال رغب ورهب أنت بينهما ... حب الحياة وهول النفس والشفق

أما مسيف على مجد ومكرمة ... أو أسوة لك فيمن تهلك الورق

ثم قال لأصحابه: اخرجوا فقاتلوا، فأما أن تظفروا وتموتوا كراماً خير لكم من أن يخرج غداً كل رجل منكم فتضرب عنقه وأنتم تنظرون، فأبوا، فقال: وإني لا أعطي بيدي وخرج في نفر يسير، فقاتل حتى قتل، والمختار أول من لبس الدراريع السود بالعراق.

أول من رفع صوته بالتهليل بعد الصلاة مصعب بن الزبير: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن معاوية، عن عمرو، وعن زائدة، عن عطاء بن السائب، عن أبي البحتري قال: مر عبيدة بالمسجد فسمع مصعباً حين فرغ من الصلاة يقول: "لا إله إلا الله وحده لا شريك له" يرفع صوته بها فقال: ما له؟ قاتله الله! إنه لغار بالبدع، ثم صار هذا سنة في العامة يفعلونها، إلا أنهم يقولون في آخر الصلاة: يا رب يا رب! أول من مشى خلف الجنازة بلا رداء بالعراق مصعب بن الزبير: مشى كذلك لف جنازة الأحنف، وقالوا: قدامها.

أخبرنا أبو أحمد عن الجوهري، عن أبي زيد، عن يحيى بن كثير، عن قرة بن خالد، عن أبي الضحاك قال: رأيت مصعب بن الزبير يمشي قدام جنازة الأحنف في قميص واحد، وهو أمير العراق، وكان الأحنف مكيناً منه، قال أبو زيد: كان ابن عصيفير محبوساً بمائة ألف، فبلغه أن مصعباً يريد الكوفة، فأمر رجلاً أن يقسم ألا نزل الأحنف في طريقه، ويترله داره إذا قدم ففعل، فكلم الأحنف فيه مصعباً، فقال: عليه مائة ألف، فقال: مثلك أيها الأمير يسألها؟ ومثلي سألها ومثله تركت له، فقال: هي لك ومثلها، فلما أحرزها

الأحنف جعلها لابن عصيفير.

وكلّم الأحنف مصعباً في عبد الله بن الحر، وكان محبوساً، فأطلقه، فقال ابن الحر: ما أدري بم أكافئك، إلا أني أقتلك فتدخل الجنة وأدخل النار، فقال: لا حاجة لي في مكافأتك، وكان مصعباً من أحسن الناس وجهاً وأسخاهم كفاً وأشجعهم قلباً، وكان أحب عمال العراق إلى الناس للينه في موضع اللين وشدته في موضع الشدة، وكان أمر أخيه عبد الله مستقيماً حتى قتل، فاضطرب أمره وانحل نظامه والذي أنكر على مصعب، وهجن أمره، أنه أمن أصحاب المتار، وهم خمسة آلاف، فلما خرجوا إليه قتلهم، فقال له عبد الله بن عمر: لو أن رجلاً أتى غنماً للزبير فذبح في غداة واحدة خمسة آلاف، أكنت تراه مسرفاً؟ قال: نعم. واستحيى وقتل عمرة بن النعمان بن بشير زوجة المختار فقال عمر بن أبي ربيعة:

إن من أعجب العجائب عندي ... قتل بيضاء حرة عطبول

كتب القتل و القتال علينا ... وعلى المحصنات جر الذيول

وبقي مصعب أميراً على العراق حتى صار إليه عبد الملك فقاتله، فأسلمه أهل العراق، وتفرقوا عنه، فبقي في سبعة، فأمنه عبد الملك، وضمن له أن يوليه العراق فقال: إن مثل هذا الأمر لا ينكشف عن مثلي إلا وهو غالب أو مقتول، فأمن أهل الشام ابنه عيسى، فقال له مصعب: صر إليهم فقد أمنوك فقال: لا تتحدث نساء قريش أني قد أسلمتك، قال: فتقدم احتسبك، فتقدم فقتل بين يديه، وشد على مصعب عبد الله بن زياد بن ظبيان، وشد عليه مصعب، فضربه فهشم رأسه، فرجع وعالجه، وجاء وشد عليه وزرقه زائده فصرع، ونزل ديامي - مولى عبد الله بن زياد بن ظبيان - واحتز رأسه، وحمله عبد الله بن زياد إلى عبد الملك فلما رآه سجد، فقال عبد الله: ندمت ألا أكون ضربت رأس عبد الملك حين سجد، فأكون قد قتلت ملكي العراق وتركتها تضطرب، فقال الأقيشر يرثي مصعباً:

والله ما حدثت قائد جحفل ... عند الوغى متقلب الأزوال

أمضى وأكرم مشهداً من مصعب ... لولا تقارب مدة الآجال

وكان لمصعب يوم قتل نيف وثلاثون سنة.

أول من أطاف الناس حول الكعبة للصلاة الحجاج بن يوسف: أخبرنا أبو أحمد، عن أبي زيد، عن خالد بن عبد العزيز قال: سمعت أبا محمد يقول: إن رجلاً من أهل مكة يذكر أن الحجاج أول من أطاف الناس حول الكعبة للصلاة، وكانوا يصلون صفاً، فقال طاووس: كأنا كنا عن هذا عمياً، وهو أول من اتخذ المحامل.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن معاوية، وعن المدائني، وأخبرنا عن غير هؤلاء قال: أول من ركب المحامل الحجاج، وكان المحمل صغيراً مثل محمل اللبن، فرآها رجل يقال له ضب فقال:

كيف نراها بالفجاج تنهض	بالغيد ليلاً والحداة تقبض
حرض عليهن السقيف النغض	والخشب المأسور والمعرض
فيها علوج كالحمير ربض	ذاك وإن قيل الفداء أعرضوا

وقال الشاعر:

أخز مليك الناس خزياً عاجلا	أول عبد أحدث المحاملا
عبد ثقيف كان أرلا آرلا	

وكان مكحول يقول: إن في المحامل نعمة.

وهو أول من أجرى في البحر السفن المقيرة، غير المخذورة- المدهونة والمسطحة- غير ذات المناحي.

وهو أول من نقش على يد كل رجل اسم قريته، ورده إليها وأخرج الموالي من بين العرب فقال الراجز:

جارية لم تدر ما سوق الإبل	أخرجها الحجاج من كنّ وظل
لو كان بدر حاضراً وابن جمل	ما نقشت كفاك في جلد جمل

وقال آخر لنوح بن دراج حين استقضى على الكوفة:

يا أيها الناس قد قامت قيامتكم	إذ صار قاضيكم نوح بن دراج
لو كان حياً له الحجاج ما سلمت	كفاه ناجية من نقش حجاج

وكان الذي دعاه إلى ذلك أن أكثر القراء والفقهاء كانوا من الموالي، وكانوا جلّ من خرج عليه مع ابن الأشعث. فأراد أن يزيلهم من موضع الفصاحة والأدب، ويخلطهم بأهل القرى فيحمل ذكرهم، وكان سعيد بن جبير منهم- كان عبد رجل من بني أسد اشتراه من ابن العاص فأعتقه- فلما أتى به الحجاج قال: يا شقي بن كسير، أما قدمت الكوفة، وليس بها عربي؟ واستقضيت أبا بردة بن بردة بن موسى، وأمرته ألا يقطع أمراً دونك؟ وجعلتك في سماري وكلهم من رؤوس العرب؟ وأعطيتك ألف ألف درهم تفرقها في أهل الحاجة لم أسألك عن شيء منها؟ قال: بلى. قال: فما أخرجك عليّ؟ قال: بيعة لابن الأشعث كانت في عنقي. فغضب وقال: أفما كانت بيعة أمير المؤمنين في عنقك من قبل؟ والله لأقتلنك!

قال: إني إذاً كما سميت سعيد، دعني أصلي ركعتين؟ قال: ولوه إلى قبلة النصارى، قال سعيد: "فأينما تولوا فثم وجه الله" ثم بطح على الأرض، فقال: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم" ومدت عنقه فضربت، فاختلط عقل الحجاج في الحال، فقال: قيدونا، فظنوا أنه يريد القيود التي في رجل سعيد، فقطعوا ساقيه، وأخرجوا القيود، وما زال الحجاج مختلط العقل حتى مات بعد أيام قلائل، وما قتل بعده أحداً وقالوا: عناه جرير بقوله:

يا رب ناكث بيعتين تركته وخضاب لحيته دم الأوداج

وكان الحجاج إذا نام رأى سعيداً متعلقاً بثوبه، ويقول له: يا عدو الله، فينتبه ويقول: ما لي ولسعيد بن جبير.

وكان لسعيد يوم قتل، سبع وأربعون سنة، وقيل خمس وأربعون. والحجاج أول من حمل الثلج، وأول من أطعم على ألف مائدة على كل مائدة عشرة رجال. وعليها شواء وثريدة وسمكة وبرنية فيها عسل، وكان يقول للناس: رسولي إليكم الشمس فإذا زالت فاغدوا لغدائكم، وإذا جنحت فروحوا لعشائكم وكان لا يطعم إلا شامياً، وهو أول من أجاز بألف ألف درهم، أجاز الجحاف السلمي فيما حمل من دماء بني تغلب، وهو أول من قعد على سرير في حرب، وروي أن مصعباً كان يقاتل أهل الشام ومعه سبعة، وكان يكر عليهم فينفرجون عنه. فيجلس على مرفقة فيروحون إليه، فيعود إليهم فيتفرقون عنه، ويجلس على المرفقة، فما زال ذلك دأبه حتى رزقه زائدة فصرع.

ومن كلام الحجاج وهو من أوائل المعاني، ما أخبرنا به أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن معاوية، عن محمد بن حرب، عن الشعبي قال: صعد الحجاج المنبر، فتكلم بكلام لم أسمعه من أحد قبله ولا بعده، قال: أيها الناس كتب الله على الدنيا الفناء، فلا بقاء لما كتب الله عليه الفناء، وكتب على الآخرة البقاء، فلا فناء لما كتب الله عليه البقاء، فلا يغرنكم شاهد الدنيا عن غائب الآخرة، واقصروا الأمل لقصر الأجل، وقال: رأيت الصبر عن محارم الله، أيسر من الصبر على عذاب الله، وقال يوماً: لولا أهوال يوم القيامة لكان يوماً نزهاً.

أول من قتل الحجاج بالعراق عمرو بن ضابئ البرجمي: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أبي عاصم، عن عوف، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الأنباري، عن أبيه، عن أحمد بن أبي عبيد، عن محمد بن زياد بن ريان الكلبي، عن عبد الملك بن عمير قالوا: كان عمر وعثمان يعاقبان على الهجاء فاستعار ضابئ من قوم كلباً يقال له: فرحان. فأرادوا أخذه منه فقال:

تجشم نحوي وفد فرحان شقه تظل بها الوجناء وهي حسير

فراحوا بكلب مردقية كأنما حباهم بتاج المرزبان أمير

فأمكم لا تتركوها وكلبكلم فإن عقوق الوالدين كبير

إذا غبرت من آخر الليل دخنة يظل لها فوق الفراش هرير

فاستعدوا عليه عثمان بن عفان، فقال له: ويلك رميت أم قوم بكلبهم، لو كنت في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. لترل فيك قرآن، فضربه وحبسه، ثم عرض عليه، فوجد عنده خنجراً أراد أن يغتال به عثمان، فرده إلى الحبس فقال:

هممت ولم أفعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

وما ألفيتك ما أمرت فيه ولا الذي تحدث من لاقيت أنك فاعله

وما الفتك إلا لامرئ ذي حفيظة إذا هم لم ترعد عليه خصائله

فمات ضابئ في الحبس، فلما قتل عثمان جاء عمير بن ضابئ البرجمي فوطئه، وقالوا: لطمه، قال عبد الله بن عمير: فلما اشتدت شوكة أهل العراق وطال توثبهم بالولاة، خطب عبد الملك الناس فقال: إن العراق قد علا لهبها، وسطع وميضها، وعظم الخطب بها، فجمرها زكي، وشهابها ورى، فهل من رجل ذي سلاح عتيد، وقلب شديد، فينتدب لهم؟ فيخمد نيرانها ويبيد شبابها، فسكت الناس، فوثب الحجاج فقال: أنا أمير المؤمنين للعراق، فقال: ومن أنت؟ قال: أنا الحجاج بن يوسف الثقفي ابن أبي الحكم بن عقيل بن مسعود صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعظيم القريتين، فقال: اجلس فلست هناك، وأطرق عبد الملك ملياً، ثم رفع رأسه فقال: من للعراق؟ فسكت الناس، ووثب الحجاج، وقال أنا يا أمير المؤمنين. قال: ومن أنت؟ قال: من قوم رغبت في مناكحتهم قريش، و لم يتأبوا منهم. وإعادة الكلام مما ينسب صاحبه إلى العي، ولولا ذلك لأعدت الكلام الأول، فقال: اجلس، فلست هناك، وأطرق ثم رفع رأسه وقال: من للعراق؟ فسكت الناس، فقال: ما لي أرى الليوث قد أطرقت. ولا أرى أسداً يزئر نحو فريسته، فسكتوا، ووثب الحجاج فقال: أنا للعراق يا أمير المؤمنين. قال: وما الذي أعددت لأهلها؟ قال: ألبس لهم جلد النمر، ثم أخوض الغمرات، وأقتحم الهلكات، فمن نازعني طلبته، ومن لحقته قتلته بعجلة وريث وابتسام وازورار، وطاقة واكفهرار، وشدة ورفق، وصلة وحرمان، فإن استقاموا كنت لهم ولياً حفياً، وإن خالفوا لم ابق منهم طودياً ولا عليك أن تجربني، فإن وجدتني للطلى قطاعاً، وللأرواح نزاعاً، وللأموال جماعاً، وإلا فاستبدل بي، فإن الرجال كثير. فقال عبد الملك، أنت بها، وقال لكاتبه: أكتب له عهده ولا تؤخره، وأعطه من الرجال والكراع والأموال ما سأل.

قال عبد الملك بن عمير: بينا نحن جلوس في المسجد الأعظم بالكوفة إذا أتانا آت فقال: هذا الحجاج بن يوسف، قد قدم أميراً على العراق فاشرأب نحوه الناس، وأفرجوا له إفراجة عن صحن المسجد، فإذا نحن به يتبهنس في مشيته، عليه عمامة خز حمراء، منتكباً قوساً عربية، يؤم المنبر، فما زلت أرمقه ببصري حتى صعد المنبر، فجلس عليه، وما يحدر اللثام عن وجهه، وأهل الكوفة حينئذ لهم حال حسنة، وهيئة جميلة، وعز ومتعة، يدخل الرجل منهم المسجد ومعه عشرة أو عشرون من مواليه، عليهم الخزور والفوهية، وفي المسجد رجل يقال له: عمير بن ضابئ البرجمي، فقال: لمحمد بن عمر التميمي، هل لك أن أحصبه؟ قال: لا حتى أسمع كلامه، فقال: لعن الله بني أمية! يستعملون علينا مثل هذا، ولقد ضيع العراق حين يكون مثل هذا أميراً عليه، والله لو كان هذا كله كلاماً ما كان شيئاً، والحجاج ينظر يمنة ويسرة، حتى غص المسجد بأهله، فقال: يا أهل العراق! إني لا أعرف قدر اجتماعكم إلا اجتمعتم، قال رجل: نعم- أصلحك الله- فسكت هنيهة لا يتكلم، فقالوا: ما يمنعه من الكلام إلا العي والحصر، فقام فحدر لثامه، وقال: يا أهل العراق! أنا الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود.

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا ... متى أضع العمامة تعرفوني

صليب العود من سلفي نزار ... كنصل السيف وضاح الجبين

وماذا تزدري الشعراء مني ... وقد جاوزت سن الأربعين

أخو خمسين مجتمع أشدّي ... ونجد من مداولة الشؤون

وإني لا يعود إليّ قرني ... غداة العبء إلا في قريني

والله يا أهل العراق إني لأرى رؤوساً قد أينعت وحان قطافها، وإني لصاحبها، والله لكأني أنظر إلى الدماء بين العمائم واللحى.

هذا أوان الحرب فاشتدي زيم ... قد لفها الليل بسواق حطم

لبس براعي أبل ولا غنم ... ولا بجزار على ظهر وضم

وقال:

قد لفها الليل بعصلبيّ ... وشمّرت عن ساق سمّري

أروع خراج من الدويّ ... مهاجر ليس بإعرابيّ

وقال:

ما علتي وأنا شيخ جلد ... والقوس فيها وتر عرد

مثل جران العود أو أشد

ويروي: مثل جران البكر أو أشد. ثم قال: والله يا أهل العراق، ما يغمز جانبي كتغماز البعير، ولا يقعقع لي بالشنان، ولقد فزرت عن ذكاء، وفتشت عن تجربة، وأجريت من الغاية، وإن أمير المؤمنين عبد الملك نثل كنانة بين يديه، فعجم عيدانها عوداً عوداً، فوجدني أمرّها عوداً، وأشدها مكساً، فوجهني إليكم، ورماكم بي. يا أهل الكوفة، يا أهل النفاق والشقاق ومساوئ الأخلاق، إنكم طالما أوضعتم في الفتنة، واضطجعتم في مناخ الضلال، وسننتم سنن العي، وأيم الله لألحونكم لحو العود، ولأقرعنكم قرع المروة، ولأعصبنكم عصب السلمة ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل، إني والله لا أحلق إلا فريت، ولا أعد إلا وفيت، إياي وهذه الزرافات، وقال وما يقول، وكان وما يكون، وما أنتم وذاك؟.

يا أهل العراق! إنما أنتم أهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرتم بأنعم الله، فأتاها وعيد القرى من ربها، فاستوسقوا واعتدلوا، ولا تميلوا، واسمعوا وأطيعوا، وشايعوا وبايعوا، واعلموا أنه ليس مني الإكثار والإبذار والأهذار، ولا مع ذلك النفار والفرار، إنما هو انتضاء هذا السيف، ثم لا يغمد في الشتاء والصيف، حتى يذل الله لأمير المؤمنين صعبكم، ويقيم له أودكم، وصغركم، ثم إني وجدت الصدق من البر، ووجدت البر في الجنة، ووجدت الكذب من الفجور، ووجدت الفجور في النار، وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وإشخاصكم لمجاهدة عدوكم وعدو أمير المؤمنين، وقد أمرت لكم بذلك، وأجلتكم ثلاثة أيام، وأعطيت الله عهداً يؤاخذني به، ويستوفيه مني، لئن تخلف منكم بعد قبض عطائه أحد لأضربن عنقه. ولينهبن ماله.

ثم التفت إلى أهل الشام فقال: يا أهل الشام! أنتم البطانة والعشيرة، والله لريحكم أطيب من ريح المسك الأزفر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: "ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء" والتفت إلى أهل العراق فقال: لريحكم أنتن من ريح الأبخر، وإنما أنتم كما قال الله تعالى: "ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار".

اقرأ كتاب أمير المؤمنين يا غلام: فقال القارئ: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عبد الملك أمير المؤمنين إلى من بالعراق من المؤمنين والمسلمين، سلام عليكم، فإني أحمد إليكم الله، فسكتوا فقال الحجاج من فوق المنبر: أسكت يا غلام، فسكت، فقال: يا أهل الشقاق، ويا أهل النفاق ومساوئ الأخلاق. يسلم عليكم أمير المؤمنين فلا تردون السلام؟ هذا أدب ابن أبيه؟ والله لئن بقيت لكم لأؤدبنكم أدباً سوى أدب ابن أبيه، ولتستقيمن لي أو لأجعلن لكل امرئ منكم في جسده وفي نفسه شغلاً، اقرأ كتاب أمير

المؤمنين يا غلام، فقال: بسم الله الرحمن الرحيم فلما بلغ إلى موضع السلام صاحوا وعلى أمير المؤمنين السلام ورحمة الله وبركاته، ودخل قصر الإمارة، وحجب الناس ثلاثة أيام، وأذن في اليوم الرابع، فدخل عليه عمير بن ضابئ، فقال: - أصلح الله الأمير - إني شيخ كبير وقد خرج اسمي في هذا البعث، ولي إبن هو على الحرب والأسفار أقوى وأشجع عند اللقاء، فإن رأى الأمير أن يجعله مكاني فعل، فقال: انصرف أيها الشيخ راشداً، وابعث ابنك بديلاً، فلما ولى قال له عنبسة بن سعيد بن العاص: أيها الأمير! أتعرف هذا؟ قال: هو عمير بن ضابئ، الذي أراد أبوه أن يفتك بعثمان، فلم يزل محبوساً عنده حتى أصابته الدبيلة فمات، ثم جاء هذا فوطئ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه، وهو مقتول، فكسر ضلعاً من أضلاعه، وأبوه الذي يقول:

هممت ولم افعل وكدت وليتني تركت على عثمان تبكي حلائله

فقال: عليّ بالشيخ، فلما أتي به قال له: أما يوم الدار فتشهده بنفسك، وأما في قتال الخوارج فتبعث بديلاً، إن في قتلك لصلاحاً لأهل المصرين، يا حرسي: أضرب عنقه. فضربت عنقه، فصاح البراجم على الباب، فقال: ارموا إليهم برأسه، فرمي به فولوا هاربين.

وكان ابن عم لعبد الله بن الزبير الأسدي، قد سأله ليشفع له إلى الحجاج ليأذن له في التخلف، فلما قتل عمير بن ضابئ خرج ولم ينتظر الإذن، فقال عبد الله بن الزبير:

أقول لإبراهيم لما لقيته أرى الأمر أمسى مقطعاً متصعبا

تجهّز فأما أن تزور ابن ضابئ عميراً وأما أن تزور المهلبا

هما خطتا خسف نجاؤك منهما ركوبك حولياً من الثلج أشهبا

وإلا فما الحجاج مغمد سيفه مدى الدهر حتى يترك الطفل أشيبا

أضحى ولو كانت خراسان دونه رآها مكان السوق أو هي أقربا

فكم قد رأينا تارك الغزو باكياً ينكب حنو السرح حتى تجنبا

فلما اتصلت الخيل والرجال بالمهلب عجب وقال: لقد ولي العراق رجل ذكي.

أخبرنا أبو أحمد، عن أبي روق، عن الرياشي، عن الأصمعي، عن أبي عمرو قال: خرج عهد عبد الملك إلى الحجاج: وليتك المصرين والفوجين وعمان والبحرين، فسر إليها قصير العذار، كبس الأزار، واضغط الكوفة والبصرة، والفوجان سجستان، والحجاج أول من حبس الرجال مع النساء في قيد واحد، ووثاق قد شد، وأمر السياسة مشتبهاً فيه بزياد، وكان من قتل أكثر ممن قتل زياداً، وهاب الناس زياداً أكثر مما

هابوا الحجاج. وذكر أنه قتل أكثر من مائة ألف رجل، أكثرهم لم يستحق القتل، ومات في حبسه إثنا عشر ألف رجل أكثرهم لم يستحق الحبس، وأخرجوا وأخرج معهم أعرابي ذكر أنه حبس سبع سنين لأنه بال في أصل ربض واسط، فلما انصرف قال:

إذا نحن جاوزنا مدينة واسط خرينا وصلينا بغير حساب

أول من ارتشى من عمال العراق ابن هبيرة: وكان نصب ظاهر العراق، وهو أعرابي أمي، وقتله المنصور بواسط، فقال أبو عطاء السندي:

ألا إن عيناً لم تجد يوماً واسط عليك بجاري دمعها لجمود

عشية قام النائحات وشققت جيوب بأيدي مأتم وخدود

أول من ضرب باب القسطنطينية بالسيف عبد الله بن طليب: وكان معه مسلمة فأخذه قيصر بعد ذلك، وأراد قتله فقال: إن قتلتني ما بقيت بيعة في بلاد الإسلام إلا هدمت، ولا نصراني إلا قتل فخلاه.

أول من عبر نهر بلخ سعيد بن عثمان بن عفان: أخبرنا أبو القاسم بإسناده، عن أبي الحسن قال: قدم سعيد بن عثمان- وأمه أم عبد الله بن عمرو بن مخزوم- وافداً على معاوية، فسأله أن يوليه العراق، فأبى، وغضب سعيد ونهض، فلما كان من الغد، صلى الغداة معه، فلما انفتل أخذ بطرف ثوبه وتمثل:

ثكلتك أمك أي سيد معشر يضع الكبير ولا يربي صغيرا

فقال معاوية: أما والله لقد أخرجتها شنعاء عظيمة، تتبعها ضحكة لا يعرق جبينك، ودخل ودعا سعيداً، فسبقه إلى الكلام فقال: أما والله لقد رقاك أبي، واصطنعك حتى بلغت الذي لا تجاري إليها، ولا تسامي فيها، فما شكرت بلاءه، ولا جازيت بآلائه، إنك قدمت على هذا- يعني يزيد- والله لأنا خير منه أباً وأماً ونفساً! قال معاوية: أما سالف بلاء أبيك فقد يحق عليّ الجزاء به، وقد كان شكري لذلك أني طلبت بدمه حتى انكشفت الأمور، ولست بلائم لنفسي في التشمير، وأما فضل أبيك على أبيه فلا ينكر، هو والله أفضل مني قدماً، وأقرب برسول الله صلى الله عليه وسلم قرابة، وأما فضل أمك على أمه فلعمري لامرأة من قريش خير من امرأة من كلب، وأما أنت وهو، فوالله لا أحب أن الغوطة دحست- أي ملئت- ويقال: ملئت دحاس إذا كان مملوءاً ناساً رجالاً كلهم مثلك لي به، فقال يزيد: يا أمير المؤمنين ابن أختك، وله حق ورحم ، وقد عتب فاعتبه، وسأل أمراً فسوغه، فولاه خراسان، فسار حتى قدم نيسابور، وكان معه مالك بن الريز فقال:

رأيت سنا نار بنيرين أوقدت ورجلي بنيسابوريا بعد منظري

ثم قطع النهر، وأول من قطعه من أصحابه رفيع أبو العالية، فيقال- سعيد- رفعة وعلا، ثم أتى سمرقند، وأقام عليها، وحلف لا يبرح حتى يدخلها، ويرمي القهندر، فخرج إليه أهلها ثلاثة أيام، فقاتلوه، فقال بعض أصحابه:

فباشر في الحرب المنايا ولا ترى لمن لم يباشرها من الموت مهربا

أخو غمرات لا يروع جأشه إذا الموت بالموت ارتدى وتعصبا

ففقئت عين المهلب بالطالقات، ثم لزم العدو المدينة فلم يخرجوا لقتاله، وطال مقامه، فدل على حصن فيه أبناء ملوكهم، فسار إليهم فحاصرهم، فخاف العدو إن ظفر بهم أن يقتلهم، فصالحوه على أن يدخل البلد، ويرمي القهندر، وأعطوه رهناء، فدخل ورماه بحجر فدخل في بعض كواته، فتطيروا منه، وقالوا: قد ثبت أمر العرب، ثم قفل حتى أتى مرو، ومعه الرهناء، وورد عليه سليمان بن فتة فحجبه و لم ياذن له، وكان سعيد بخيلاً، فهدده ابن فتة بالهجاء، فقال سعيد: يهجوني وأنا ابن عثمان بن عفان، فقال: صدق. إن الناس جميعاً ولد آدم، ذهباً وفضة ونحاساً، وهو من نحاس بني آدم، وقال يهجوه:

سألت قريشاً عن سعيد فأجمعوا عليه وقالوا معدن اللؤم والبخل

فقلت لنفسي حين أخبرت أنه بخيل ألا ليس ابن عثمان من شكلي؟

وقالت لي النفس اللجوج طماعة أليس ابن عثمان بن عفان ذا فضل؟

فقلت :بلى. كم من كريم مهذب سليل لئيم عاجز خامل الأصل

وكم من فتى كن اليدين مذمم وكان أبوه عصمة الناس في المحل

فأخضعت يأساً حين أيقنت أنه بخيل وقد ألقوا على غاربي حبلي

ووجهت عيساً نحو عمرو فأخمدت مواشكة نفراً تهيأ كالفحل

مرمد في عين الزمان كأنها حذارية سفعا تهرب من وبل

إلى ماجد الخدين سبط بنانه إذا سئل المعروف يهتز كالنصل

فألقيت عمراً لا بخيلاً بماله ولا مغلقاً باب السماحة بالقفل

ثم خرج سعيد إلى الشام ومعه الرهناء، ثم خرج إلى المدينة بهم وأخذ سيوفهم، وما كان عليهم من حرير وديباج، ومناطق الذهب والفضة، وألبسهم الصوف، وكان يستعملهم في الحرث والبناء، فاجتمعوا عليه في بيت فقتلوه وقتلوا أنفسهم، فقيل لسعيد: قتيل الصفد، قال أبو الحسن: قتلوه في مجلسه، وصاح أهله،

فركب أهل المدينة، وأطافوا بالبيت والصفد في البيت قد أغلقوه، فكشطوا ظهر البيت، فإذا هم قد قتلوه وقتلوا أنفسهم.

وقالوا: أول من شرب من نهر بلخ، مولى للحكم بن عمرو.

أول من صلى وراء النهر من المسلمين: أخبرنا أبو القاسم بإسناده، عن أبي الحسن قال: قال زياد لحاجبه: أدع لي الحكم، وهو يزيد بن الحكم بن أبي العاص، فدعا الحاجب بن عمرو بن مجدع، فلما رآه يثمن به. وقال له: صحبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فاستعمله على خراسان وقال: ما أردتك، ولكن الله أرادك، فسار حتى قدم خراسان، ففرق العمال، وغدا فقطع النهر، وكان أول من شرب منه بعد قطعه مولى له واستسقاه الحكم، فسقاه في ترسة، وصلى ركعتين، فكان أول من صلى وراء النهر. ثم قال له المهلب: النجاة أيها الأمير، فلا خير في المقام والعدو مطل عليك، ففعل، وكتب إليه زياد: إن أمير المؤمنين كتب إليّ يأمرني أن استصفي له الصفراء والبيضاء، فقال الحكم: كتاب الله قبل كتاب معاوية، والله لو كانت السموات رتقاً على عبد واتقى الله لجعل له مخرجاً، ثم قال للناس: اغدوا على غنائمكم فغدوا، فعزل الخمس وقسم الباقي بينهم، فعظم في أعين المسلمين، و لم يضره مخالفته زياداً ثم دعا يوماً فقال: اللهم إني مللتهم وملوني فأرحني منهم وأرحهم مني. فلم يلبث أن مرض ومات سنة خمسين.

أول من أمر الناس بالتناهد في الغزو الربيع بن زياد: وكان أميراً على خراسان، ولاه إياها زياد سنة إحدى وخمسين، فتوجه إليها في خمسين ألفاً، فجاشت الترك والهياطلة، بناحية قوهستان، فسار إليهم فكان الناس يتبارون في النفقات، فتعظم عليهم المؤونة، فأمرهم الربيع أن يتناهدوا، فيخرج كل واحد منهم شيئاً معلوماً، ويولونه رجلاً ثقة عليهم، فإذا نفذ أخرجوا مثله. ثم أوقع بالترك فهزمهم، ونكث أهل بلخ فغزاهم، فعادوا إلى الصلح، ودخل صاحبه على رئيسهم وطالبه بالجزية ومنعه، فقال: ما هذا؟ قال: أمرنا أن نستأدينكم بالصغار وهذا هو الصغار، وكان الربيع يقول: من أراد النجابة فعليه بجسام النساء وقصارهن كتائب الجماع.

وكان زياد معجباً بالربيع يقول: من يلومني على الربيع؟ ما ناظرته في أمر إلا وجدته قد سبق إليه، ولا أتاني منه كتاب إلا في جر منفعة للناس، أو دفع مضرة عنهم ولا سألته عن شيء إلا وجدت علمه عنده، ولا أصابت ركبته ركبتي في مسيري، ووجه الربيع عبد الله بن أبي عقيل إلى خوارزم، فقتلوه، وأصيب رجال من المسلمين ثم ظهر عليهم، فقال يونس بن سعيد:

فجاشت من قصور الريّ نفسي ... وطارت من جبال خوار رزم

وبعث الربيع إلى زياد مرزبان مرو، فلما قدم عليه أمر زياد الناس فأظهروا السلاح والعدة، فلما وصل إليه قال: كيف ترى عدتنا مع قرب عهدنا بالسلطان؟ قال: رأيت هذه العدة لمن كان قبلكم، فلما أغنت عنهم حين أدبر أمرهم، وما ضركم إذا لم تكن معكم مع إقبال دولتكم؟ قال: صدقت.

ودعا الربيع فقال: اللهم إن كان لي عندك خير، فاقبضني عاجلاً، فقد مللت الحياة، وصلى الجمعة وخرج فسقط فمات سنة ثلاث وخمسين رحمه الله تعالى.

أول من حذق الخيل، وأول من اتخذ ركب الحديد المهلب بن أبي صفرة: وكانت ركب العرب من الخشب فقال فيه الشاعر:

ضربوا الدراهم في إمارتهم وضربت للحدثان والحرب

حلقاً ترى فيها مرافقهم كمناكب الحمالة الجرب

وذلك أن الفارس يصل الراجل بركابه فيوهن مرفقه، وكان المهلب أفضل رأياً وعزيمة وكرماً وشجاعة، نظراً بالجواب، وكان يقاتل الخوارج ببعض النواحي، وقد خندق على عسكره وبقربه أجمة فدخلها يوماً، فطافها، فلما عاد، قال لأصحابه: زيدوا في عرض الخندق ذراعاً، فقالوا: لا حاجة إلى ذلك قال: لا بد منه، فزيد فيه، فلما كان الغد، رأوا شجرة طويلة قد طرحت في الخندق، وإذا العدو قد عضدوها من تلك الأجمة، وأردوا نصبها على الخندق، والعبور عليها، وكان يقول لولده: ما رأيت أحداً قط بين يدي، إلا أحببت أن يكون ثنائي عليه، واعلموا يا بني أن ثيابكم على غيركم أحسن منها عليكم، وذكر أبو تمام هذا في قصيدة يخاطب بها علي بن مرو ويستهديه فرواً.

دنا سفر والدار تنأى وتصقب وينسى سراه من يعاني ويصحب

وأيامنا خزر العيون عوابس إذ لم يخضها الحازم المتلبب

ولا بد من فرو إذا اجتابه امرؤ غدا وهو سام في الصنابر أغلب

أمين القوى لم تحصص الحرب رأسه ولم ينض عمراً وهو أبيض أشيب

قال أبو هلال: يقول: لم يطل لبسه وهو أسود لأنه إذا كثر بياضه كان أسرى له:

يسرك يأساً وهو غير معمر ويعتد للأيام حين يجرب

تظل البلاد ترتمي بضريبها وتشمل من أقطارها وهي تجنب

قال أبو هلال: يقول: إذا صارت الريح شمالاً ذموا صاحبها، فكان الريح جنوباً:

إذا البدن المقرور ألبسه غدا له راشح من تحته يتصبب

إذا عد ذنباً ثقله منكب امرئ	يقول الحشا إحسانه حين يذنب
يراه الشفيف المرثعن فينثني	حسيراً وتغشاه الصبا فتنكب
إذا اليوم أمسى وهو غضبان لم يك	ن طويلاً مبالاة به حين يغضب
كأن حواشيه العلى وخصوره	وما انحط منه جمرة تتلهب
فهل أنت مهديه لمثل شكيره	من الشكر يعلو مصعداً ويصوب
له زئير يحمي من الذم كلما	تجلببه في محفل متجلبب
فأنت العليم الطب أي وصية	بها كان أوصى بالثياب المهلب

أول من اتخذ سفندروري فيروز حصين: سمعت أبا أحمد رحمه الله يقول: قال الجاحظ: لما حرم الحجاج آنية الذهب والفضة أن يؤكل فيها ويشرب، قال فيروز:- وكان من أشرف أبناء ملوك فارس- في أي الآنية آكل وأشرب؟ قيل: في آنية القوارير. قال: تلك يعمل منها المحاجم، لا أهنى بأكل وشرب فيها، ثم خلط الذهب والفضة بالنحاس، وسماه سفندروري، واتخذ منه آنية يأكل فيها ويشرب، وكان فيروز من أجلاء الموالي، وكان له محل في الفرس، وفضل في نفسه.

أخبرنا أبو أحمد قال: أخبرنا أبو إسحاق العبشمي قال: أخبرنا محمد بن يزيد قال: كان فيروز حصين جيد البيت في العجم، كريم المحتد، مشهور الآباء، فلما أسلم والي حصين ابن أبي حر العنبري، فنسب إليه، وكان جواداً شجاعاً نبيل الصورة، ومن محاسنه، إن الحجاج لما حارب ابن الأشعث نادى منادي الحجاج، من أتاني برأس فيروز فله عشرون ألف درهم، ففصل فيروز من الصف، وصاح، من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا فيروز حصين، وقد عرفتم مالي ووفائي فمن أتاني برأس الحجاج فله مائة ألف درهم، فقال الحجاج: فوالله لقد تركني كثير التلفت وأنا بين خاصتي، ثم أنه أتى به بعد ذلك إلى الحجاج، فقال: يا فيروز! بذلت في رأس أميرك مائة ألف درهم؟ قال: قد فعلت، قال: والله لأمدنك ثم لأسلخنك! أين المال؟ قال: عندي، فهل إلى الحياة من سبيل؟ قال: لا. قال: فأخرجني إلى الناس حتى أجمع لك، فلعل قلبك لن يرق عليّ! ففعل الحجاج ذلك، فخرج فأحل الناس من ودائعه، وأعتق رقيقه، وتصدق بماله، ثم رد إلى الحجاج فقال: الآن اصنع ما شئت، فشد في العصب الفارسي ثم شرح لحمه، ثم نضح بالخل والملح فما تأوه حتى مات؟.
وقريب من هذا؛ ما أخبرنا به أبو أحمد قال: أخبرنا أبو إسحاق قال: أخبرنا محمد بن يزيد قال: حدثني مسعود بن بشر قال: قال محمد بن المنتشر الهمداني: دفع إلى الحجاج أزاد مرد بن الهزير، وأمرني أن

أستخرج منه وأغلظ عليه، فقال لي: يا محمد إن لك شرفاً وديناً وإني لا أعطي على القوة شيئاً، فاستأذني في رفق، ففعلت، فأدى إليّ في أسبوع خمسمائة ألف درهم. فبلغ ذلك الحجاج، فأغضبه وانتزعه من يدي، ودفعه إلى رجل كان يتولى له العذاب، فدق يديه ورجليه، و لم يعطهم شيئاً، قال محمد: فإني في السوق يوماً فإذا صائح ينادي بي، يا محمد! فإذا هو معرض على بغل مدفوق اليدين والرجلين، فخفت الحجاج أن آتيه، فدنوت منه وملت إليه، فقال: إنك وليت مني ما ولي هذا فأحسنت، وإنهم صنعوا بي ما ترى، و لم أعطهم شيئاً، ولي عند فلان خمسمائة ألف درهم. فخذها فهي لك، فقلت: ما كنت لآخذ على معروفي شيئاً، ولا أرزئك على هذه الحال شيئاً، قال: فأما إذا أبيت فاسمع أحدثك.

حدثني بعض أهل دينك، عن نبيك أنه قال: إذا رضي الله عن قوم أمطرهم المطر في وقته، وجعل المال عند سمحائهم، واستعمل عليهم خيارهم، وإذا سخط عليهم استعمل عليهم شرارهم وجعل المال عند بخلائهم، وأمطرهم المطر في غير حينه، قال: فانصرفت، فما وضعت ثوبي حتى وافاني رسول الحجاج، فدخلت إليه والسيف بيده فقال: ما كان من حديث الخبيث؟ فقلت: أيها الأمير! ما غششتك منذ استصحبتني، وما كذبتك منذ استخبرتني، ولا خنتك منذ ائتمنتني، ثم حدثته الحديث، فلما صرت إلى ذكر الرجل الذي عنده المال، أعرض عني وأومأ إليّ بيده، وقال: إن للخبيث نفساً وقد سمع الأحاديث.

أول من اتخذ الدفاتر للحساب في الديوان خالد بن برمك: وكان قبل ذلك في أدراج، وهو أول من رسم ديوان الخيل على ما هو عليه اليوم، ووجدت بخط أبي أحمد لما استخلف الصفاح أقر خالد بن برمك على ما كان إليه من أمر الغنائم وقسمها، وضم إليه ديوان الخراج والجند فحسن أثره وكان الديوان صحفاً مدرجة، فجعلها دفاتر فخض بأبي العباس وعرض إليه بعد أبي سلمة، وقال الشاعر في آل برمك:

وزارة تشغل عقد العاقد ... ورثتموها عن أبيكم خالد

قد أحكمت بالشد والوطائد ... للولد الغابر بعد الوالد

قال إبراهيم السندي: كان خالد بن برمك مع قحطبة، وقد نزل قريباً من العدو في حرب، فنظر خالد إلى الصحراء وقال: أيها الأمير! ناد في الناس بالركوب والاستعداد للحرب قال: وما ذاك؟ ثم طلع سرعان حبل العدو، فصادفوا منهم هيئة واستعداداً، فدفعوهم، فعجب قحطبة وقال: كيف عرفت ذلك؟ قال: رأيت الوحش مقبلة إلينا فعرفت أنها لم تصل إلى غير شأنها إلا الجيش قد غص الفضاء، وملأ الصحراء، قال: أمتعني الله بك، فلولا فطنتك لاصطلمنا.

وهو أول من سمى سؤال الملوك رواداً.

وجدت في خطبة بعض الشيوخ. صار عبد الله بن شريك النميري في جملة من أهل البيوتات، إلى خالد بن برمك يستميحه فقالوا له: قد حضر سؤالك فقال: إني والله استقبح لهم هذا الإسم، وقال: رأيت أن أسميهم رواداً. فقال عبد الله بن شريك: والله ما ندري أي يديك عندنا أجل، صلتك أم تسميتنا؟ وقال يزيد بن خالد الكوفي:

حذا خالد في بذله حذو برمك ... فليس له في الباذلين عديل

وكان بنو الآمال يغزون قبله ... إلى اسم على الإعدام فيه دليل

يسمون بالسؤال في كل موطن ... وإن كان فيهم فاضل وجليل

فسماهم الزوار ستراً عليهم ... كذاك فعال الأنبلين نبيل

وكان خالد بن برمك يأمر بإجراء الإنزال على من يقدم عليه من الزوار، ويتعاهدهم بأنواع التحف، ويترلهم المنازل الواسعة، فإذا تراخت أيام الواحد منهم، أمر له بجارية ناهد بكر. فقدم عليه أبو جيش النمري وأنشده شعراً منه:

وما أنا إذ زرت الأغر ابن برمك ... من الناهد البيضاء بالمتباعد

وزير أمير المؤمنين ومن له ... يد فضلت في الجود كل مجاود

فقال: لا تنصرف إلا وهي معك، وكان وقت العشاء الآخرة، وقال لوكيله: أحضر وصيفة بيضاء ناهداً، قال: من أين لي ذلك في هذا الوقت؟ قال: لا بد، وكان لا يراجع، قال: فجئته بوصيفة كانت لي، فدفعتها إليه واحتسبتها بثمنها لي.

وقيل، إن المساور بن النعمان- وكان على كورة فارس- أول من سمى السؤال زواراً، وأنشدوا:

إن المساور أعطى اللائذين به ... مع اللهى أحسن الأسماء للبشر

كانوا يسمون سؤالاً فصيرهم ... دون البرية زواراً ولم يجر

أول من اتخذ الجربانات العراض جعفر بن يحيى: وكان طويل العنق، فأراد أن يسترها بعرض الجربان، ومدح أبو نواس يحيى بن خالد فأراد أن يجيزه بجائزة سنية فمنعه جعفر لميلة كانت إلى أبان الملاحقي، وكان أبانا يعادي أبو نواس، فقال أبو نواس يهجوه:

قالوا امتدحت فماذا اعتضت قلت لهم ... خرق النعال وأخلاق السرابيل

قالوا فسمّ لنا الممدوح قلت لهم ... أو وصفه يعدل التفسير في القيل

ذاك الأمير الذي طالت علاقته ... كأنه ناظر في السيف بالطول

وقال فيه:

عجبت لهارون الإمام وما الذي يرى ويرجي منك يا خلقة السلق

قفا خلف وجه قد أطيل كأنه قفا ملك يقضي الهموم على بثق

وأعظم زهواً من ذباب على خرا والأم من كلب عقور على عرق

قال أبو هلال: وقد ظلمه قبحه الله! فما كان في الأرض أفضل من برمك وبنيه، ولا أتم آله في كل فضيلة منهم، ولكن للشاعر كذبه، وقد قيل:

وإنما الشاعر مجنون كلب أكثر ما يأتي علي فيه الكذب

ووجدت بخط بعض العلماء قال إسحاق الموصلي: ولد لي مولود فحمل إليّ عبد الله بن مالك عشرة آلاف درهم وقال: اصرفها في ثمن ظئر، فقبضتها ثم جئته يوماً فاحتبسني، وأحضر الطعام والشراب وقال: لم لم تنبسط عندنا كانبساطك عند غيرنا؟ قلت: كأنك تريد البرامك؟ قال: إياهم أردت، قلت: فاسمع حديثاً من أحاديثهم، قال: هات، قلت: كنت في ابتداء أمري في مترل ضيق، ولي حمار ليس له مربط، فكنت أربطه في دهليز فأتأذى بأقّذاره، فوقف يحيى بن خالد على ذلك، فقال: أن لوما بنا أن يكون من نخصه ونوده ليس له مترل يصح أن زوره فيه عند توانيه، ودعا بوكيل له وقال: أبن لأبي محمد داراً تصلح أن نجتمع معه فيها، فأومأت إلى عدة دور حوالي، فأحضر أربابها، وأوقفهم على أثمانها، وانصرف ليحمل لي المال، فحضرته من الغد ودعاهم فقالوا: جاء البارحة رجل أصفهاني ووقانا وأشهد علينا، وما شككنا أنه رسولك، ونحن في ذلك إذ حضر الأصفهاني، ومعه الفعلة، وأخذوا في الهدم، فاغتممت غماً لا كفاء له، وقلت للوكيل: تبتاع من الجانب الآخر. وابتعنا دويرتين وامتنع بقية جيراني من بيع دورهم، فجعلت أبني داراً صغيرة، وجعل الأصفهاني يبني داراً ليس لها نظير حسناً وسعة ونفاساً، وجعل يسابقني إلى ما أريد، من باب حسن وخشب نادر، وبناء مجيد، ونقاش حاذق، فنغصني عيشي، فلما تم البناء أعلمت يحيى، فقال للوكيل: اشتر لكل دار وصفة من دار أبي محمد ما يصلح له من الفرش الصيفي والشتوي، وما يحتاج إليه من الآلات والأواني والخدم والغلمان، والوصفاء والوصائف، ما يومئ إليه، ففعل، ثم قال: لا بد أن تعودنا يوماً، قلت: متى شئت، فحمل إليّ مائة ألف درهم وسمى يوماً يحضر فيه، فهيأت جميع ما يصلح لمثله، فحضر هو وولده محمد وجعفر والفضل وجماعة ندمائه وخواصه، فطاف في الدار، ثم صعد إلى السطح، وأشرف على دار الأصفهاني. صبه الله علي بنصب وعذاب، وقصصت عليه قصته فترل وقال: يا غلام! الفعلة! فأحضروا فقال: انقبوا في هذا الحائط باباً، فنقبوا، ودخلوا ودخلت معه، وإذا فيها

عدد ما أعددته من الجواري والغلمان والفرش والآلات والأواني، ومثل ما اتخذت من طعام وشراب، فأكل وأكلنا وقال لولده: هديتكم الدار الجديدة، فأحضر كل واحد منهم عشرة آلاف دينار، وقال: خذها وتمتع بهذه الدار، ولا تسب الأصفهاني، فإنه كان يعمل ما يعمله لك.

فقلت: هذا واحد من أحاديثهم، وما صار إليّ منهم في دفعة واحدة. فمن فعل مثل فعلهم، فعلت به مثل فعلي بهم، وإلا فلا، فما أجاب عبد الله جواباً.

وذكر أحمد بن حذيفة أن المنصور همّ بهدم إيوان كسرى، واستعمال آجره في بناء يبنيه ببغداد. فقال له خالد بن برمك: لا ينبغي أن تفعل ذلك لأن هذا البناء، وإن كان فخراً للأعاجم، فإن ذكره وفخره قد عاد إلى أهل الإسلام، وذلك أنهم غلبوا على ملك من كان يفتخر بهذا البناء، والغالب أحق بالفخر، فقال له المنصور: أبيت إلا نصرة الأعاجم، وأمر بهدمه، فهدم منه ثلمة، وحمل آجره إلى بغداد، فنظر، فإذا كل آجرة تقوم عليه بدرهم، فأضرب عن هدمه، فقال له خالد: أما الآن فينبغي أن تهدمه، لئلا يقال: أنه لم يسعه أن يهدم ما وسع الأكاسرة بناءه، فضاقت نفسه عن النفقة فتركه وقالوا: إن إيوان كسرى يحتاج في هدمه من النفقة إلى مثل ما أحتاج إليه في بنائه، وهذا معدوم فيما سواه من الأبنية، إلا ما يقال في هرمي مصر.

أول من سمي وزيراً أحمد بن سليمان الخلال: وزر لأبي العباس السفاح، وسمي خلالاً لأنه كان يجلس عند الخلالين، كما سمي واصل بن عطاء الغزال، وما باع غزلاً قط، وإنما كان يجلس في بعض حوانيت الغزالين، ومثل هذا كثير.

وقد وزر أحمد لأبي العباس السفاح ستة أشهر، وقيل أربعة أشهر، ثم قتل، وكان حسن البيان، قال يوماً لأبي العباس وقد همّ بالعفو عن جماعة من بني أمية: العفو مقرب من الله ومباعد من النار إذا قصد طريقه، وأصيب به أهله، فأما هؤلاء الذين تضمر قلوبهم غدراً، ويوري رمادهم جمراً لم تقل ضغائنهم، ولا فنيت بوائقهم، فالقتل لهم أشفى والراحة منهم أعفى، فقتلهم أبو العباس.

وكان توقيعه، آمنت بالله وحده. فخرج لأبي اللقائف صلة من أبي العباس، وتأخر توقيع أبي سلمة فيها فأنشده:

قل للوزير أراه الإله في الحق رشده

الباذل النصح طوعاً لآل أحمد جهده

يا واحد الناس وقع آمنت بالله وحده

فوقع فيه، وأجازه بأربعمائة درهم من ماله.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن عمرو بن تركي، عن الوليد بن هشام عن القحدمي قال: بلغت أبا سلمة فوارض من أبي العباس، فدخل عليه فقال: يا أمير المؤمنين! إن أمية بن الأشكر وقف على ابن عم له فأنشده:

نشدتك بالبيت الذي طاف حوله … رجال بنوه من لؤي بن غالب

فإنك قد جربتني هل وجدتني … أعينك في الجلى، وأكفيك جانبي

وإن معشر دبت إليك عداوة … عقاربهم دبت إليهم عقاربي

قال: اللهم نعم، قال: فما بال سيرك إليّ دسيساً؟ قال: لا تنكرني والله بعدها! ومن ضن بالعلق النفيس أشفق من تلونه. والله ما سار فكري إلى مجازاتك عن إبلائك عندنا إلا رجع حسيراً عن بلوغ استحقاقك، فقال أبو سلمة: كذا الظن يا أمير المؤمنين، والأمل فيه والمرجو عنده، ودنا فقبل يده، وكان قتله بعد ذلك بأسبوع.

كتب أبو العباس إلى أبي مسلم: أن أبا سلمة قد نافق، فوجه أبو مسلم عزار بن أنس في جماعة، فلما خرج أبو سلمة من عند أبي العباس ليلاً، وثبوا عليه وأحكموه، ثم ضربوه فقتلوه، فقال الناس: قتله الخوارج، فقال سليمان بن المهاجر:

إن المساءة قد تسر وربما … كان السرور بما كرهت جديرا

إن الوزير وزير آل محمد … أودى فمن يشناك كان وزيرا

أول من افتتح المكاتبة في تهنئة النيروز والمهرجان أحمد بن يوسف الكاتب: أهدى إلى المأمون سفط ذهب، فيه قطعة عود هندي في طوله وعرضه، وكتب معها: هذا يوم جرت فيه العادة بألطاف العيد والسعادة، وقد قلت:

على العبد حق فهو لا بد فاعله … وإن عظم المولى وجلت فضائله

ألم ترنا نهدي إلى الله ماله … وإن كان عنه ذا غنى فهو قابله

ولو كان يهدى للجليل بقدره … لقصر عل البحر عنه وناهله

ولكننا نهدي إلى من نجله … وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله

يقول سعيد بن حميد على هذا المنظوم والمنثور، فكتب إلى أبي صالح بن يزداد وكان خلفه على ديوان الرسائل: النفس لك، والمالك منك، والرجاء موقوف عليك، والأمل مصروف إليك، فما عسانا أن نهدي لك في هذا اليوم، وهو يوم قد شملت فيه العادة الأتباع الأولياء بإهدائهم السادة العظماء، وكرهنا أن

نخليه من سنة، فنكون من المقصرين، أو ندعي أن في وسعنا ما يفي بحقك علينا فنكون من الكاذبين، فاقتصرنا على هدية تقضي بعض الحق، وتقوم عندك مقام أجمل البر، وجمعنا فيها ما تحب من الرفق بنا وسلوك طريق أوليتنا، وهو الثناء الجميل، والدعاء الحسن فقلت: لا زلت أيها السيد الكريم- دائم السرور والغبطة- في أتم العافية، وأعلى منازل الكرامة، تمر بك الأعياد الصالحة، والأيام المفرحة، فتخلقها وأنت حديد.

قال أحمد بن طاهر: أخذ صدر هذا الكلام من المعلى بن أبي أيوب للمعتصم ، وقد طلب منه مالاً ليضمن لأمير المؤمنين- والمال منه، وليس فيما أوجبه الحق نقيصة ولا على أحد منا غضاضة وباقية من كلام أحمد بن يوسف وغيره، حتى لو ألحق كل كلام بصاحبه لعرى منه سعيد، فلم يكن له إلا بالثقة.

أول من وزر لثلاثة من ولد العباس محمد بن عبد الملك الزيات: وزر للمعتصم والواثق والمتوكل، وكان سبب وزارته ما أخبرنا به أبو أحمد عن الصولي، عن الطيب بن محمد الباهلي، عن أحمد بن سعيد بن مسلم قال: ورد كتاب من الجبل على المعتصم، يوصف فيه خصب السنة وكثرة الكلأ، فقال لأحمد بن عمار: ما الكلأ؟ فلم يعرفه فدعا محمد بن عبد الملك فسأله عنه فقال: ما رطب من النبات فإذا جف فهو حشيش، ويسمى أول ما نبت الرطب والبقل، فقال لأحمد: أنت انظر في الأمور والدواوين والأعمال، وهذا يعرض عليه، فعرض عليه أياماً، ثم استوزره، وعزل أحمد، وكان أحمد قبل ذلك يلي أمور المطبخ والفرش وكان كثير الأدب جيد الشعر، فمن شعره في جاريته شكرانه أن ابنه عمرو- وقد ماتت- وهو أجود شعر علمته في معناه.

تقول لي الخلان لو زرت قبرها	فقلت وهل غير الفؤاد لها قبر
على حين لم أحدث فأجهل قدرها	ولم أبلغ السن التي معها الصبر

وكان أبوه زياتاً إلا أنه كان كثير المال.

وأما أحمد بن عمارة فكان أبوه طحاناً من أهل المدائن، أتى البصرة فاتخذ بها ضياعاً فكثر ماله.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن أحمد بن محمد بن إسحاق، عن محمد بن علي كاتب علي بن صالح التغلبي قال: جلس أحمد بن عمارة للمظالم أيام وزارته، فتقدم إليه رجل فقال: إن كاتب عجيف وجه غلمانه فنهبوا منزلي، واخذوا منه قيمة ثلاثين ألف دينار، فأنكر كاتب عجيف ذلك، وقال: من أين كان لك هذا المال؟ قال: إني أقيم البينة على صحة ما أقول، فقال أحمد: لعمري إن هذا مال جليل، ولكل شيء دليل، فمن أبوك حتى نستدل على صحة قولك؟ قال: كان أبي طحاناً من أهل المذار، انتقل إلى

البصرة، فاتخذ بها ضياعاً، ففتح الله عليه، وعلى من بعده، حتى ملكت هذا المال، وأكثر منه، فتغامز أهل المجلس، فقال: ما علينا من أبيك هات بينتك، فقال الرجل: نعم. كان عمي زياتاً كثير المال، ولا ولد له فمات، فورثته، فبلغ الخبر المعتصم، فضحك وأمر أن ينصف من كاتب عجيف، وتحدث الناس بما كان من أمر الرجل، وعجبوا من جدله وفطنته.

وكان عبد الملك الزيات يلوم ابنه محمداً على شغله بالأدب وتركه للتجارة، فقال له يوماً: ما أرى ما أنت فيه ينفعك، فقال: لتعلمن أنه ينفعني. وخرج إلى الحسن بن سهل، إلى الصلح فمدحه بقصيدة أولها:

كأنها حين تناءى خطوها ... أخنس موسى السوى يرعى القلل

فأعطاه عشرة آلاف درهم فقال له أبوه: لا ألومك بعدها على شغلك بالأدب، وأخذ عليه في هذا البيت مأخذان أحدهما قوله: كأنها حين تناءى خطوها، فابتدأ بمضمر ووصف شيئاً لم يذكره، والآخر قوله: أخنس موسى السوى يرعى القلل، وذكر أن الثور يرعى قمم الجبال، وهذا خطأ فاحش، وإنما الثور يرعى في السهل، والأوعال تكون في رؤوس الجبال، وله في الأول حجة، وليس له في هذا حجة. وقال في هذه القصيدة:

إلى الوزير الحسن استجلبتها ... أي مناخ ومراح ومحل

سيف أمير المؤمنين المنتضى ... وحصن ذي الرياستين المعتقل

أنتم يد الملك الذي صال بها ... خليفة الله على حين وهل

وهضبة الدين وأنصار الهدى ... وعصمة الحق وفرسان النقل

فأين لا أين وأنى مثلكم ... وأنتم الأملاك والناس خول

فدخل يوماً الحسن بن سهل على الواثق ومحمد وزيره، والواثق عليل فجعل الحسن يصف له العلل والأغذية، فقال محمد: أنى لك يا أبا محمد الطب؟ قال: قد خدمنا من كل علم رؤساء أهله. فقال محمد: متى كان ذاك؟ - وأراد الوضع منه - فقال الحسن: كان ذاك أيام:

فأين لا أين وأنى مثلكم ... وأنتم الأملاك والناس خول

فانخزل محمد وخجل، ولم يرد جواباً.

ومن جيد شعر محمد قوله:

ما زال يقصر كل حسن دونه ... حتى تطاول عن صفات الناعت

وقوله:

كأن مجال الطرف من كل ناظر   على حركات العاشقين رقيب

ومثل خبر هذا مع الحسن بن سهل خبره مع إسحاق بن الجنيد. قال لإسحاق: يا لوطي! فقال إسحاق: إنما حقق على اللواط عندك قولي:

قبل اللوم والعزل   وتخلى عن الغزل

فاستحيى محمد وخجل.

وهذا الشعر لمحمد يصف فيه الغلمان ومنه:

وأرى البيض قد قطعن من الحبل ما وصل

فابتغ وصل كل ذي   هيف مشرف الكفل

لا يبالي من شاب من   عاشقيه أو اكتهل

كلما قلت سيدي   جدد الوصل قد فعل

وبعد هذا أبيات سخيفة تركتها لسخفها.

وكان محمد يقول: ما رحمت شيئاً قط: ما رحمت شيئاً قط، وإنما الرحمة خور في الطبيعة، وضعف في البنية، ومت إليه رجل بجوار كان بينه وبين آبائه فقال: وما الجوار؟ إنما الجوار قرابة بين الحيطان، فلما أراد المتوكل قتله أحضر تنوراً حديداً- كان محمد اتخذه ليعذب فيه ابن أسباط المصري- فأجلس فيه فقال: ارحموني يا هؤلاء قالوا: هل الرحمة إلا خور في الطبيعة، وضعف في البنية؟ أجرينا فيك حكمك في الناس.

فأجلس فيه إلى أن مات بعد ثلاثين فدفن فلم يعمق قبره، فنبشته الكلاب فأكلته.

وكان الجاحظ منقطعاً إليه، فخاف أن يؤخذ مع أسبابه، فلم يتعرضوا له لعلمه، وتقدمه.

الباب السابع

في ذكر القضاة والعلماء والأدباء:

أول قاض في الإسلام عمر بن الخطاب: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، قال أيوب بن محمد الرقي، عن أبي المعافى، عن مسعر، عن محارب بن دينار قال: لما ولي أبو بكر قال: أعينوني، فولي عمر القضاء، وأبا عبيدة بيت المال، فمكث عمر سنة لا يأتيه أحد في قضية، وهذا خلاف ما روي أن أبا بكر لم يتخذ بيت مال، قال: وأول من اتخذه عمر.

أول قاض بالمدينة عبد الله بن نوفل: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: حدث مصعب بن

الزبير عن محمد بن الضحاك عن عثمان عن أبيه قال: أول قاض بالمدينة عبد الله بن نوفل، استقضاه مروان، وكان أول ما قضى به حقاً على آل مروان، فزاده ذلك عند مروان خيراً؟.

أول قاض بالكوفة جبير بن القشعم: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: أول من قضى بين أهل الكوفة جبير بن القشعم بالقادسية، ثم قضى بينهم سليمان بن ربيعة.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن الحسن بن عثمان، عن أبي زيادة، عن الحجاج، عن القاسم بن عبد الرحمن قال: ضرب رجل دابة فنفحت رجلاً فقطعت أذنه، فاختصموا إلى سليمان بن ربيعة، وهو على القضاء بالقادسية، فقضى أن الضمان على الراكب، فبلغ ذلك ابن مسعود فقال: الضمان على الضارب لأنه إنما أصابته النفحة من ضربته.

وقالوا: أول من قضى بين أهل الكوفة أبو قرة الكندي.

أول قاض بالبصرة أبو مريم الحنفي: واسمه أياس بن صبيح بن محرس.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن الحسن بن عثمان، عن أبي عبيدة قال: أول من قضى بين أهل البصرة أبو مريم الحنفي لعتبة بن غزوان، عند قدومه البصرة سنة أربع عشرة، فلم يزل قاضياً حتى مات عتبة سنة خمس عشرة، وولي المغيرة بن شعبة فاقره، حتى عزل، فلم يقض بعده إلا يسيراً، حتى شكى إلى عمر ضعفه فعزله.

وكان أبو مريم قتل زيد بن الخطاب أخا عمر، وكان لعمر شدة عليه.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أبي عاصم، عن أبي عون، عن محمد قال: خرج عمر رضي الله عنه من الخلاء وهو يذكر شيئاً من القرآن فقال له أبو مريم: إنك خرجت من الخلاء، فقال عمر رضي الله عنه: أمن فيتني مسيلمة هذا؟ وكانوا يقولون إن في عمر رضي الله عنه شدة عليه لأنه قتل أخاه زيداً يوم اليمامة،فلما كان بعد جعل يقول: إن الله أكرم زيداً بيدي، و لم يهني بيده، فقال له عمر رضي الله عنه: أقتلته؟ لا أحبك حتى تحب الأرض الدم، قال: أو يمنعني ذلك حقي عندك؟ قال: لا. قال: لا ضير إذاً.

وقالوا: أول من قضى بالبصرة لعمر سليمان بن ربيعة. وقتل بلنجر من أرض الترك، في خلافة عثمان رضي الله عنه وعظامه عند أهلها يستسقون بها.

قال ابن حمانة:

وإن لنا قبرين قبراً بلنجر وقبراً بأعلى الصين يا لك من قبر

فهذا الذي بالصين عمت فتوحه وهذا الذي بالترك يسقى به القطر

أراد بالذي في الصين قبر قتيبة بن مسلم، قيل بفرغانة فجعله في الصين.

وقالوا: أول من قضى بالبصرة كعب بن سور؟.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري قال: حدثنا الحسن بن عثمان عن إسماعيل بن إبراهيم، عن منصور بن عبد الرحمن، عن الشعبي أن كعب بن سور كان جالساً عند عمر، فجاءت امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين! ما رأيت رجلاً قط أفضل من زوجي، إنه يبيت ليله قائماً، ويظل نهاره صائماً في اليوم الحار وما يفطر، فاستغفر الله لها، وأثنى عليها، وقال: مثلك أثنى الخير، وقاله، فاستحيت المرأة وقامت راجعة.

فقال كعب: يا أمير المؤمنين! هلا أعديت المرأة على زوجها إذ جاءتك تستعديك! قال: أو ذاك أرادت؟ قال: نعم. قال: ردوا عليّ المرأة، فردت، فقال: لا بأس بالحق أن تقوليه، هذا زعم إنما جئت تشكين زوجك إنه تجنب فراشك، قالت: أجل، أي امرأة شابة لا تبتغي ما يبتغي النساء؟ فأرسل إلى زوجها فجاء، فقال لكعب: اقض بينهما، قال: أمير المؤمنين أحق بالقضاء بينهما، قال: إنك فهمت من أمرهما ما لم أفهم، قال: فإني أرى كأنها امرأة عليها ثلاث نسوة هذه رابعتهن، فأقضي له ثلاثة أيام ولياليهن يتعبد فيهن، ولها يوم وليلة، فقال عمر رضي الله عنه، والله ما رأيك الأول أعجب إليّ من الآخر! اذهب أنت قاض على البصرة، فقتل يوم الجمل مع عائشة رضي الله عنها.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، وذكر عبيدة و لم يسنده: أن صاحب عين هجر أتى عمر رضي الله عنه وعنده كعب بن سور فقال: يا أمير المؤمنين! إن لي عيناً فاجعل لي خراج ما تسقي، فقال: هو لك، فقال كعب: يا أمير المؤمنين! ليس ذلك له، قال: و لم؟ قال: لأنه يفيض ماء عن أرضه فيسيح في أرض الناس، ولو حبس ماؤه في أرضه لغرقت، فلم ينتفع بمائه ولا بأرضه، فمره فليحبس ماءه إن كان صادقاً، قال عمر رضي الله عنه: أتستطيع أن تحبس ماءك؟ قال: لا. فكانت هذه لكعب مع الأولى، وبمثل هذه القصة استقصى عمر شريحاً على الكوفة.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن الحسن بن عثمان، عن إسماعيل بن إبراهيم، عن منصور بن عبد الرحمن، عن الشعبي: أن عمر اشترى من رجل فرساً أن رضيه فحمل عليه رجلاً فعيب الفرس، فجاء به صاحبه فقال: لا أقبله، دفعته إليك صحيحاً وتدفعه إليّ كسيراً فقال عمر رضي الله عنه: اجعل بيني وبينك شريحاً، قال: لا أعرفه، ثم أتاه فقص عليه القصة، فقال: إن كنت حملت عليه بأمره فاردده عليه، وإلا فقد ضمنته حتى تدفعه إليه كما دفعه إليك، فقال عمر رضي الله عنه: ما الحق إلا هذا، اذهب فأنت قاض على الكوفة، هذا معنى الحديث.

وقال له حين استقضاه: لا تشار ولا تضار، ولا تشتر ولا تبتع، ولا ترتش، فقال عمرو بن العاص رضي

الله عنه: يا أمير المؤمنين! إن القضاة إذا توخوا عدلاً، وزحزحوا بالعلم عنهم جهلاً، كانوا كغيث قد أصاب محلاً.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن معاوية، عن ابن الكلبي عن الشرقي قال: كانت عند شريح امرأة قد ولدت له، وله وصيفة يحبها، فانصرف في يوم حار فوجد امرأته نائمة، فأمر الوصيفة فصارت إلى بيت فخلعت قرقلها، وخلع قميصه، ودنا منها، وانتبهت المرأة فاقتفت أثره، وأحس بها فذهب عقله، فلبس القرقل، ولبست الجارية القميص، وأكب على البساط يشير، فقالت: ما تصنع؟ قال: زعمت الجارية أن طوله كذا، وزعمت أنه كذا، قالت: فقرقلها عليك، قال: من هذا أعجب أنا أيضاً، فذهبت تلومه، فقال: هي حرة.

وبعضهم ذهب إلى أن عمر لم يكن ليولي شريحاً الكوفة وفيها المهاجرون والأنصار، وليست له صحبة.

وقيل: إن شريحاً قضى سبعاً وخمسين سنة- إلى فتنة ابن الزبير- وتوفي في سنة ثمانين، وهو ابن مائة وثماني سنين.

أول قاض جار في القضاء بلال بن أبي بردة: أخبرنا أبو أحمد بإسناده أن رجلاً قدم إلى بلال رجلاً في دين له عليه، فأقر الرجل به،- وكان بلال يعنى بالرجل- فقال المدعي: يعطيني حقي أو نحبسه بإقراره، قال القاضي: إنه مفلس، قال: لم يذكر إفلاسه، قال: وما حاجته إلى ذكره، وأنا عارف به؟ فإن شئت أحبسه فالتزم نفقة عياله، قال: فانصرف الرجل وترك خصمه وكان بلال معروفاً بالجور.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن محمد بن أيوب، عن عقيل، عن أبي عمرو الضرير قال: أمر بلال داود بن هند أن يحضره عند تقدم الخصوم إليه، فإن حكم بخطأ رمي بحصاة فيرجع بلال قال: فتقدم إليه مولى له ينازع رجلاً، فحكم لمولاه ظلماً، فرمى داود بحصاة فلم يرجع، ثم بأخرى فقال له بلال: ليس هذا مما يرمى له الحصاة، هذا مولاي.

وكان بخيلاً على الطعام.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد عن علي، عن محمد قال: كان أبو موسى استرضع لابنه أبي بردة في بني فقيم في آل العرق، فلما قدم بلال البصرة قيل له: لو وليت أبا العجوز ابن أبي شيخ بن العرق، قال: إني رأيت منه حلالاً ثلاثاً. رأيته يحتجم في بيوت إخوانه، ورأيته جالساً في الظل وعليه مظلة، ورأيته يتأذن بنص القيلة، قال: وكان أصابه داء فوصف له السمن يجلس فيه، فكان يجلس فيه، ثم يأمر ببيعه، قال: فترك أهل البصرة أكل السمن، وكان يحيى بن نوفل يمدحه، ثم بدا له فجعل يهجوه، فمما قاله يمدحه فيه قوله:

وكل زمان الفتى قد لبست		خيراً وشراً وعدماً ومالا
فما الفقر كنت له ضارعاً		ولا المال أظهر منه اختيالا
وقد طفت للمال شرق البلاد		ومغربها وبلوت الرجالا
وزرت الملوك وأهل الندى		أنول إلى ظلهم حيث مالا
ولو كنت ممتدحاً للنوال		فتى لامتدحت عليه بلالا

ولكنني لست ممن يريد		بمدح الملوك لديهم سؤالا

ومما هجاه به على روي هذه القصيدة ووزنها قوله:

وأما بلال فبئس البلال		أراني به الله داءً عضالا
وأما بلال فذاك الذي		يميل به الشرب حيث استمالا
فيصبح مضطرباً ناعساً		تخال من السكر فيه احولالا
ويمشي بزيف كمشي النزيف		كأن به حين يمشي شكالا

وقال:

أقول لمن يسائل عن بلال		وعبد الله عند ثنا الرجال
بلال كان ألأم من رأينا		وعبد الله ألأم من بلال
هما أخوان أمّاً ذا فجون		وأمّاً ذا فأصهب ذو سبال
فجونهم يشبه نسل حام		وأصهبهم يشبّه بالموالي
وكان أبوهما فيمن رأينا		أسيل الوجه مكتسي الجمال
فقد فضحا أبا موسى وشانا		بنيه بالتهور والضلال

وكان بلال محتالاً خبيثاً.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: ولي يوسف بن عمر صالح بن كريز أو كروم على العنب فبقي عليه ثلاثون ألفاً، فحبس بها، وبلال محبوس فقال له بلال: إن على العذاب سالماً، ويلقب بزنبيل، فإياك أن تقوله: وجعل يكرر زنبيل حتى علقها، فعذبه سالم، فنسي اسمه وكنيته، وجعل يقول: اتق الله يا زنبيل! فيقول: أقبل، فلما خلى سبيله قال له: ألم أنهك عن زنبيل؟ فقال: وهل ألقاني في الزنبيل غيرك؟ أنا لم أعرف ما زنبيل لولاك، وما تدع شرك في سراء ولا ضراء.

وكان بلال يقول: ربما تقدم إليّ الخصمان، فأجد أحدهما أخف على قلبي من الآخر فأحكم له.

أول ما ظهرت الخارجية حين حكم الحكمان: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: التقى علي عليه ومعاوية بصفين في ذي الحجة سنة سبع وثلاثين، وقيل في محرم، وعلي في مائة ألف، وقيل سبعين ألفاً، ومعاوية في سبعين ألفاً من أهل الشام، فقتل من الفريقين سبعون ألفا، خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق، فلما كان اليوم الثالث اقتتلوا نهاراً، ووصلوه بليلتهم، وهي ليلة الهرير، فقال معاوية لعمرو: لئن أصبح الناس على ما هم عليه إنه لفناء العرب، أو ظهور ابن أبي طالب، فهل من رأي؟ قال: نعم. تأمر إذا أصبحت برفع المصاحف، بيننا وبينكم كتاب الله. وقيل: إن معاوية هو الذي استخرج هذا الرأي وقال: والله لأرمينهم غداً برأي لم يشهد ابن أمه، فلما أصبحوا وقد علقوا مائتي مصحف، بالرماح وأعناق الخيل، وأمر ابن لهيعة، أو اين لبينة، فأوفى على شرف، ونادى: يا أهل العراق إذا قتلنا وقتلتم فمن يدفع الترك والروم عن حريمنا وحريمكم؟ بيننا كتاب الله، فقال أهل العراق: أجبنا، وأمسكوا عن القتال، فلم يقاتل أحد إلا الأشتر، وقال علي للناس: امضوا على أمركم، فإنما رفعوا المصاحف ضجراً من الحرب، وإن عمراً ومعاوية والضحاك وابن أبي سرح ليسوا بأهل دين ولا قرآن، قد عرفتهم صغاراً وكباراً فلم أعرفهم بخير، قالوا: لا يحل لنا قتالهم وقد دعونا إلى كتاب الله، لنجيبنهم أو لننابذنك قالوا: وبعث إلى الأشتر فكفه عن القتال، فلما رجع الأشتر قال لهم: شاهت الوجوه، أحين علوتم ظفراً، وظنوا أنكم قاهرون، رفعوا المصاحف وهناً وضجراً، فرهبتم كتاب الله يريدونه وقد تركوا سنة من أنزل عليه؟ أخبروني، متى كنتم محقين؟ أحين تقاتلون من حين أمسكتم؟ قتلاكم الذين لا تشكون في فضلهم عليكم إذاً في النار؟ والله لكنتم خدعتم فانخدعتم، يا أصحاب الجباه السود، كنا نظن صلاتكم زهادة في الدنيا، وشوقاً إلى لقاء الله، فلا أراكم تفرون إلا إلى الدنيا من الموت، ما أنتم براملين، بعد هذا اليوم غداً، ابعدوا كما بعد القوم الظالمون.

فأتى الأشعث بن قيس معاوية فقال: ما أردت برفع المصاحف؟ قال: أردت أن نرجع نحن وأنتم إلى كتاب الله، فتبعثون رجلاً منكم، ونبعث رجلاً منا، فيختارا لهذا الأمر رجلاً تصلح عليه الأمة، قال: أنصفت، فرجع وأخبر الناس بقوله، فاختلفوا فكان رأي الجمهور، وقد أنكره آخرون وهم عبادهم، وأهل البصائر منهم، وأرادوا معاودة الحرب، فأبى الناس وفارقوا علياً، وهو أربعة آلاف، وأراد الباقون علياً للتحكيم، فقال: أحكّم ابن عباس، فقال: الأشتر أو الأحنف، فأبى أصحابه، وقالوا: إن لم تحكم أبا موسى لم نرم معك بسهم، فحكمه على كره منه له وللتحكيم، وحكّم معاوية عمرو بن العاص، فكتبوا بينهم كتاباً في ذلك، ورجع علي رضي الله عنه إلى الكوفة، فأقام والناس مختلفون، منهم من يرى التحكيم

خطأ، ومنهم من يراه صواباً، ومعاوية بدمشق لا ينكر عليه شيئاً ثم اجتمع الحكمان، فخلع أبو موسى علياً عليه السلام، وأقر عمرو معاوية، فقال الذين فارقوا علياً وأنكروا التحكيم قالوا لعلي: حكمت في دين الله فتب، فقال: ما أذنبت فأتوب، وإنما غلبني الناس، فأتيت ما أتيت من ذلك كرهاً، ولو أردت الحرب لكان أصحابي أشد علي من أهل الشام، ففارقوه وقالوا: لا حكم إلا لله.

وأول من قالها بصفين عروة بن جديم، وقيل: يزيد بن عاصم المحاربي، ثم قاتلهم علي عليه السلام على النهر فهزمهم، وكان أميرهم أول ما اعتزلوا ابن الكواء، ثم بايعوا لعبد الله بن وهب الراسبي، وكان أحد الخطباء الأجواد، فقال لهم عند بيعتهم إياه: إياكم والرأي الفطير، والكلام القصير، دعوا الرأي بغب، فإن غبوبه يكشف للمرء عن حقيقته، وكان يقول: إن ازدحام الجواب مضلة للصواب، وليس الرأي بالارتجال، ولا الحزم بالاقتضاب، فلا ندعونكم السلامة من خطأ موبق، غنيمة تليها من غير صواب إلى معاودته، والتماس الريح من جهته، إن الرأي ليس ينتهي، ولا هو ما أعطتك البديهة وانتزاع الخاطر، وضمير الرأي خير من فطيره، ورب شيء غابه خير من طريه، وتأخيره خير من تقديمه، وإنما ذم الناس البديهة لأن الهوى يقابلها، ومدحوا الفكر لأن الرأي استيقظ له، فإذا كان الرأي هو المشاورة، فحق لما نتج أن يكون حكمة لا تخطئ، وصواباً لا يقل، وحقاً لا ينازع. وكان الخوارج يذهبون إلى أن كل ذنب صغير أو كبير كفر، ويرون قتل الجمهور من التابعين.

ثم تأول نافع بن الأزرق- وهو الذي نسب إليه الأزارقة- قول الله تعالى: "ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفارا" تأول هذه الآية على أن قتل الأطفال، بقر النساء عن الأجنة حلال، فلما أظهر ذلك، فارقه طائفة من أصحابه، ثم قتل برستقباد فولى عبد الله بن بشير فانحاز بهم إلى دولاب.

وكان الخوارج أشد الناس جلداً ومصابرة للأقران وكلباً إذا رأوا فرصة، فما زالوا يظهرون على كورة كورة ويليهم منهم أمير بعد أمير حتى صار الأمر إلى قطري بن الفجاءة، ثم اختلفوا عليه وهو بجيرفت، فارتحل إليهم المهلب، فارتحلوا يريدون سجستان، واتبعهم فلحقهم في بعض الطريق بعد قتال شديد، وأمر في الناس والنجدة عجيب، وخرجت طائفة مهم مع عمرو الصبا، حتى دخلوا قوس، فبعث إليهم الحجاج سفيان بن الأبرد فحاصرهم، حتى جعلوا يأكلون خيولهم، ثم خرجوا إليه بأسيافهم، فقاتلوهم حتى قتلوا.

والتقى سورة بن الجرد مع قطري وهو شيخ كبير، فوقعت إبهام قطري في فم سورة، فما زال يلوكها حتى أثخنه، وصاحت جاريته، وا أمير المؤمنيناه! فعرف أنه قطري فاقبل بآذان مولى الأشاعرة، فأعان سورة عليه فقتلاه، واختلفا في حمل رأسه، فقال رجل من الجند: ضعا رأسه على يدي حتى تتفقا، فوضعاه على يده فطار بالرأس إلى سفيان بن الأبرد، فأوفده إلى الحجاج، فأعطاه عشرة آلاف درهم، ثم قدم بأذان

على الحجاج فصدقه، وأعطاه أربعة آلاف درهم وأمر لسورة بعشرة آلاف درهم، وذلك في سنة تسع وتسعين، وروي أن معاوية أول من زعم أن الله يريد أفعال العباد كلها، وأنه أول من ترك القنوت في صلاة الغداة.

أول من أظهر الرفض ابن سبأ: وذلك أنه أظهر الطعن على السلف، وبلغ من ذلك مبلغاً أنكره عليه علي عليه السلام، فنفاه من الكوفة، فلما قتل علي رجع إليها ودعا الناس إلى مقالته، فأجابه بعضهم وثبتت إلى اليوم.

أول ما اختلف الناس في خلق القرآن أيام أبي حنيفة:

فسئل عن ذلك أبو يوسف، فأبى أن يقول أنه مخلوق، وسئل عنه أبو حنيفة فقال: إنه مخلوق، لأن من قال: والقرآن لا أفعل كذا فقد حلف بغير الله، وكل ما هو غير الله فهو مخلوق، فأخرجها من طريقته في الفقه، وأجاب عليها على مذهبه.

أول من زعم أن الله لم يزل متكلماً جهم بن صفوان: ومما تفرد به فيما ذكره أبو القاسم البلخي قوله: أن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط دون الإقرار وسائر الطاعات، وهو من أهل ترمذ- بلدة على شاط نهر بلخ- وخرج مع الحارث بن شريح ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقتل بمرو، قتله سالم الجون في آخر ملك بني أمية.

أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن محمد بن يحيى، عن عبد الله بن مسلم التتمي، عن أسامة بن زيد، عن ابن شهاب قال: أول من قص في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الداري، استأذن عمر أن يذكر بالله فأبى، ثم استأذن أخرى فأبى، حتى كان آخر ولايته فأذن له أن يذكر يوم الجمعة، قبل أن يخرج عمر للصلاة، فكان عمر يمر به فيشير إلى حلقة هذا الذبيح، ثم توفي عمر رضي الله عنه. فاستأذن عثمان بن عفان، فأذن له أن يذكر يومين في الأسبوع، فكان يفعل ذلك، وقد روي غير ذلك.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن حباب، عن عيسى بن يونس، عن أبي بكر بن أبي مريم، عن حبيب بن عبيد، عن عصيف بن الحارث الثمالي أن عبد الملك بن مروان سأله عن القصص ورفع الأيدي على المنابر فقال: إنه لمن أمثل ما أحدثتم، وأما أنا فلا أجيبك إليهما، إني حدثت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ما من أمة تحدث في دينها بدعة إلا أضاعت مثلها من السنة" والتمسك بالسنة أحب إلي من إحداث بدعة.

وقالوا: أول من قص عبيد بن عمير الليثي بمكة ويقال: أول من قص الأسود بن سريع التميمي صحابي وكان يقول في قصصه:

فان تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فإني لا أخالك ناجيا

وسمع أبو نواس أن القصص بدعة، فسار إلى مسجد بعض القصاص ليعبث به، ومعه أصحاب له، فجلس وأخرج يده من ذيله ينتف إبطه فقال له القاص: ما هذا موضع ذا، فصاح به أبو نواس ويلك! أترد علي وأنا في سنة وأنت في بدعة فضحكوا منه.

أول من حكم في نتف اللحية مسروق: نتف كوسج لحية الألحي فرفع إلى مسروق، فدعا بالميزان فنتف لحية الكوسج ووزنها، فنقص عما نتف من لحية الألحي، فتممه من رأس الكوسج حتى استوى الميزان.

أول من وضع الإعراب أبو الأسود الدؤلي: وهو ظالم بن عمرو بن جندل بن سفيان بن كنانة، وأمه من بني عبد الدار.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن حباب بن بشير، عن يحيى بن آدام، عن أبي بكر بن عياش، عن عاصم بن أبي النجود قال: أول من وضع العربية أبو الأسود الدؤلي، وجاء به إلى علي عليه السلام فقال: إني أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم، وقد تغيرت ألسنتها، أفتأذن لي أن أضع كلاماً يقيمون به كلامهم؟ فقال: لا. فجاء رجل إلى زياد بالبصرة فقال: أصلح الله الأمير! توفي أبانا وترك بنوناً، فقال زياد: توفي أبانا، وترك بنونا؟ أدعوا أبا الأسود، فقال: ضع للناس الذي نهيتك أن تضعه لهم.

وأخبرنا أبو أحمد عن أبي زيد، عن أبي حاتم، عن محمد بن عباد، عن أبيه قال: سمع أبو الأسود رجلاً يقرأ: "أن الله بريء من المشركين ورسوله" بكسر رسوله فقال: لا يسعني إلا أن أصنع شيئاً أصلح به نحو هذا، فوضع النحو. وأبو الأسود أول من قال بالقدر، والمسلمون كلهم ينتفون من هذا الاسم فبعضهم يقول: إن اسم القدر إنما يلحق من يكثر من ذكر القدر، فلا يفعل فعلاً محموداً أو مذموماً ولا يأتي عليه حسنة ولا سيئة إلا قال: هذا بقدر الله، وهكذا قدر الله، وقالوا: يقول أهل اللغة لمن يكثر من ذكر الشيء في حينه وفي غير حينه مثل من يكثر من ذكر العسل، إنه عسلي، أو يكثر من ذكر المساجد إنه لمسجدي، قالوا: فهكذا من يكثر من ذكر القدر إنه قدري، وسمي قدرياً. وقال آخرون: بل القدرية الذين يزعمون أنهم يقدرون أفعالهم وأمورهم. وقد فرغ المتكلمون من هذا الباب فتركت الاستقصاء.

وأبو الأسود أول من نقط المصاحف، وكان فصيحاً حازماً عاقلاً شاعراً مجيداً، وهو أحد البخلاء المذكورين، وأحد البخر المشهورين.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن أحمد بن معاوية، عن الأصمعي، خدمنا صاحب لنا قال: سأل أبو الأسود أعرابياً، كيف أبوك؟ قال: أخذته الحمى، ففضخته فخضاً ففثجته فثجاً فطبخته

طبخاً فتركته فرخاً، قال: فما فعلت امرأته التي عدمًا نماره وثماره ونضاره؟ قال: طلقها وتزوج غيرها فحظيت ورضيت وبطيت، قال: وما بطيت؟ قال: حرف من العربية لم يبلغك. قال الأصمعي: هي مثل رضيت.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد قال: تنازع أبو الأسود وامرأته في ولد منهما إلى زياد فقال: أنا أحق به منها حملته قبلها، ووضعته قبلها. فقالت: حمله خفاً، ووضعه شهوة، وحملته ثقلاً ووضعته كرهاً، قال زياد: صدقت أنت أحق به ما لم تزوجي، أما لو أدركتنا يا أبا الأسود ودونك قوة لاستعملناك على بعض أمورنا. فقال اللصراع تريدني؟ وكان مما يدل على بخله قوله لولده: لا تجاوروا الله فإنه أجود وأمجد، ولو شاء أن يوسع على الناس كلهم حتى لا يكون محتاج فعل، ولا تجهدوا أنفسكم في التوسع على الناس فتهلكوا هزالاً.

وقال له بعض الأمراء: سمعت أنك شديد على حقك وأنه لا يذهب لك شيء على أحد، فمم ذلك؟ قال: من سوء ظني بالناس، ومجانبتي أهل الإفلاس. وقيل له: ما كان أظرفك لولا بخل فيك! فقال: ما خير ظرف لا يحفظ ما فيه؟.

أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن موسى بن إسماعيل، عن عسل بن مضمر، عن سعيد بن يزيد، عن بعض أصحابه قال: قال أبو الأسود لمعاوية: لو كنت مكان أبي موسى ما صنعت كما صنع، قال: وما كنت تصنع؟ قال: كنت أنظر عدة من المهاجرين وعدة من الأنصار، ثم أشهدهم بالله تعالى، المهاجرون أحق بالخلافة أم الطلقاء؟ فقال معاوية: أقسمت عليك بالله لا تذكرها أبداً ما عشت! وبإسناد لنا عن سفيان الثوري قال: جاء أبو الأسود إلى قومه ومات عريفهم، وقد أجمع رأيهم أن يعرفوا رجلاً فقال: لا تعرفوا فلاناً فإنه أهوج أحمق يأكل طعامكم، ويتثاقل عن حاجاتكم، ولكن عرفوا فلاناً فإنه أهوس أهيس، ملك ملحس، إن طمع انتهز وإن سأل أرز- والأهوس والأهيس الجواد السمح- وسمع أبو الأسود قوماً يستشيرون في تزويج امرأة وخاطبها فقال: زوجوها من عاقل، فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها أنصفها.

أول من صنف في الفقه مالك بن أنس صنف الموطأ: وهو مالك بن أنس بن عامر بن حمير، وعداده في بني تميم بن مرة من قريش، وكان أبوه أنس بن عامر، يروي عن عمر وعثمان وطلحة وأبي هريرة رضي الله عنهم، وحمل مالك ثلاث سنين، وكان شديد البياض، أصلع، عظيم الهامة، وكان يأتي المسجد ويقيم صلاته فيه، ويقضي حقوق إخوانه في التهاني والتعازي، ثم ترك ذلك فقيل له فيه، فقال: ليس كل الناس يقدر أن يخبر بعذره. وكان يكره حلق الشارب، ويراه مثله، وسعى به إلى جعفر بن سليمان، وقالوا: إنه لا يرى أن بيعتكم هذه شيئاً، فغضب جعفر، ودعا به فجرده وضربه بالسياط، ومدت يده حتى انخلعت

كتفه، فلم يزل بعد ذلك الضرب في العلو والرفعة، وكأنما كانت تلك السياط حلياً حلى بها، وبلغ من منزلته في الناس أن أهل المدينة كانوا يستسقون بقلنسوته، ومات سنة تسع وسبعين ومائة، وله خمس وثمانون سنة ودفن بالبقيع.

أول من صنف في الكلام أبو حذيفة واصل بن عطاء: قال أبو عثمان: لم يعرف في الإسلام كتاب كتب على أصناف الملحدين، وعلى طبقات الخوارج، وعلى غالية الشيعة والمشايعين في قول الحشوية قبل كتب واصل بن عطاء، وكل أصل نجده في أيدي العلماء في الكلام والأحكام فإنما هو منه، وهو أول من قال: الحق يعرف من وجوه أربعة: كتاب ناطق، وخبر مجتمع عليه، وحجة عقل، وإجماع. وأول من علم الناس كيف مجيء الأخبار وصحتها وفسادها وأول من قال: الخبر خبران، خاص وعام، فلو جاز أن يكون العام خاصاً، جاز أن يكون الخاص عاماً، ولو جاز ذلك لجاز أن يكون الكل بعضاً والبعض كلاً، والأمر خبراً والخبر أمراً. وأول من قال: إن النسخ يكون في الأمر والنهي دون الأخبار، وأول من سمي معتزلياً، وذلك لمجانبته تقصير المرجئة وغلو الخوارج، وكل من نبز بشيء أنف منه، مثل الرفض والجبر. والرافضي يسمي نفسه شيعي، والمجبر يقول: أنا سني، ولذلك المرجئ يسمي نفسه شارياً. والمعتزلي راض باسم الاعتزال غير نافر منه، ولا كاره له ولا مستبدل به، لما رضيه له سلفه.

وكان أبو حل خطيباً راوية قد لقي الناس، وجالس ابن الحنفية وسمع منه، واختلف إلى الحسن، وكان طويل الصمت، وكان يظن به الخرس، فقيل لعمرو بن عبيد: إنه أعلم الناس بالرد على أهل البدع والملحدة فقال عمرو: لا يأتي هذا العنق بخير. وكان واصل العنق، مضطرب الخلق، فلما اجتمع عمرو معه وناظره واصل في المترلة بين المترلتين لزمت عمرو الحجة، فترك مذهبه، وكان يذهب إلى أن الفاسق ما هاله فقال: أشهد أن الفراسة باطل، والركن خطاء. وكان مع كماله واجتماع خصال الفضل فيه قبيح اللثغة، لم تسمع الراء من أحد أفحش منه من فيه، وهو شيء لا يتصور في كتاب، فما زال يروض نفسه حتى أخرج الراء من كلامه، فقال الفضل بن عيسى الرقاشي: إن كان قد أعد لكل ما يمتحن فيه على جهة التخلص في غير استكراه، والتوقي من غير تكلف. إنه لعيب، وخطب هو وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى الرقاش عند عبد الله بن عمر بن عبد العزيز، فأتى الفضل بن عيسى، وشبيب بن شيبة بكل عجيب من اللفظ، وبديع من المعنى، ثم خطب واصل فانتظم معانيها في ألفاظ يسيرة، ثم افتن فيما لم يخطر لهما على بال، ولم يسنح لهما في وهم، فقال شبيب: أيها الأمير! لو قطع كلامه على أول ابتدائه لقيل: هذا ممن نقل اللحن، ويصيب المفصل، وأما الآن فهل سمعت للشيخ وحده؟ فأسنى لهما الجائزة فقبلاها، وردها واصل، فتوهم عبد الله أن يسويه من التفضيل في الجائزة على قدر فضله في البراعة،

فأضعفها له، فلم يقبلها، وقال: اجعل جائزتك نبش القبص لأهل هذا البلد، فزاد عجبه من تركه الراء في الحفر، وتناوله النبش ليتخلص منها. وكان مرة في بعض الثغور، ففاجأهم العدو ليلاً فسمعوه يقول لغلامه: ألبد الجواد. فاستظرفوا توقيه الراء، وهو يكلم غلامه والأظرف أنه كان على ذلك الحال من المخافة والانزعاج.

وبلغه أن بشار بن برد الشاعر ذكر عنده عمر فنال منه، وعثمان فشتمه، ثم علي رضي الله عنهم جميعاً فأنشد:

وما خير الثلاثة أم عمرو　　　بصاحبك الذي لا تصحبينا

فقال واصل: أما ها هنا أحد يذهب إلى هذا الأعمى المشنف المكنى بأبي معاذ فيبعج بطنه على مهاده! فقال: الأعمى و لم يقل: الضرير، وقال المكنى بأبي معاذ و لم يقل: بشار، وقال: المشنف و لم يقل: المرعث- وذلك أن بشاراً كان يلقب بالمرعث، والمرعث المقرط، والمشنف المقرط أيضاً، والشنف القرط الذي يعلق في أعلى الأذن- وقال: يبعج و لم يقل: يبقر، وترك الفراش، وقال: المهاد.

وأما قولهم: واصل الغزّال، فلم يكن غزّالاً، ولكن كان يجلس إلى أبي عبد الله الغزال مولى قطن الهلالي، وكان رضيعه ومن مستحبيه، وذلك مثل ما قيل لإبراهيم بن يزيد "الخوزي" و لم يكن خوزياً، وإنما كان يترل بمكة بشعب الخوز، وأبو سعيد المقبري ليس بنسب، ولكن كان يترل المقابر، وقد أجمع أصحابنا أن واصلاً لم يمس بيده ديناراً ولا درهماً قط، ولذلك قال الأسباط بن واصل الشيباني في كلمة يرثي فيها واصلاً:

ولا صرّ ديناراً ولا مسّ درهماً　　　ولا عرف الثوب الذي مر قاطعه

يقول: لم يدر كم شبراً يقطعه، كما تعرف التجار، وقد علمنا أن دعاة واصل في الآفاق، ورسله إلى الأطراف، أنبل من جميع رؤساء النحل. وكان قد جهز إلى إفريقية وإلى خراسان والجبال وإلى السند وإلى الثغور والحجاز رجالاً يدعون إلى مقالة، فهجروا له الأوطان، وخلفوا الأزواج والولدان،وأهملوا الأموال، وصبروا عن مجالسة الأخوان، وليس هذا بصفة غزال، ولا أحد ممن يعالج الحرف، وقال أبو الطروق يردد ذلك المعنى:

متى كان يباع الغزول مقدماً　　　على كل حال في الرهان وسابق

متى اجتمع الشرق المنير وغربه　　　ليباع غزل خامل الأصل مارق

أول من وضع اللغة على الحروف وأول من عمل العروض أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد: وكان من فراهند بن مالك بن فهم بن عبد آبه بن مالك بن نضر بن الأزد صريح فيهم، وقيل هو مولاهم، واصله

من الفرس،- والفراهند غنم صغار، واحدها فرهود- وكان الخليل من أزهد الناس وأعلاهم نفساً، وأشدهم تعففاً وكان يعيش من بستان له خلفه أبوه بالجزيرة، وكان يحج سنة ويغزو سنة حتى جاءه الموت.

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن المغيرة بن محمد المهلبي من حفظه قال: حدثنا خالد بن خداش قال: كان الخليل بن أحمد يحب أن يرى عبد الله بن المقفع، وكان عبد الله يحب ذلك، فجمعهما عباد بن عباد المهلبي، فتحدثا ثلاثة أيام ولياليهن، ثم افترقا، فقيل للخليل: كيف رأيت عبد الله؟ قال: ما رأيت مثله قط، وعلمه أكثر من عقله. وقيل لابن المقفع: كيف رأيت الخليل؟ قال: ما رأيت مثله قط، وعقله أكثر من علمه، قال المغيرة: وصدق في ذلك، فقد أدى عقل الخليل إلى أن مات أزهد الناس، وجهل بن المقفع فكتب أماناً لعبد الله بن علي على المنصور فقال فيه ما كان مستغنياً أن يقوله مما لا تتحمل الأمراء فضلاً عن الخلفاء مثله، فكتب المنصور حين قرأ قوله: "ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله، فنساؤه طوالق، ودوابه حبس، وعبيده أحرار، والمسلمون في حل من بيعته". فاشتد ذلك على المنصور جداً، وخاصة أمر البيعة، فكتب إلى سفيان بن معاوية- وهو أمير على البصرة- أن اقتل ابن المقفع، فقتله.

و لم يكن في العرب أذكى من الخليل بن أحمد، وهو مفتاح العلوم. ومصرفها.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي قال: سمعت أحمد بن يحيى يقول: إنما وقع الغلط في كتاب "العين" لأن الخليل رسمه و لم يحشه، ولو حشاه ما أبقى فيه شيئاً، لأن الخليل لم ير مثله، وقال: حشا الكتاب قوم علماء، إلا أنه لم يؤخذ عنهم رواية، وإنما وجد بنقل الوراقين، فاختل الكتاب لهذه الجهة.

أخبرنا أبو أحمد، عن الصولي، عن محمد بن يحيى الآدمي، عن عبد الله بن الفضل، عن أبيه قال: كان عندنا رجل يعطي دواءه لظلمة العين، ينتفع به الناس فمات، فأضر ذلك بمن كان يستعمله، فذكر ذلك للخليل فقال: أله نسخة؟ فقالوا: لم نجد نسخة. قال: فهل كانت له آنية يعمل فيها؟ قالوا: نعم. قال: فجيئوني بها، فجاءوه بها، فجعل يتشممه ويخرج نوعاً نوعاً، حتى ذكر خمسة عشر نوعاً، ثم سأل عن جمعها، ومقاديرها، فعرف ذلك ممن يعالج مثله، فعمله وأعطاه الناس، فانتفعوا به، مثل تلك المنفعة، ثم وجدت النسخة في بعض كتب الرجل، فوجد الأخلاط ستة عشر خلطاً كما ذكر الخليل، لا يغفل منها إلا خلطاً واحداً.

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن إسحاق بن إبراهيم القزاز، عن إبراهيم التيمي قال: سمعت عبد الله بن داود الحرس يقول: قال الخليل بن أحمد: ثلاثة أشياء أنا أحبها لنفسي ولمن أحب رشده: أحب أن أكون بيني وبين ربي من أفاضل عباده، وأكون بيني وبين الخليفة من أوسطهم، وأكون بيني وبين نفسي من

شرهم.

قال عبد الله: لو كتب شيء بالذهب لكتب هذا. وقال الخليل: إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك فجالس غيره.

وحدثنا الصولي، عن محمد بن يزيد قال: نما إليّ أن الخليل بن أحمد قال: إذا خرجت من مترلي لقيت أحد ثلاثة: إما رجل أعلم مني بشيء فذلك يوم فائدتي، أو مثلي فذلك يوم مذكراتي، أو دوني فذلك يوم ثوابي.

وقال الخليل: أكثر من العلم لتفهم، واختر منه لتحفظ، وقال: أنا أول من سمى الأوعية ظروفاً، وإنما قيل للإنسان ظرف وهو ظريف، لحفظه الأدب وقال: أثقل ساعاتي عليّ ساعة آكل فيها.

وأول من سمى بأحمد بعد النبي صلى الله عليه وسلم والد الخليل.

وأول من سمي عبد الصمد مؤدب لآل مروان. أن سعيد بن عبد الرحمن بن حسان كان في مكتب عبد الصمد، فساومه بشيء كرهه، فدخل سعيد- وهو غلام- على بعض خلفاء بني مروان فشكاه إليه فقال:

إنه والله لولا أنت لم ... ينج مني سالماً عبد الصمد

أنه قد رام مني حظه ... لم يرمها قبله مني أحد

فهو فيما رام مني كالذي ... يطلب الثعلب في حبس الأسد

فطرده الخليفة واختار لولده مؤدباً غيره.

حدثنا أبو أحمد، عن الصولي، عن المبرد عن الحرمي قال: قال لخليل بن أحمد: رتبت البيت من بيوت العرب- يريد الخباء- فسميت الأقواء ما جاء من المرفوع في الشعر والمخفوض في قافية واحدة نحو قول النابغة:

من آل مية رائح أو مغتدي

ثم قال:

وبذاك خبرني الغراب الأسود

قال: إنما سميته أقواء لتخالفه، لأن العرب تقول: أقوى القائل إذا جاءت قوة من الحيل تخالف سائر القوى، قال: وسميت تغير ما قبل حروف الروي سناداً من مساندة بيت إلى بيت إذا كان كل واحد منهما ملقياً على صاحبه ليس مستوياً، ومثل ذلك من الشعر:

عبد شمس أبا فإن كنت غضبي ... فاملأي وجهك الجميل خدوشا

ثم قال:

وبنا سميت قريش قريشا

قال: وسميت الأكفاء ما اضطرب حرف رويه، فجاء مرة نوناً ومرة ميماً، والعرب تفعل ذلك لقرب مخرج الميم من النون مثل قوله:

يبيت مطاء على حد الظلم ... لا يستكين عملاً ما الفتن

مأخوذ من قولهم: بيت مكفاء إذا اختلف شقاه، واللقاة الشقة في مؤخر البيت، والإبطاء من طرح بيت على بيت، وأصله طرح شيء فوق شيء، فكأنه أوطأ إياه، والإيطاء رد القافية مرتين. قال الحرمي: والأخفش يضع الأكفاء في موضع السناد، والسناد في موضع الأكفاء على هذا الاشتقاق. قال الخليل: وسمي البيت الذي نصفه مثل آخره مصرع وشطره مصراع، كقول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل ... بسقط اللوى بين الدخول فحومل

فكأنه باب على مصراعين، قال ذو الرمة:

وشعر قد أرقت له ظريف ... أجنبه المساند والمحالا

وقال جرير:

ولا الأقواء أو مرس القوافي ... بأفواه الرواة ولا سنادا

أول من ترجم له الطب والنجوم خالد بن يزيد: وكان شاعراً فصيحاً جواداً قيل له: جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، قال: أطلب بذلك أن أغني الأخوان وأصل الأقارب والجيران، إني طمعت في الخلافة واختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصنعة، فلا أحوج أحداً عرفني أن يقف بباب السلطان رغبة أو رهبة.

قال أبو هلال أيده الله: ليس من يعتقد أن الكيمياء يصح، ويطمع في قلب الفضة ذهباً أو النحاس فضة بتام العقل، لأنه يطمع في قلب الأعيان، وقلب الطبائع والجبلات عن أصولها، ولا يكون ذلك إلا من سخافة العقل وعدم التمييز.

أول من صنف في غريب القرآن أبو عبيدة معمر بن المثنى: صنف كتاب المجاز، وأخذ ذلك من ابن عباس رضي الله عنه حين سأله نافع بن الأزرق عن أشياء من غريب القرآن، ففسرها له واستشهد عليها بأبيات من شعر العرب. وهو أول ما روى في ذلك، وهو خبر معروف.

وكان من عدم معرفته وتقدمه في العربية ربما لم يتم البيت من الشعر حتى يكسره، ويخطئ إذا قرأ في

المصحف، وكان يبغض العرب ويؤلف في مثالبها الكتب، ويرى رأي الخوارج، ويرمى باللواط، فبعث أبو نواس فقال:

صلى الإله على لوط وشيعته أبي عبيدة قل بالله آمينا

وكان مولى لتميم، ومات سنة عشر ومائتين أو إحدى عشرة، وقد قارب المائة، وكثير من العلماء والرؤساء المعروفين رموا بذلك. حكي عن الحجاز أنه قال: غلام في محله أنفع من حوض في جب، ودخل الجاحظ على المازلي وعنده المبرد- وهو غلام- فأخفى شخصه في جب عن الجاحظ، وجلسا يتحدثان فعطس المبرد من مكمنه، فقال الجاحظ: من هذا المبرد منا؟ فسمى بذلك. وقال الشاعر:

ويوم كنار الشوق في الصدر والحشا على أنه منها أحر وأوقد

ظللت به عند المبرد قائلاً فما زلت من ألفاظه أتبرد

ودخل البحتري مسجد المبرد، فرأى غلماناً ملاحاً فقال: ما أحسن المسجد بقناديله!.

وفي نحو ذلك يقول بعضهم في مجلس ابن دريد:

من يكن للظباء طالب صيد فعليه بمجلس ابن دريد

إن فيه لأوجهاً قيدتني عن طلاب العلى بأوثق قيد

وأخبرنا أبو أحمد قال: كنا في مجلس نفطويه، وهو يملي، فدخل غلام وضيء، فقطع الإملاء، وقال: قال رجل من أهل عصرنا:

كم خاس ميعادك يا مخلف كم تخلف الوعد وكم تحلف

قد صرت لا أدعو على كاذب ولا ظلوم الفعل لا ينصف

فما شك أحد ممن حضر أن الغلام كان قد وعده فأخلفه، وأن الشعر له.

وأخبرنا أبو أحمد قال: كنا في مجلس ابن دريد وكان يتضجر ممن يخطئ في قراءته، فحضر غلام وضيء، فجعل يقرأ ويكثر الخطأ، وابن دريد صابر عليه، فتعجب أهل المجلس، فقال رجل: يا أهل المجلس! لا تعجبوا فإن في وجهه غفران ذنوبه، فسمعها ابن دريد، فلما أراد أن يقرأ قال: هات يا من ليس في وجهه غفران ذنوبه، فعجبوا من صحة سمعه، مع علو سنه.

وأخبرنا أبو القاسم بن شيراز رحمه الله قال: أخبرنا أبو بكر الجوهري قال: حدثنا بعض أصحابنا قال: كان سعيد بن حميد الكاتب قد هوى غلاماً من أبناء الأتراك- بسر من رأى- بارع الجمال، فبذل له

خمسين ديناراً ليحضره فقال: على أني إذا اذن العشاء الآخرة انصرفت، فلما وافى أمر بوضع فما فرغوا حتى كان وقت صلاة العشاء الآخرة، فقال سعيد: يا غلام! الدواة والقرطاس، فكتب إلى المؤذن:

قل لراعي الظلام أخر قليلا قد قضينا حق الصلاة طويلا
ليس في ساعة تؤخرها وز ر تكافأ بها وتأتي جميلا
وتراعي حق الفتوة فينا وتعافي من أن تكون ثقيلا

أول ما ظهر اللواط حين كثر الغزو في صدر الإسلام: وطالت غيبة الناس عن أهليهم، وذلك حين افتتح خراسان، وجمع البعوث في ثغورها، وسبوا ذراري المشركين فيها، واتخذوهم وصفاء، يخدمونهم في خاص أنفسهم، وطالت الخلوة معهم والصيحة لهم، وعلى حسبها يكون الأنس، ورأوهم يجرون مجرى النساء في بعض صفاقن، فطلبوا منهم ذلك الفعل فأجابوهم، وأطاعوهم للأنس الذي بينهم، لما عودوهم من شدة الانقياد لهم.

وكان ابتداؤه أول ما ظهر من خراسان في صدر الإسلام و لم يعرفه أهل الجاهلية من العرب والعجم أصلاً، والدليل على ذلك أنه لم يرو فيه شعر ولا مثل، وكان من عادتهم أن يقولوا الأشعار الكثيرة في الشيء الزهيد كقولهم في الفأر والجوز، وحكايتهم عن لسان الضب واليربوع وغير ذلك، ولو كان معروفاً ذلك الفعل عندهم لعيروا به أو وصفوه، فإنهم يصفون ما دونه، أما ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه رأى رجلاً ينكح رجلاً فألقى عليهما حائطاً، فإن المنكوح كان مبتلى بالداء الذي يسمى الابنه و لم يكن ذلك لشهوة الناكح، وقد ذكر جماعة من رؤساء العرب في الجاهلية بهذا الداء، منهم أبو جهل، وكانت الفرس ترى على من به هذا الداء، ثم مكن من نفسه ضرب الرقبة، وعلى من فعل به ذلك مثله أيضاً. وكانوا يجعلون الناكح بمنزلة القاتل لأنه ضيع نطفة كان يكون منها إنسان، فكانوا يرون قتله لذلك.

أول من صنف في صنعة الشعر عبد الله بن المعتز: ألف كتاباً سماه كتاب البديع، وذكر أن اسم البديع اسم لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأخرين بينهم، فأما العلماء باللغة والشعر القديم، فلا يعرفون هذا الاسم، ولا يدرون ما هو. وقال: وما جمع فنون البديع غيري، ولا سبقني إليه أحد، وألفته في سنة أربع وسبعين ومائتين، وأول من نسخه مني علي بن يحيى بن أبي منصور المنجم، وكان عبد الله كثير الأدب، بارعاً في الفضل، كامل الأداء في المعرفة، وهو غاية في الشعر لا يلحقه فيه أحد من بني هاشم، وربما ادعى قوم لعلي بن محمد بن طباطبا مشاكلة عبد الله بن المعتز في الشعر، وذلك أنهم رأوا لعبد الله تشبيهات في فنون الأشياء، ورأوا لعلي بن محمد كلاماً في بعضها، فظنوا أنهما اتفقا من هذه الجهة وما

كل سماء ثمرة، والشأن في الألفاظ وتسويتها وسلاستها وحلاوتها، فأما المعاني فمطرحة يتناولها كل أحد. وقد يستوي معنى كلامين وبينهما كما بين الثرى والثريا، وأين تقع ألفاظ علي من ألفاظ عبد الله؟ وألفاظ علي ظاهرة التكلف تعلوها مجاجة أهل الخبل، وألفاظ عبد الله فيها سلاسة أهل العراق وجزالة أهل الحجاز، فمن ذلك قوله في متنزه ذكره:

ألا رب يوم قد لبست ظلاله ... كما أغمد القين الحسام اليمانيا

وإن ثقبته العين لاقت قراره ... تخال الحصى فيها نجوماً رواسيا

إذا ما تمشت فيّ عين خريدة ... فليست تخطاني إلى من ورائيا

وليل كجلباب الشباب قطعته ... بفتيان صدق يقبلون الأمانيا

وأنا رأينا المشرفيات والقنا ... وبذل الندى للمكرمات مراقيا

وجمع سقينا أرضه من دمائه ... ولو كان عافانا قبلنا العوافيا

ودسناهم بالضرب والطعن دوسة ... أماتت حقوداً ثم أحيت معاليا

وقوله:

إذا لاح روض منه ظلّل روضه ... نسيم ضعيف الجانبين رقيق

ترى هاجع الأنوار ترفع جفنه ... كذي الغش يلقى راحة فيفيق

وقوله:

والريح تجذب أطراف الرداء كما ... أفضى الشقيق إلى تنبيه وسنان

وقوله:

وحلت عليها ليلة رحبية ... إذا ما صفا فيها الغدير تكدرا

طويلة ما بين البياضين لم يكن ... ليصدق فيها صبحها حين بشرا

كأن الرباب الجون دون سحابه ... خليع من الفتيان يسحب مئزرا

إذا لحقته لوعة من ورائه ... تلفت واستل الحسام المذكرا

وقوله:

وقد علا الطود نيلا من أصائله ... كما يصفر فودي رأسه الخرف

إلى محاسن كثيرة يضيق الوقت عن استيعابها والإحاطة بكلها أو بجلها. وانظر الآن إلى تكلف علي بن محمد في قوله يصف النجوم:

نجوم أراعي طول ليل بروجها ... وهن لبعد السير ذات لعوب

كأن التي حول المجرة أوردت ... لتكرع في ماء هناك صبيب

ولا صبح إلا رائد الربيع إذ رأى ... أوائل مرعى الليل غير خصيب

كأن رسول الفجر يخلط في الدجى ... شجاعة مقدام بجبن هيوب

وهذه الألفاظ لا ماء لها ولا طلاوة عليها وقال:

وأصبح كالسماء الأرض لونا ... وقد أخذت تقطر من جمود

رخاماً سقفها يحكي رخاماً ... فمن ثلج وغيم ذي ركود

كأن الشمس مرآة تراءى ... لنا ولها شعاع ذو خمود

متى تر شمس دجن خلف غيم ... تر المرآة في كف الحسود

تقابلها فتلبسها عشاء ... بأنفاس تزايد في الصعود

وهذا كما ترى شعر ساقط لا خير في لفظه ووصفه، وكذلك أكثر شعره إلا ما ندر، وهو قليل، ولعبد الله من النثر ما لا يتعلق به شيء من الكلام، فمن ذلك قوله: العاقل من عقل لسانه، والجاهل من جهل قدره، إذا الباغي بغى عليك، قام الداعي بك، العقل غريزة يزينها التجارب، الحكمة شجرة تنبت في القلب، وتثمر في اللسان، النفس أدنى عدو، النصح بين الملأ تقريع، المتواضع في طلب العلم أكثر علماً، كما أن المنخفض من الأرض أكثر البقاع ماء، إذا زاد العقل نقص الكلام، نعم الجهال كرياض المزابل، الشفيع جناح الطالب، منع الحافظ خير من عطاء المضيع، الآمال لا تنتهي، والحي لا يكتفي، في العواقب شاف أو مريح، الدار الضيقة العمى الأصفر، المرض حبس البدن، والهم حبس الروح، المعرفة بالفضيلة عليك فضيلة منك، ثب على الفرصة أو دع، قلوب الأخيار حصون الأسرار، أهل الدنيا كصورة في صحيفة لا ينشر بعضها إلا إذا طوى البعض، من لم يتعرض للنوائب تعرضت له، أفقرك الولد وعاداك، من تكلف مالا يعنيه فاته ما يعنيه، الغضب ضد العقل، النار لا ينقصها ما أخذ منها، ولكن يخمدها إلا أن تجدد حطبها، وكذلك العلم لا يفنيه الاقتباس منه، ولكن فقد الحاملين سبب عدمه، المعروف غل لا يفكه إلا الشكر أو المكافأة، لا راحة لحاسد، ولا حياء لحريص، الحرمان مع الحرص، الذل مع الدين، لا يكفيك من لم تكفه، وله شيء من هذا المعنى كثير.

ولما توفي المكتفي قام العباس بن الحسن، فأمر المقتدر، وأخذ البيعة له بالخلافة، فاستخلف وهو صبي لم

يبلغ، ثم قتل طائفة من الجند العباس بن الحسن، وخلعوا المقتدر، وبايعوا عبد الله بن المعتز، واستوزروا له محمد بن داود بن الجراح، فمكث بذلك ليلة، فلما كان من الغد، أنفذ عبد الله الحسين بن حمدان، في جند إلى دار المقتدر بالله، فخرج إليه الخزر والأتراك، وأخذه العامة بالضجيج وانهزم، وخرج عبد الله هارباً إلى البردان، ثم جلس في زورق صياد فعاد إلى بغداد، فأدخل دار المقتدر فكان آخر العهد به، فورد على الناس ما لم يروا أعجب منه قط، وهو رجوعه إلى بغداد على غير عهد ولا عقد بها، وكان قد بويع له بالخلافة، وخرج معه وجوه القواد، وكبراء الناس. فقال الناس: لم يكن به بأس، ولكن أدركته حرفة الأدب.

الباب الثامن

في ذكر النساء

أول امرأة خصفت وثقبت أذنها هاجر أم إسماعيل عليه السلام: أخبرنا أبو أحمد، عن عبد الله بن العباس، عن الفضل بن عبد العزيز عبد العزيز عن ابراهيم بن سعيد الجوهري عن الواقدي عن ابن ابي سيرة عن اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة، عن عمر بن الحكم، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: أكرم إبراهيم النبي صلى الله عليه وسلم هاجر، فشق ذلك على سارة، قالت: تصنع بأمتي هذا؟ فحلفت لتقطعن منها ثلاثة أطراف، فخاف إبراهيم أن تمثل بها، قال: ألا أدلك على ما تبرين به يمينك؟ قالت: بلى. قال: تخصفينها، وتثقبين أذنيها، فكانت هاجر أول من خصفت، وثقبت أذناها فجعلت فيها قرطين، فقالت سارة: ما أرى هذا زادها إلا حسناً.

أول امرأة اكتحلت بالأثمد زرقاء اليمامة: واسمها طسم، وسميت بلدها بها، قال محمد بن حبيب: كانت تبصر من مسيرة أيام، وكانت من جديس طسم، خرج قوم من طسم إلى حسان تبع، فاستجاشوه على جديس، فجهز إليهم جيشاً، فلما صاروا في الجو على مسيرة ثلاثة أيام، صعدت فرأت الجيش، وقد حمل كل رجل منهم شجرة يستتر بها ليلبسوا عليها، فقالت: قد أتتكم الشجر، وأتتكم حمير قد أخذت شيئاً شجرة، فلم يصدقوها، فقالت: أحلف لقد أرى رجلاً ينهش كتفاً أو يخصف نعلاً! فلم يصدقوها، فصحبهم حسان فاجتاحهم وأخذ الزرقاء، فشق عينيها، فإذا فيها عروق سود من الأثمد. فقال الأعشى يصفها:

إذا نظرت نظرة ليست بكاذبة ... ورفع الآل رأس الكلب فارتفع

قالت:

أرى رجلاً في كفه كتف أو يخصف النعل لهفا آية صنع

أول من غنّى الغناء العربي طويس: قالوا: جرادة جارية بن جدعان، فمن قال أن طويساً أول من غنّى قال: كانت الفرس والروم في أيام الزبير- لما هدمت الكعبة- يبنونها ويغنون بألحانهم، فسمعها المغنون فنقلوها إلى العربي، وكانوا قبل ذلك لا يتجاوزون الرمل والهزج، وأول من ابتدأه طويس، وطويس أول مشؤوم ولد في الإسلام، ولد يوم توفي صلى الله عليه وسلم، وفطم يوم مات أبو بكر رضي الله عنه، وبلغ الحلم يوم قتل عمر رضي الله عنه، وتزوج يوم قتل عثمان رضي الله عنه، وولد له يوم قتل علي رضي الله عنه، وكان يكنى أبا عبد النعيم، وكان يقول: أنا أبو عبد النعيم، وأنا طاوس الجحيم، واحتج من قال: إن أول من غنى جرادة، بأن إسحاق الموصلي ذكر للجرادتين، جاريتي عبد الله بن جدعان في المائة المختارة لحناً من الثقيل الأول وهو:

أقفر من أهله مصيف فبطن نخلة فالغريف

هل تبلغني ديار قومي مهرية سيرها لفيف

يا أم عثمان نولينا قد ينفع السائل الطفيف

أعمامها الشم من لؤي صيد وأخوالها ثقيف

و لم تزل الجرادتان في ملك ابن جدعان حتى أسنّ فوهبهما لأمية بن أبي الصلت.

أخبرنا أبو أحمد عن الصولي، عن الزبير بن بكار، عن جعفر بن الحسن، عن إبراهيم بن أحمد قال: قدم أمية بن أبي الصلت على عبد الله بن جدعان فلما دخل عليه قال له عبد الله: أمر ما أتى بك! قال: كلاب غرماء نبحتني ونهشتني، فقال له عبد الله: وأنا على حقوق لزمتني، فأنظرني قليلاً أنجم ما في يدي، وقد ضمنت لك قضاء دينك، ولا أسألك عن مبلغه، فأقام أياماً ثم أتاه، فأنشأ يقول:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني حياؤك إن شيمتك الحياء

وعلمك بالأمور فأنت قوم لك الحسب المهذب والسناء

كريم لا يغيره صباح عن الخلق الكريم ولا مساء

تباري الريح مكرمة وجوداً إذا ما الكلب أجحره الشتاء

إذا أثنى عليك المرء يوماً كفاه من تعرضه الثناء

فلما أنشده هذا الشعر، كانت عنده قينتان قال: خذ أيهما شئت، فأخذ إحداهما وانصرف، فمر بمجلس من مجالس قريش، فلاموه على أخذها، فقالوا: قد ألفيته عليلاً، فلو رددتها عليه، فإنه يحتاج إلى خدمتها كان ذلك أقرب لك عنده، وأكثر من كل حق ضمنه، فوقع الكلام من أمية موقعاً، فرجع ليردها، فقال له ابن جدعان: لعلك إنما تردها لأن قريشاً لاموك على أخذها، فقال: ما أخطأت يا زهير، وأنشد:

عطاؤك زيم لامرئ إن حبوته   كسيب وما كل العطاء يزين

وليس بشين لامرئ بذل وجهه   إليك كما بعض السؤال يشين

فقال عبد الله: خذ الأخرى، فأخذهما وخرج، فلما صار إلى القوم أنشأ يقول:

ومالي لا أحييه وعندي   مواهب يطلعن من النجاد

لأبيض من بني عمرو بن تيم   وهم كالمشرفيات الحداد

لكل قبيلة هاد ورأس   وأنت الرأس تقدم كل هاد

عماد البيت قد علمت معد   وإن البيت يرفع بالعماد

له داع بمكة مشمعل   وآخر فوق دارته ينادي

إلى ردح من الشيزى عليها   لباب البر يلبك بالشهاد

وقال فيه:

ذكر ابن جدعان بخير   كلما ذكر الكرام

من لا يخون ولا يعق   ولا يبخله الأنام

يهب النجيبة والنجيب   له الرحالة والزمام

وذكر أبو إسحاق الموصلي أن أول من غنى الغناء العربي سعد بن منجح أبو عثمان، وقالوا: أبو عيسى مولى لبني مخزوم ومن غنائه:

أسلام إنك قد ملكت فأسجحي   قد يملك الحر الكريم فيسجح

مني على عان أطلت عناءه   في الغل عندك والعناء يسرح

إني لأنصحكم وأعلم إنه   سيان عندك من يغش وينصح

والذي عليه أكثر العلماء أن طويساً أول من غنى الغناء العربي.

أول امرأة بايعت النبي صلى الله عليه وسلم من نساء الأنصار أم عامر الأشهلية: أخبرنا أبو أحمد، عن عبد

الله بن العباس، عن الفضل بن عبد العزيز، عن إبراهيم الجوهري، عن الواقدي، عن أسامة بن زيد الليثي، عن داود بن حصين، عن أبو سفيان مولى أبي أحمد قال: سمعت أم عامر الأشهلية تقول: جئت أنا وليلى بنت الحطيم وحواء بنت يزيد بن السكن، فدخلنا عليه- يعني على النبي صلى الله عليه وسلم- ونحن متلفعات بمروطنا بين المغرب والعشاء، فسلمت ونسبني فانتسبت، ونسب صاحبتي فانتسبنا، فرحب بنا ثم قال: حاجتك، فقلت: يا رسول الله! جئنا نبايعك على الإسلام، فقد صدقناك، وشهدنا أن ما جئت به حق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قد بايعتكن، قالت أم عامر: فدنوت منه، فقال: إني لا أصافح النساء، قولي لألف امرأة كقولي لامرأة واحدة.

وقد روينا أن علياً عليه السلام قال لمعاوية في بعض منازعاتهما يا ابن اللخناء، فقال معاوية: دع أبا الحسن ذكر أمي، فما هي بأخس نسائكم، وقد بايعت النبي صلى الله عليه وسلم فصافحها، وما رأيته صافح امرأة غيرها، فعلى مقتضى هذا الخبر، تكون هند أول من صافحها رسول الله صلى الله عليه وسلم من النساء. وقالوا من بايعت النبي صلى الله عليه وسلم أم سعد كبشة بنت رافع، وأم عامر بنت يزيد بن السكن وحواء بنت يزيد بن السكن.

أول امرأة قطعت في السرقة قلابة بنت سفيان المخزومية: قطعها النبي صلى الله عليه وسلم وشفعوا لها، فقال صلى الله عليه وسلم: "لو سرقت فاطمة لقطعتها".

أول امرأة حدت في القذف صحنة بنت جحش: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن حسين بن إبراهيم، عن فليح بن سليمان الأسلمي، عن ابن شهاب، عن عروة بن الزبير وسعيد بن المسيب، وعلقمة بن وقاص الليثي وعبيد الله بن عبد الله قالوا: قالت عائشة: كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها، فأقرع بيتاً في غزاة غزاها، فخرج سهمي، فخرجت معه بعد ما أنزل الحجاب، فاتخذ لي هودجاً، وسرنا ثم نزلنا عند القفول منزلاً، فلما حان الرحيل قمت فمشيت، فلما قضيت حاجتي. وأقبلت مسست صدري، فإذا هو عقد من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمسته، واحتمل هودجي، فرحلوه وهم يحسبون أني فيه- وكان النساء إذ ذاك خفافاً، إن إحداهن تأكل العلقة من الطعام- فأقبلت وقد ارتحلوا، فجلست، ثم غلبتني عيناي فنمت، وكان صفوان بن المعطل من وراء الجيش، فلما أصبح رأى سواداً، فاسترجع، فاستيقظت باسترجاعه، ثم ركبت راحلة حتى أتيت الجيش بعدما نزلوا في نحر الظهيرة، فتكلم المنافقون، والذي تولى كبره عبد الله بن أبي بن سلول، وقدمنا المدينة، واشتكيت شهراً لا أشعر بما يفيض فيه أصحاب الإفك، ثم خرجت مع أن مسطح، فعثرت في مرطها فقالت: تعس مسطح فقلت: بئس ما قلت! أتسبين رجلاً شهد بدراً؟ قالت: يا هنتاه!

ألم تسمعي ما يقولون؟ فأخبرتني بقول أهل الإفك، فازددت مرضاً، واحتبس الوحي، فاستشار النبي صلى الله عليه وسلم علي بن أبي طالب، وأسامة بن زيد رحمه الله في فراقي، فقال أسامة: ما تعرف إلا خيراً، وقال علي: يا رسول الله! لا تضيف على نفسك، فإن النساء كثير، ثم أنزل الله تعالى: "إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم" إلى آخر القصة، فأتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: بحمد الله لا بحمدك، ثم أمر رسول الله بحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، وصحنة بنت جحش، فجلدوا ثمانين ثمانين. فهؤلاء أول من جلد في القذف، ثم قال حسان يعتذر عما كان منه، ويمدح عائشة رضي الله عنها:

حصان رزان لا تزن بريبة وتصبح غرثى من لحوم الغوافل

فقالت عائشة رضي الله عنها: لكنك يا حسان لست كذلك، وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق على مسطح، فحلف ليقطعن عنه النفقة، فأنزل الله تعالى: "ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى" إلى قوله تعالى: "وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم" فقال أبو بكر: بل نحب ذلك، وعاد في النفقة، هذا معنى الحديث.

أول امرأة حملت في نعش من العرب: زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنها، وقد ذكرنا أمر النعش فيما تقدم.

أول ظعينة هاجرت إلى المدينة: أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم.

أول بكر هاجرت: أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، فتزوجها زيد بن حارثة، ثم تزوجها الزبير بن عبد الرحمن بن عوف بن عمرو بن العاص.

أول امرأة نبئت سجاح بنت سويد بن خالد: أخبرنا أبو أحمد، عن رجل نسيت اسمه قال: قال عمر بن بكير، عن هشام بن الكلبي، عن عوانة أو غيره قال: كان من حديث سجاح بنت سويد بن خالد بن أسامة بن العنبر بن يربوع التميمية، وتكنى أم صادر، وأخوها عتبان وكانوا من بني تغلب، فلما قبض النبي صلى الله عليه وسلم، واستخلف أبو بكر، وكانت الردة، نبئت سجاح، وخرجت من بني تغلب، فتبعها أناس كثيرون من النمر بن قاسط واياد، ومن بني تغلب الهذيل بن عمران، فخرجت تسير بهم إلى بلاد بني تميم، فلقيها بنو حنظلة فقالت: أنا امرأة منكم، والملك ملككم، وقد بعثت نبية، قالوا: مرينا، قالت: إن رب السماء والتراب يأمركم أن توجهوا الركاب، وتستعدوا للنهاب، ثم تغيروا على الرباب، فليس دونهم حجاب، فسارت بنو حنظلة إلى بني ضبة، وهم من الرباب، وسارت سجاح ومن معها من بني تغلب والنمر بن قاسط إلى حفر التيم، وعليه من الرباب بنو عدي وثور. فأما بنو حنظلة فلقوا بنو ضبة،

فهزمتهم، ولقيت سجاح ومن معها تيماً وعدياً وثوراً. فقاتلوهم قتالاً شديداً. وجاءهم وفود بني تغلب والنمر وأياد، وأرسلت بنو ضبة يطلبون إلى حنظلة أن يودوا قتلاهم، ويصالحوهم، فقالت: لا تعجلوا على الرباب، فإنهم يحثون نحوكم الصعاب. ثم قالت: عليكم باليمامة، فإنها دار إقامة، نلقى أبا ثمامة، فإن كان نبياً ففي النبي علامة، وإن كان كذوباً فله ولقومه الندامة، ولا يلحقكم بعد ملامة، فخرجوا نحوها ومعها عطارد بن حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد، وعمرو بن أهثم، والأقرع بن حابس، وشبيب بن ربعي- وهو مؤذنها- فساروا حتى نزلوا الصمان، فبلغ ذلك مسيلمة الكذاب- وكان قد تنبأ- فتجسس أهل اليمامة لها، فقال مسيلمة: دعوني ورأيي، فأهدى لها، وكتب إليها، أن موعدنا يوم كذا نلتقي فيه، ونتدارس، فإن كان الحق بيدك بايعناك، وإن كان في أيدينا بايعتنا، فخرجت في أربعين، فلما جلسوا أحصاهم، ثم قال: ليقم من ها هنا عشرة، ومن ها هنا عشرة، ومن ها هنا عشرة، ومن ها هنا عشرة، حتى ننظر من صاحب الأمر، فقاموا، فقال مسيلمة لغلامه: عثن لها لتذكر الباه- والعثان الدخان- أي بخر لها بشيء من الطيب- فقال مسيلمة: لنا نصف الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشاً لا يعدلون، رحم الله من سمع، ومازال أمره في كل ما شاء مجتمع، وأطمع في الخير فطمع، أراكم الله محياكم، ومن رجز خلاكم! ويوم القيامة نجاكم، علينا صلوات من معشر أبرار، لا أشقياء ولا نجار، يصلون بالليل، ويصومون بالنهار، ولربهم الكبار، رب النور والأمطار، ولما رأيت وجوههم حسنت، وأبشارهم صفت، وأيديهم انبسطت، النساء يأتون، والخمر يشربون، أنتم معشر الأبرار، سبحان ربي كيف يحيون، وإلى رب السماء يرقون، لو أنها حبة من خردلة في جندلة لقام عليها شهيد، يعلم ما في الصدور، أكثر الناس، يومئذ المبثور، قالت: أشهد أنك نبي، وآمنت به، فقال: إنكن- معشر النساء- خلقتن لنا أفراجاً، وخلقنا لكم أزواجاً، فإذا ملكناكن أرتجن لنا أرتاجاً، فنولجه فيكن إيلاجاً، فتخرجن أولاداً إنتاجاً، قالت: صدقت ثم قال:

ألا قومي إلى البيت	فقد هبي لك المضجع
فإن شئت بثلثيه	وإن شئت به أجمع
وإن شئت سلقناك	وإن شئت على أربع

قالت: بذلك أوحي إليّ. قال: هل لك أن تزوجيني نفسك، فيكون الملك بيننا، ونخفف من عشيرتنا؟ قالت: نعم. فتزوجها وانطلق إلى اليمامة، وتركت الجمع الذي كان معها بالصمان، ورفع مسيلمة عن بني تميم صلاة الغداة والظهر والعشاء، وقال: إن بني تميم لقاح لا أتاوة عليهم- يعني الخراج- فعامة بني تميم لا يصلون هذه الصلوات إلى اليوم، فلم تزل عند مسيلمة إلى أن قتل، فهربت فلم توجد، ثم أسلمت

فتزوجها رجل من قومها، فولدت له ثلاثة وماتت بالبصرة.

قالوا: ولما وقع عليها مسيلمة، خرجت إلى قومها وهي تنظف عرقاً، قالوا: ما عندك؟ قالت: وجدته أحق بالأمر مني، فبايعته، وزوجته نفسي، قالوا: ومثلك لا يتزوج بغير مهر؟ فقال مسيلمة: جعلت مهرها أن رفعت عنكم صلاة الغداة والعتمة، فقد أوحي إليّ بذلك. قالوا: وما هو؟ قال: ضفدع بنت ضفدعين رأسك في الماء ورجلك في الطين، لا ماء تكدرين، ولا شارب تنفضين، سجاح بنت الأكرمين، قومي ادخلي التيطون، فقد وضعنا عن قومك صلاة المعتمين، فرضوا. فلما عرف قومها حالها قال عطارد بن حاجب بن زرارة:

أضحت نبيتنا أنثى يطاف بها — وأصبحت أنبياء الناس ذكرانا

فلعنة الله رب الناس كلهم — على سجاح ومن بالإفك أغوانا

أعني مسيلمة الكذاب لا سبقت — أصداء غيث مزن حيث ما كانا

وقال الأغلب العجلي:

إن سجاحاً لاقت الكذاب — سألها فأعيت الجوابا

وهتكت عن سترها الحجاب — ولا رحابا

أول امرأة لبست المصبغات في الإسلام شميلة: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن سباب بن خياط، عن الهيثم بن عدي، عن ابن عباس، عن الشعبي قال: كانت شميلة أول من لبست المصبغات، وعملت السقوف، وعبأت الطيب، وكانت تحت ابن عباس ، فربما أخذ دملجها فتأتي به امرأة ذرعة بنت مشرح أم علي فتقول: هذا طوق شميلة، فنقول: إنه لحسن فتقول: إنه والله دملجها، فتقول: لا بارك الله لك ولا لها! وكان ابن قسوة وهو عتيبة بن مرداس قد أتى ابن عباس فحجبه، فجعل يهجوه، ويذكر شميلة، فمما قال:

أتيت ابن عباس أرجى نواله — فلم يرج معروفي ولم يخش منكري

وقال لبوابيه: لا تدخلنه — وشد خصاص الباب من كل منظر

ويسمع أصوات الخصوم وراءه — كصوت حمام في القليب المغور

فلو كنت من زهران قضيت حاجتي — ولكنني مولى جميل بن معمر

فليت قلوصي عريت أو رحلتها — إلى حسن في داره وابن جعفر

إذا هي همت بالخروج يصدها	عن القصد مصراعاً منيف محبر
يطالع أهل الشوق والباب دونه	بمستفلك الذفرى أسيل المدفر

أول ما عرفت الجمازات: إن أم جعفر أمرت الرجالين في بعض مسيرها خلف الرشيد، أن يزيدوا في سير البختية، وخافت فوت الرشيد، فلما حركت مست ضروباً من المشي من المرفوع وجمزت في خلال ذلك، وافقت امرأة حسنة الاختيار، تفهم الأمر، فوجدت لذلك الجمز راحة، ومع الراحة لذة، فأمرتهم أن يسيروها تلك السرة، فما زالوا يقربون ويبعدون، ويخطئون ويصيبون، وهي في خلال ذلك تخطئهم وتصوبهم، حتى شدوا من معرفة ذلك شدواً، ثم أنها قرعتهم لإتمام ذلك حتى تم واستوى، وقد تقع مثل هذه الأمور اتفاقاً، كما سقط الناطق من كف الأجير في الصفر المذاب فخاف أهله فساده، ثم رأوا ما أعطي من اللون فعملوا في الزيادة والنقصان، وكان ذلك في دولة الإسلام، ولم يكن أهل الجاهلية يعرفون الشبه البتة.

أول امرأة جلدت في زنبيل أم جعدة الليثي: وهي جدة بني جعدة: أخبرنا أبو أحمد، عن الجوهري، عن أبي زيد، عن محمد ين يحيى ين أبي غسان، عن بحر بن علي، أن ابنة لعثمان بن عفان كانت تحت مروان بن الحكم- وهو يومئذ أمير على المدينة- وكانت تحب الحديث، وكان ممن يحدث إليها رجل من بني ليث، ثم أحد بني سجع يقال له: عبد الرحمن بن عمر بن شيبة، وكان يلقب خان الجمال وكان ذلك يبلغ مروان فيكذب به، وكان أخو مروان عبد الرحمن ويحيى يطلبان أن يخلي بينه وبينهم، فبينما هم على ذلك إذ خرج مروان حاجاً، فبلغ أخوته حين دخلوا مكة أن قد أدخلته، فرفعوا ذلك إلى مروان، وقالوا: ائذن لنا ننهض إليه فنقتله، فزجرهم عن ذلك فألحوا عليه، حتى إذا كان يوم النفر الأول ألحوا عليه، فقال: دونكم وما تريدون، فخرجوا، وسمع ذلك خصي على رأس مروان فانسلّ، وجعل يسأل عن منازل بني ليث، حتى دخل عليهم، فوجد عبد الرحمن بن جحش- وهو ابن عم الرجل- فقال له: تعرف ابن عمك خان الجمال؟ قال: نعم. قال: تعلم أن بني الحكم، قد استأذنوا الأمير أن يخرجوا ليقبضوا عليه في دار مروان؟ قال: وما علمك بذلك؟ قال: كفيتك. إنه عندها فر رأيك. ثم ولى. قال فقلت: أبعده الله وأسحقه! ثم أدركتني الرحم فقمت إلى ناقتي الزلوج فارتحلتها، ثم أخذت بزمامها حتى جئت العقبة، فسألت عندها: هل رمي أحد؟ قالوا: نعم. مر الآن ركب متنكرون فرموا ثم ولوا سراعاً. فرميت ثم مضيت سريعاً، حتى دخلت المسجد الحرام، فسألت أهل الطواف عنهم فقالوا: نعم طاف الآن بنو الحكم وغلمان لهم، ثم مضوا على رواحلهم، فركبت، فلا أمر على أحد إلا قالوا: مروا سراعاً، حتى نزلت

السرج، فأشير لي إليهم، أنظر إلى عمائمهم، فسرت حتى أمسيت، وجاوزت بريديدعة، نظرت إلى بياظهم معرسين، قال: فنزلت وعلقت الزمام إلى عنق راحلتي، ثم خرجت وخرجت وراءها، وعدلت ذات الشمال عن المحجة، فاستيقظ رجل منهم فقال: من هذا؟ قلت: فحام، قال: أمض راشداً حتى إذا تواريت منهم أنخت وركبت، ووضعت السوط في الراحلة، فجئت المدينة من الغد، حين صليت العتمة، فأنخت عند باب المسجد الذي عند باب مروان- والقاضي أبو هريرة- فسألت عنه فقيل: انصرف، وأخذت بحلقة المسجد، وصحت بأعلى صوتي: أنا عبد الله بن جحش وقد سبقنا الحاج، وتركت الأمر صالحاً، لا يقولن أحد أني كنت قبله، ورددت ذلك مراراً حتى علمت أن من في الدار قد سمع صوتي، فلما رأيت ذلك قلت أيضاً:

أنا ابن جحش وهي الزلوج	حمراء في حاركحا دموج
كأن فاها قتب مفروج	يا أيها النواقة الولوج
أخرج فقد آن لك الخروج	أتاك بالقوم مطايا عوج
لهن من طول السرى ضجيج	

قال: وكان مروان قد اتهم أم جعدة التي تمشي بين خان الجمال وبين زوجته، فأخذها- وكانت عظيمة ذات خلق- وأمر بها فجعلت في مكتل، ثم ربط عليها وهي فيه، فكانت أول امرأة جلدت في مكتل.

الباب التاسع

في ما جاء عن العجم خاصة

أول من اتخذ النيروز عيداً: أجمعت الفرس أن جم الملك أول من اتخذ النيروز عيداً، وجعل تعظيمه ديناً، وهو الذي بنى مدينة طوس وقال النسابون: في زمانه بعث الله تعالى هوداً إلى عاد، وصالحاً إلى ثمود، وولد قحطان أبو اليمن، وكان الدين قد تغير قبله، فلما ملك جدده وأظهر العدل، فسمي اليوم الذي ملك فيه نوروز- أي اليوم الجديد- ثم عربته العرب فقالوا: نيروز ألحق ببناء طيقور، وزعمت الفرس أن ذلك اليوم كان معظماً عند أهل المعرفة قبل جم، لأنه اليوم الذي خلق الله فيه الخلق. قالوا: ولذلك جعل الله في وقته ابتداء الشور النامي، وهيج تناسل الحيوان وجعل المهرجان دليل القيامة، لتناهي جمهور النامي فيه وانقطاع النماء عنه، ووقوف معظم الحيوان عن التناسل، وذكروا أن سبب رفعهم النار في ليلته قصداً لتحليل العفونات والزلوجات التي أبقاها الشتاء في الهواء، وإرادة التنويه بذكره وشهرة أمره، ورش الماء فيه إنما

هو بمترلة النشرة، وهو أيضاً تطهير مما قد انضاف إلى الأبدان من دخان النيران في ليلته، وسبب إهداء السكر فيه أن قصب السكر ظهر في زمن جم، و لم يعرف قبله، فوقع لبعض الناس ذواقة بالاتفاق، فلما وجد حلاوته احتال لاستخراج مائه وطبخه، فوقع الفراغ منه في يوم النيروز، فأهداه إلى الملك فيما أهدى إليه، فتبرك به وجعل إهداءه سنة، وكان الملك من ملوك الفرس يجلس في النيروز، فيقوم رئيس الكتاب فيقول بعد الحمد لله ومدح الملك: أيها الملك! الرفق يمن، والخرق شؤم، وصالحوا الأعوان محتاجون إلى ما يقيمهم في أفعالهم، ويفضل عنهم لعطلتهم، فإن ضيق عليهم كان معولهم على مال السلطان، فيكون من حيث يرتجى الربح يقع الخسران، وحيث تكون الخيانة، يكون التمحق، وحيث الأمانة، تتم البركة، والفجور يقلل قطر السماء، ومع الخيانة تعدم الزكاة، الخراج يدر الأموال، والأموال تكوّن الجنود، وبالجنود يقمع العدو، فيتم العدل، ثم يمسك، ويقوم المؤيد، ويقدم هديته، فيثني على الله ثم على الملك ويقول: بقليل الغفلة يطول العناء، فأشرف على أمرك أيها الملك، حتى لا يستتر عليك ما تحتاج إلى معرفته، قدم الحزم في أمورك تتم وتسلم في عواقبها، أكظم الغيظ تحمد مغبته في أمرك، وكن برعيتك رؤوفاً تكثر محبتهم لك، اصفح عن المسيء فليس كل الأوقات تدوم لك الطاعة، لا توقع في غير موضع الايقاع فتظلم، ولا تتركه فتستضعف، لا يمزح بحضرتك فتنتقض جلالتك، ويجترئ الأخساء في مجلسك، فتذهب هيبتك. ثم يجلس ويقوم الوزير، ويقدم هديته، ويقول بعد الثناء على الله عز وجل ثم على الملك: بسط العدل، وتقوية الجند، وإعطاء المستحق، وتأديب المسيء، ترغيب في إحسان من ليس محسناً، ويزع عن الإساءة من كان مسيئاً، وإذا انصرف المحسن عن بابك بغير مكافأة، والمسيء بغير عقوبة، أوشك ألا يرى فيه محسن ولا يغيب عنه المسيء، بدرور الأرزاق تصفو ضمائر الأجناد، وببسط العدل تكثر العمارة، وبتوفر الخراج تسلم قلوب الرعية، ثم يجلس ويقوم رأس المرازبة، ويقدم هديته، ويقول بعد الثناء على الله تعالى ثم على الملك: الجنود جناح الملك، وسداد الثغر، ومفاتيح الحصون، وبهم قمع الأعداء ورفع الأولياء، وحقيق برفه المترلة، وإسناد العطية من بذل دمه، و لم يضن عن الملك بنفسه، بالسرور تكون النجدة، وبالسرور تكون الكفاية، وبحق أقول: إن حسم العادة، ومنع الواجب مما يوغر الصدر حتى يصير الولي عدواً فيحتاج إلى الاحتراس ممن يحترس به، ثم يقدم الناس هداياهم، فيأمر بالخلع والجوائز، ومكافأة كل مهد على قدره، وكان من سير ملوكهم أن يتأملوا هدايا الأولياء، ويعرفوا مقاديرها، ويأمروا بإثباتها في الديوان، فمن أهدى مالاً يترقب أحواله، فإذا اتفق له أو لأقاربه أعراس أو أملاك أو غير ذلك مما يحتاج فيه إلى نفقة أضعف له قيمة ما أهداه أضعافاً مضاعفة وحمل إليه، ومن أهدى سهماً حمل له من فاخر الثياب ما يعلو السهم إذا أقيم، ومن أهدى تفاحة أو أترجة أعطي زنتها ذهباً، أو غرز فيها الدنانير حتى تعمها، وتحمل إليه، ومن أغفل مكافأته على ما أهداه لعارض يعرض ثم لا يذكر

بنفسه دفع حقه إلى عدوه وحرم منه.

أول ما ظهر المهرجان على عهد أفريدون: وذلك أن الدين قبل أيامه فسد، أفسده الضحاك فوثب به أفريدون فقيده، فسمي اليوم الذي ظفر فيه: المهرجان. والمهر الوفاء، وجان: سلطان فكان معناه سلطان الوفاء، وكان سبيل الملك فيه سبيله في النيروز، القتل والأسر.

أول من وضع العشور الضحاك: وهو نمرود وهو أول من تغنى له، وأول من لبس التاج، وفي زمانه ولد إبراهيم عليه السلام، وقصته ما قصه الله تعالى في القرآن.

أول من نظر في الطب أفريدون: وفي زمانه ظهرت الفلاسفة، وتكلم في فنونهم، والله أعلم بحقائق هذه الأشياء.

أول من جمر البعوث فرعون: والتجمير أن يلزم الأمير الجيش الثغر، ولا يأذن لهم في القفول، قال الشاعر:

معاوي إما أن تجهز أهلنا إلينا وإما أن نؤوب معاويا

أجمرتنا تجمير كسرى جنوده ومنيتنا حتى مللنا الأمانيا

معاوي للحبس المحجر قد أتى له سنتان في خراسان ناويا

معاوي كم ذي زوجة قد تركته ومن ذي أخ لا يرجونّ التلاقيا

وإن لا تدع تجميرنا عن نسائنا نعد لك أياماً تشيب النواصيا

وكان عمر رضي الله عنه يجمر الجيش، حتى سمع امرأة تنشد ليلاً، وهو الذي أخبرناه أبو أحمد عن أبي روق عن الرياشي عن أيوب بن الحسن الهاشمي، عن ابن أبي أويس، عن مالك عن عبد الله بن دينار قال: خرج عمر ليلة فسمع امرأة تقول:

تطاول هذا الليل وأسودّ جانبه وأرقني أن لا خليل ألاعبه

فوالله لولا الله لا شيء غيره لحرك من هذا السرير جوانبه

ولكنني أخشى الإله وأتقيه واحفظ بعلي أن تنال مراكبه

فسأل حفصة رضي الله عنها، كم تصبر المرأة على زوجها؟ فقالت: أربعة أشهر أو ستة أشهر - شك مالك - فقال: لا أحبس جيشاً أكثر من هذا.

والتجمير في غير هذا الموضع رمي الجمار. قال الشاعر:

ولم أر كالتجمير موقف ساعة ببطن منى ترمى جمار المحصب

وتبدي الحصن منها إذا قذفت به   من البرد أطراف البنان المخضب

والإجمار السرعة في السير، ويقال لليلة قبل السرار: ليلة جمير، ويقال: جمرت المرأة شعرها إذا صفرته وتجمر القوم إذا صار لهم بأس، وخف مجمر أي مجتمع، وأجمر حيله جعلها جملة، والجمرات من العرب عبس وضبة ونمير والحارث.

أول من طبخ الآجر هامان: قالوا: وهو قوله تعالى: " فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً" والصرح القصر، ولمح بعضهم بأبيات فيها ذكر هامان، ونشد الصرح، وهو قوله:

إن كان في آية الله معتبر   فأنت معتبر في كل إنسان

جسم نحيف وأنف قد صفا عظماً   كأنه جبل في رأس ثعبان

لو كان فرعون إذ رام السماء سما   فيه لأعياه عن تشييد هامان

ومثله في المبالغة قول الأعشى: وأستغفر الله منه.

لا ترى جسمها مع الأنف إلا   بدليل وسمعة ومنادي

لا تلمني رب العباد فما   كنت إلا سخرية للعباد

وقال آخر:

فلو جعلت أمامي   ودنت دين اليهود

لكان حصني مما   أخاف أنف سعيد

وكان أخفى لشخصي   عن العدو الحسود

من خندق دون حصن   عليه بابا حديد

أول من غير سنة آل ساسان يزدجرد الأثيم: سمي أثيماً لكثرة مقابحه، كان ملوك الفرس يتوخون المعدلة والإنصاف، ويزيحون أسباب الظلم والعدوان في جميع متصرفاتهم، وينصرون المظلوم وإن كان دنيا على الظالم وإن كان شريفاً، ويقولون: إذا لم يكن الملك منصفاً عادلاً فهو لص متغلب، حتى ولي يزدجرد الأثيم فأزال هذه وقال: ليس على الرعية أن تعترض على الراعي في شيء مما يريده، وليس للرعية أن تشكوه، وتنكر شيئاً من أمره، وكان ذات يوم واقفاً في جنده، فأقبل فرس من أحسن ما يكون من الخيل، عليه سرج ولجام، ولم ير أحسن منه، فتبادر القوم نحوه، فكل من قرب منه رمحه، وهو في ذلك يؤم يزدجرد، فقال: دعوه فإنه يريدني، وتقدم إليه وأخذ بلجامه ومسحه، وانقاد له الفرس، فبينما هو يدور

به، ويمسحه، رمحه فأصاب قلبه، فمات من وقته، فقالت الفرس: ذلك الملك الموكل بالعدل، لما كثر من يزدجرد الجور بعثه الله إليه فقتله.

أول من جعل للضيف صدر المجلس: بهرام جور، وهو أول من سماه مهمان، ومعناه عظيم وذكر في مفاخرات العرب والعجم عربياً وفارسياً ففاخرا، فغلب العربي الفارسي في كل خصلة ذكراها، حتى ذكر القرى والضيافة فقال الفارسي: لنا في ذلك ما ليس للعرب، نحن نسمي الضيف مهمان أي عظيمنا أو كبيرنا، فنجعل أنفسنا مضافة إليه، وأنتم تسمونه الضيف، فتجعلونه مضافاً إليكم، فغلب الفارسي العربي في هذه الخصلة.

وقالوا: أول من وضع الخراج وأزال المقاسمة أنوشروان. مر بغلة يتناول منها صبي شيئاً وأمه تمنعه فقال، لم تمنعينه؟ فقال: إن فيها حقاً للملك، فلا نستحلها لأنفسنا حتى نؤدي حقه فيها، فقال: قد ضيقن على الناس، لو أخذنا عن كل غلة شيئاً معلوماً، وخلينا بينها وبين صاحبها كان أمثل، فجمع وزراءه ليوافقهم على استبداء الخراج وترك المقاسمة، فقام بعض الكتاب فقال: أيها الملك! أعيذك أن تضع ما يبقى على ما يفنى! فقال للكتابة: اقتلوه، فقاموا إليه بالدوي، فضربوه حتى قتلوه، وهو أول من قتل بالدوي.

وأخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني قال: أول من مسح الأرضين، ووضع الدواوين وجدد الخراج، ووظف على البلاد قباذ، فصير لذلك ديواناً بحلوان سماه ديوان العدل، وكان كل شيء يجبى من مملكة الفرس عشر مرات مائة ألف ألف مثقال، وكان الملك إذا أخذ نصف الجباية، وترك النصف للناس، كان الناس متماسكين- ليسن بهم سعة ولا ضيق- فإن أخذ أكثر من النصف أضر ذلك بهم بقدر أخذه، فحباهم قباذ ستمائة ألف ألف، وذلك تسعمائة ألف ألف درهم، فأضر ذلك بالناس وكان العراق يجبي أيام أنوشروان ستمائة ألف ألف مثقال.

وأما أبرويز، فإنه أحرز في بيوت الأموال تسعة ألف ألف، وترك في أيدي الناس في المملكة مائة ألف ألف فهلك الناس، حتى كانت الجارية تقام فتباع بدرهم.

أول ما عمل القورج: عمله كسرى القاطول، انقطع الشرب على أهل السافل فخرجوا يتظلمون إليه، فوافقوه في متنزه له راكباً، فقالوا: أيها الملك! جئنا متظلمين منك، فنزل وجلس على التراب وقال: لا أبرح حتى أزيل ظلامتكم، فذكروا قصتهم فأمر بسد القاطول فقالوا: لا نجشم الملك في ذلك، ولكن تجعل لنا ماء يجري إلينا من فوق القاطول، فأمر بعمل قورج أجرى فيها الماء إليهم، فكان أول ما عرف القورج.

الباب العاشر

في ذكر أنواع مختلفة من الأحاديث

أول شيء بناه الله تعالى: قال العبثي: وجدت في التوراة أول شيء بناه الله تعالى السماء.

أول قرية بنيت على الأرض: قرية يقال لها: ثمانين، بناها نوح عليه السلام، وجعل لكل رجل ممن معه بيتاً وكانوا ثمانين فهي إلى اليوم تسمى ثمانين.

أول بيت بني الكعبة: قال الله تعالى: "إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً" وبكة موضع البيت، ومكة اسم البلد.

أول من خاط الثياب ولبسها إدريس: وكانوا يلبسون الجلود، وهو أول من خط بالقلم على ما قالوا، والله أعلم.

أول من عملت له النورة سليمان عليه السلام: كذا قيل، والنورة عربية صحيحة.

أخبرنا أبو أحمد قال: أبو بكر بن دريد قال: أضل الكذاب ناقة، فاقمم بني عميرة، فتجوع لهم، ليتشوه على ماء لهم، فلما كان يوم وردها تعرى ثم رجز:

لهم إن كانت بنو عميرة ... رهط الثلاث هذه مقصورة

قد حشدوا الغدرة مذكورة ... وأصبحوا كأنهم قارورة

من إبل وغنم كثيرة ... فابعث عليهم سنة قاشورة

تحتلق المال احتلاق النورة

فقالوا: كم ثمن ناقتك؟ قال: ثلاثون درهماً فأعطوه إياها.

التشوه: أن يقف الرجل بحذاء إبل يريد أن يصيبها بالعين، فيقول ما أحسنها ما أسمنها، والتجوع تفعل من الجوع، وعندهم أنه إذا جاع كان ذلك أنكى فيها، ومن أحسن ما شبه به النورة إذا طلي بها قول بعض المحدثين:

ومجرد الأبواب أسلم نفسه ... لمجرد يكسوه ما لا ينسج

ثوب تمزقه الأنامل رقة ... ويزيله الماء الزلال فيبهج

فكأنه لما بدا في خضرة ... نصفان ذا عاج وذا فيروزج

أول من عمل الصابون سليمان عليه السلام: والصابون اسم عجمي، وإن كان موافقاً لبعض أبنية العرب مثل ياعور وساجور.

أول من عمل القراطيس: وقالوا: أول من عمل القراطيس يوسف عليه السلام، والقرطاس عربي وكانت الأغراض تعمل من القراطيس، فسمي الغرض قرطاساً، ويقال قرطست إذا أصبت القرطاس، وهو الغرض، ومن بديع ما جاء في ذلك قول أبي تمام:

قرطست عشراً في مؤذنة في مثلها من سرعة الطلب

ولقد أراني لو وقفت يدي شهرين أرمي الأرض لم أصب

أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام: وكانت الخيل قبل ذلك وحشاً، فأخذها وصنعها، فأنست وتعلم ولده صنعتها منه، فبقي علمه فيهم، ولهذا اختصت العرب بالمعرفة بها، وهي مما يمتدح بارتباطها. قال النبي عليه الصلاة والسلام: "الغنم بركة، والإبل جمال والخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة". وقال في أنثاها : "ظهورها حرز، وبطونها كنز" وقال: "خير المال سكة مأبورة، ومهرة مأمورة". والسكة السطر من النخل، والمأمورة المصلحة المعلمة، قال الشعر الجعفي يصف الخيل:

ولقد علمت على توقي الردى أن الحصون الخيل لا مدر القرى

يخرجن من خلل القبار عوابساً كأنامل المقرور أقعى فاصطلى

وهذا أحسن ما قيل في اصطفاف الخيل، والعرب تفتخر باتخاذ الخيل والإبل، وتذم الغنم، على أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "السكينة في أهل الغنم، والخيلاء في أهل الخيل والإبل، وفي الفدادين أهل الوبر، والحكمة بماشية" الفداد الخافي الصوت.

وقيل لابنة الحسن: ما تقولين في مائة الإبل؟ قالت: منى. قبل: فمائة من المعز؟ قالت: قنا. قيل: فمائة من الضأن؟ قالت: عنا قيل: فمائة من الخيل؟ قالت: لا تحس ولا ترى. قيل: فمائة من الحمير؟ قالت: أخزى الله الحمير من مال! في ظهره دبرة، وفي بطنه كمره، قموص الحنجرة إن أرسلته ولى وإن ربطته أدلى.

أول شعر قيل في الإسلام قول ضرار بن الخطاب: أخبرنا أبو أحمد، عن أبي بكر بن دريد قال: أول شعر قيل في الإسلام قول ضرار بن الخطاب الفهري:

تداركت سعداً عنوة فأسرته وكان سفاءً لو تداركت منذرا

فلو نلته طلت دماء جراحه وكانت حراماً أن تطل وتهدرا

قوله: تداركت سعداً، يعني سعد بن عبادة، والمنذر هو ابن عمرو من الخزرج، كانا من الأنصار الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة الثانية، وكانوا سبعين رجلاً، فلما نفر الناس من منى، خرجت قريش في طلبهم، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر والمنذر بن عمرو كلاهما، ثم أعجزهم المنذر، وأخذوا سعداً، فربطوا يديه إلى عنقه، ودخلوا به مكة يضربونه ويجدبونه بجمية، قال سعد: فإني لفي

أيديهم إذ طلع رجال من قريش، فيهم رجل مضيء شعشاع حلو، فقلت في نفسي: إن كان عند أحد من القوم خير فعند هذا، فلما دنا مني، رفع يده فلطمني لطمة شديدة. فقلت في نفسي: ما عندهم بعد هذا خير، وإذا هو سهيل بن عمرو، ثم هتفت بجبير بن مطعم، والحارث بن أمية بن عبد شمس فجاءا فخلصاني، فقال ضرار هذا الشعر، فأجابه حسان:

ولست إلى سعد ولا المرء منذر	إذا ما مطايا القوم أصبحن ضمرا
وإنك واستبضاعك الشعر نحونا	كمستبضع تمراً إلى أرض خيبرا

أول جيش خرج من المدينة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم جيش أسامة: أخبرنا أبو القاسم، عن العقدي، عن أبي جعفر، عن المدائني، عن رجاله قال: لما كان يوم الاثنين لثلاث بقين من صفر سنة إحدى عشرة ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم جيشاً إلى أسامة، فيهم أبو بكر وعمر والزبير، وأبو عبيدة بن الجراح وغيرهم من المهاجرين الأولين، وكان لأسامة ثمانية عشر عاماً، فتكلم الناس، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم عاصباً رأسه فخطبهم، وقرظ أسامة، وذكر حسن مترلته عنده، فسكنوا، وخرج أسامة فعسكر في الجرف، على فرسخ من المدينة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مريض، فاستأذنه أسامة أن يقيم إلى أن يعافى، فلم يأمره ولم ينهه، ثم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبويع أبو بكر رضي الله عنه، فخلف أسامة عمر والزبير وأبا عبيدة، وسار الجيش حتى أغار على بلاد الشام، وكان ذهابه ومجيئه أربعين يوماً، وقيل سبعين يوماً، وكان سعد يلقى أسامة بعد ذلك فيسلم عليه بالأمرة، فهذا هو الأصل في التسليم بالأمرة والوزارة والقضاء على المعروفين من هذه الأعمال.

أول يوم انتصفت فيه العرب يوم ذي قار: ويسمى يوم ذي قار، ويوم ذات العجوم، ويوم البطحاء، ويوم الجبانات، ويوم ذي الحنو، ويوم قراقر، وكان حديثه أن النعمان بن المنذر قتل عدي بن زيد، وكان في تراجمة كسرى، فقام ابنه زيد بن عدي مقامه، فما زال يفسد على النعمان عند كسرى، فقام ابنه زيد بن عدي مقامه، فما زال يفسد على النعمان عند كسرى أبرويز حتى تنكر له، وأمره بالوفود عليه، فاستودع النعمان حلقه ونعمه هانئ بن مسعود الشيباني، ورحل إلى كسرى، فقتله، واستعمل أياس بن قبيصة على الحيرة، وأمره أن يضم ما كان للنعمان فيبعث به إليه، فبعث أياس بن هانئ، أن أرسل بودائع النعمان إليّ، فلم يجبه إلى ذلك، وغضب كسرى، وأظهر أنه مستأصل بكر بن وائل، وقال له النعمان بن زرعة الثعلبي: أمهلهم حتى يقيظوا، فإنهم إذا قاظوا تساقطوا على ماء لهم يقال له: ذو قار، فتأخذهم كيف شئت، فلما نزل بكر بن وائل ذا قار أرسل إليهم النعمان بن زرعة أن اختاروا إحدى ثلاث: إما أن تقطعوا بأيديكم

فيحكم الملك فيكم كيف شاء، وإما أن تخلوا الديار، وإما أن تأذنوا بحرب، فتآمروا وولوا أمرهم حنظلة بن ثعلبة بن سيار العجلي فقال لهم: إن أعطيتم بأيديكم قتلتم وسبيت ذراريكم، وإن هربتم قتلكم العطش، فتلقاكم تميم فتهلككم، فليس لكم إلا الحرب فبعث كسرى هامرزا التستري، وكان على أسلحته بالقطقطان وإلى والي حلا يزين- وكان ببارق- فانضما إلى أياس بن قبيصة، وأمر قيس بن مسعود- وكان استعمله على الطف- بالانضمام إليهم، فاجتمعوا بصحراء ذي قار فانفتل مسعود بن قيس ليلاً، فأتى هانئ بن مسعود وقال: أعط قومك سلاح النعمان، ففعل ذلك، فلما دنا الجمعان قال هانئ: يا معشر بكر! لا طاقة لنا بجنود كسرى، ومن معه من العرب، فاركبوا الفلاة فتسارع الناس إلى ذلك، وردهم حنظلة بن ثعلبة، وقطع وضن الهوادج لئلا يستطيعوا سوق نسائهم فسمي مقطع الوضن، ونادت نساء بكر، أتدعوننا للقلف وتنصرفون؟ فحمى الرجال وقطع سبعمائة منهم أيدي أقبيتهم من قبل مناكبهم لتخف أيديهم بالضرب بالسيوف، فجالوا وضرب حنظلة على نفسه قبة وقال: والله لا أفر حتى تفر القبة، فرجع أكثر الناس، واستقوا لنصف شهر، والتقوا فعطشت الفرس، فهربت إلى الجبانات، فتبعتهم عجل،فقاتلوا في الجبانات، فعطشوا فمالوا إلى بطحاء ذي قار، فأرسلت إياد- وهي مع الفرس- إلى بكر بن وائل سراً إنا ننهزم إذا التقيتم، وقويت نفوس بكر وكمنوا كميناً، وباكروهم فالتقوا فقال حنظلة:

قد جد أشباعكم فجدوا	ما علتي وأنا مؤد جلد
والقوس فيها وتر عرد	مثل ذراع البكر أو أشد
قد جعلت أخبار قومي تبدو	إن المنايا ليس منها بد

وقال أيضاً:

من فر منكم فر عن حريمه	وجاره الأدنى وعن نديمه
أنا ابن سيار على شكيمه	إن الشراك قد من أديمه
وكلهم يجري على قديمه	

ونادى هامرز بردا، فقال برد بن حارثة اليشكري: ما تقول؟ قيل: رجل يدعو إلى المبارزة. قال: وأبيكم قد أنصف. وبرز له برد فقتله. وقال حنظلة: يا قوم! لا تقفوا لهم فيسبغوكم النشاب، فحملت ميسرة بكر وميمنتها على الفرس وخرج الكمين من ورائهم، وفشل إياس بن قبيصة وهو في القلب، وولت إياد

منهزمة فانهزمت الفرس، فقتلوا ما بين بطحاء ذي قار حتى بلغوا الراحضة، وقتل حنظلة بن ثعلبة والي حلايزين، وأسر النعمان بن زرعة وقال:

رجعت بنعمان بن زرعة مردفا على سابح يهدي الرعيل المقدما

وأبكت عيون من زهير وأشللت كنانة في يوم من السر أقتما

ثم من عليه فخلى عنه. وقال بكر بن الأصم:

إن كنت ساقية المدامة أهلها فاسقي على كرم بني همام

ضربوا بني الأحرار يوم لقوهمو بالمشرفي على مقيل الهام

وقال الأغلب العجلي:

قد علموا يوم حبايزينا إن مالت الأحياء مقبلينا

وطارت الجفون وانقضينا إنا بني عجل إن التقينا

ندفع عنا حد من يلينا الغمرات ثم تنجلينا

عنا ونيران تأخرينا

قال العديل بن فرج العجلي:

وما تعدوا من يوم سمعت به في الناس أفضل من يوم بذي قار

وقال الأخطل:

هلا لقيتم معداً كل معضلة كما لقينا معداً يوم ذي قار

وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "اليوم ينتصف العرب من العجم" فنظروا فإذا هو يوم ذي قار.

أول من علم المثمنات من الجواري الغناء إبراهيم الموصلي: أخبرنا أبو القاسم، بن سيران، رحمه الله تعالى، عن شيخ له، عن عمر بن شبة قال: حدثني إسحاق قال: لم يكن الناس يعلمون الجارية الحسناء الغناء، وإنما كانوا يعلمون الصفر والسود، وأول من علمهن أبي، فبلغن كل مبلغ، وأول من بلغ فيهن الثمن الوافر أمان جارية قرين النحاس، بلغت مائة ألف درهم، وكان ابن أبي عيينة يهواها فقال لأبي:

قلت لما رأيت مولى أمان قد طغى سومه بها طغيانا

لا جزى الله الموصلي أبا إس حاق عنا خيراً ولا إحسانا

جاء من موصل بوحي من الشي طان أغلى به علينا القيانا

من غناء كأنه سكرات الم وت يصبي القلوب والآذانا

وقال ابن سباية:

يا أبا إسحاق قد ن فقت أسواق القيان

وجعلت القينة الشو هاء في حد الحسان

بأغانيك التي يروينها خير الأغاني

كم شقي بك فيهن ومفتون وعاني

ما لإبراهيم في الع لم بهذا الشأن ثاني

إنما عمر أبي إس حاق زين للزمان

جنة الدنيا أبو إس حاق في كل زماني

قال إبراهيم: أتيت الفضل بن يحيى يوماً فقلت له: هب لي درهماً، فإن الخليفة قد حبس يده عنا فقال: ما عندي ما أرضاه لك، أتانا رسول صاحب اليمن فقضينا حوائجه، ومعه خمسون ألف دينار يشتري لنا بها، ثم قال: ما فعلت ضيا جاريتك؟ قلت: هي عندي. قال: أقول له: يشتريها منك، فلا تنقصها عن خمسين ألف دينار، فقبلت رأسه وانصرفت، فبكر على رسول صاحب اليمن، ومعه صديق لي، فقال: جاريتك ضيا فأخرجتها، واستتممت بها خمسين ألف دينار، فقال هل لك في ثلاثين ألف دينار مسلمة؟ قال: وكان شراؤها على أربعمائة دينار، وأخذني زمع لما سمعت ذكر ثلاثين ألف دينار، وخفت أن يحدث عليها أو على المشتري أو على الفضل حادثة فيفوتني ذلك، فسلمتها إليه وأخذت المال، وبكرت على الفضل، فلما نظر إليّ ضحك وقال: يا ضيق الحوصلة! حرمت نفسك من عشرين ألف دينار، فقلت له: دعني والله! لقد دخلني شيء أعجز عن وصفه، فبادرت بقبول المال، فقال: لا ضير! يا غلام! هات الجارية، فجيء بها على حالها، فقال، خذها، إنما أردت نفعك، فلما نهضت قال: إن صاحب أرمينية قد جاءنا فقضينا حوائجه، ونفد ما كتبه، ومعه ثلاثون ألف دينار يشتري لنا بها ما نريد، فاعرض عليه جاريتك، ولا تنقصها عن ثلاثين ألف دينار، فانصرفت، وبكر عليّ صاحب أرمينية، فساومني الجارية، فقلت: لا أنقصها عن ثلاثين ألف دينار، فقال: معي على الباب عشرون ألف دينار مسلمة، خذها، فدخلني- والله- مثل الذي دخلني في المرة الأولى، وخفت مثل خوفي الأول، فسلمتها إليه، وأخذت المال، وجئت الفضل فقال: ويلك حرمت نفسك عشرة آلاف دينار، وضحك وضرب برجله، فقلت: خفت والله ما خفت في المرة الأولى، قال: جاريته يا غلام! فجيء بها، فقال: خذها، ما أردنا إلا منفعتك،

فقلت: أشهدك- جعلت فداءك- أنها حرة، وأني قد تزوجتها على عشرة آلاف درهم، قد كسبت لي في يومين خمسين ألف دينار، فما جزاؤها إلا هذا.

أول من غنى من الأنصار: رجل يقال له: أحمد النصيبي الهمداني من أهل الكوفة كان يغني في أشعار أعشى همدان، وكانا ينتجعان بشعره هذا يقوله وهذا يغني به، ثم خرجا مع عبد الرحمن بن الأشعث، فقتلا، وترك النصيبي فلم يذكر حتى أعاده جحظة، فأبدع فيها، وأعجب الناس بها وأخذوها عنه، والنصف ضرب من النشيد، والنشيد على ثلاثة أضرب: أولها الاستهلال، وهو أن يكون النشيد في بعض البيت الأول، ثم يكون باقي البيت مبسوطاً، والضرب الثاني أن يكون في بيت تام، وربما كان في بيتين، والتشبيه قد يتكرر في الشعر مرتين، فيكون البيت الأول نشيداً، والثاني نشيطاً، والثالث نشيداً أيضاً، والنسب أن يكون النشيد في عدة أبيات، قال: ولا يكون إلا على الطنبور.

أول من قصّد القصائد مهلهل: يقول الفرزدق: ومهلهل الشعراء ذاك الأول، وهو خال امرئ القيس، واسمه عدي بن ربيعة، وأسر يوم قضة، وهو آخر أيام بكر وتغلب، وكان على تغلب فأسره الحارث بن عباد- وهو لا يعرفه- فقال له: تدلني على عدي بن ربيعة- المهلهل- وأنت آمن، فقال له المهلهل: إن دللتك عليه فلي دمي؟ قال: نعم. قال: فأنا عدي بن ربيعة، فجز ناصيته وخلاه، وقال:

لهف نفسي على عدي ولم   أعرف عدياً إذ أمكنتني اليدان

ثم خرج مهلهل فلحق باليمن، فنزل في ضب فخطب إليه رجل منهم ابنته فقال: إني غريب طريد فيكم، وإن أنكحتكم، قال الناس: اقتسروه فأكرهوه حتى زوجها، وكان المهر أدماً فقال:

أنكحها وعقدها الأراقم   في خنب وكان الحباء من أدم

لو تأنى من جاء فكخطبها   رمل ما أنف خاطب بدم

ثم انحدر، فأسره عوف بن مالك بن ضبيعة فمات في أساره.

أول من أطال الرجز الأغلب: وقيل: العجاج.

أخبرنا أبو أحمد، عن الشطبي قال: حدثنا محمد بن أحمد بن الحسن قال: حدثنا أبو إسحاق السبيعي قال: ذكروا الرجز والرحاب فقالوا: كان الرجز يقول منه الرجل في الجاهلية في الحرب وإذا خاصم أو شاتم أو فاخر يقول: البيتين أو الثلاثة ونحو ذلك، فكان العجاج أول من رفع الرجز وشرفه، وفتح أبوابه، وشبهه بالشعر، فجعل له أوائل وتشبيه، ووصف فيه الديار وأهلها وذكر ما فيها، وذكر الرسوم والقلوب، ونعت الإبل والطلول وكان يشبه العجاج بامرئ القيس، وفي أول الإسلام كانوا يقولون العجاج وابنه رؤبة، ثم

اختلفوا، فقالت تميم: أولهم العجاج ثم حميد الأرقط ثم رؤبة، وقالت ربيعة: أولهم الأغلب، ثم أبو النجم ثم العجاج، واحتجت بقول العجاج:

إني أنا الأغلب حياً قد نشر

قالوا: وإنما قاله حكيم بن متعة من بني تميم قالوا: وأرجز الرجز ثلاث أرجوزات، ليس في الجاهلية والإسلام، أمدح من أرجوزة العجاج:

قد جبر الدين الإله فجبر

ولا أرجوزة في وصف رام وقابض وحمير أرجز من أرجوزة رؤبة:

وقائم الأعماق خاوي المحترق

ولا أرجوزة في وصف الإبل ورعاقا ورعيها أرجز من أرجوزة أبي النجم:

الحمد لله الوهوب المجزل

وقد فضلت هذه الأراجيز لأنها جمعت جودة مع طول.

أول من وقف على الديار وأبكى واستبكى امرؤ القيس بن حجر: وقالوا: امرؤ القيس بن حارثة بن الحمام، وإياه عنى امرؤ القيس بن حجر في قوله:

يا صاحبي قفا النواعج ساعة   نبكي الديار كما بكى ابن حمام

وقالوا ابن حذام، وأنشدوا لامرئ القيس:

عوجا على الطلل المجل لعلنا   نبكي لديار كما بكى ابن حزام

وامرؤ القيس أول من قال: دع ذا في الخروج على النسيب إلى المديح وغيره، وأول من شبه الخيل بالعصا واللقوة والسباع والطير، وأول من شبه النساء بالظبي، وأول من شبه بشبهين في بيت واحد وهو قوله:

كأن قلوب الطير رطباً ويابساً   لدى وكرها العناب والحشف البالي

وأول من شبه الحمار بمقلاة الوليد- وهو عود يضرب بالقلة يلعب بها الصبي- وأول من شبه بكر الأندري، وهو الحبل- وهو أول من شبه الطلل بالرحى وبالزنبور في العسب.

أول من خاطب بأطال الله بقاءك عمر بن الخطاب رضي الله عنه: حدث علي بن حرب الموصلي يرفعه إلى عبيد بن رفاعة بن أبيه قال: جلس علي عليه السلام، والكبير، وسعد في جماعة إلى عمر- رضي الله عنهم أجمعين- فتذاكروا العزل فقال: لا بأس بع، فقال رجل: أنتم تزعمون أنه الموعودة الصغرى، فقال علي رضي الله عنه: لا تكون موعودة حتى تمر بالتارات السبع، تكون سلالة من طين، ثم نطفة ثم علقة ثم

مضغة ثم عظماً ولحماً ثم خلقاً آخر، فقال عمر: صدقت- أطال الله بقاءك- فجرى من يومئذ.

أول من كتب في آخر الكتاب وكتب فلان بن فلان أبي بن كعب رضي الله عنه: وهو أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدم المدينة.

أول من قال: جعلت فداءك عبد الله بن عمر: قال يونس بن عمران: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتنة، أو ذكرت له فقال: "إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم، وصفت أمانتهم، واختلفوا فصاروا هكذا- وشبك بين أصابعه- فقال ابن عمر: جعلت فداءك يا رسول الله! فكيف أصنع؟ قال: إلزم بيتك، وعليك بما تعرفه، ودع ما تنكر، وعليك بخاصة نفسك، ودع العامة" .

وقالوا: أول من قالها علي رضي الله عنه لما دعا عمرو بن عبد ود العامري إلى البراز يوم الخندق فلم يجبه أحد، فقال علي رضي الله عنه: جعلت فداك يا رسول الله! أتأذن لي؟ قال: إنه عمرو بن ود فقال: وأنا علي بن أبي طالب، فخرج إليه فقتله.

وأول من أشار إلى هذه اللفظة فأخذها الناس منه حاتم الطائي، وهو يقول:

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا ... بموت فكن أنت الذي تتأخر

أول من أجرى على العميان والزمنى وأقام طعمة "شهر رمضان الوليد بن عبد الملك" وأول من طرد الخيل طرفة: فقال:

فقل لخيال الحنظلية ينقلب ... إليها فإني واصل حبل من وصل

فتتبعه جرير فقال:

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا ... حين الزيارة فارجعي بسلام

قال أبو هلال: وهذا باب إن أوردناه احتجنا إلى إفراد كتاب له.

أول من خرج اللطيف وعقد المعاني مسلم بن الوليد: قال بعضهم: هو أول من أفسد الشعر، وجاء بالفن الذي سماه الناس بالبديع، ثم جاء بعده الطائي، فتخير فيه وليس ذلك عندنا كذلك، إنما تلك طريقة تستظرف، ومسلك يستطرف، وكيف يقال لمثل قوله:

أجررت حبل خليع في الصبى غزل ... وشمرت همم العذال في عذل

ولقوله فيها:

موف على مهج في يوم ذي رهج ... كأنه أجل يسعى إلى أمل

يكسي السيوف نفوس الناكثين به ... ويجعل الهام تيجان القنا الذبل

ولمثل قوله:

يجود بالنفس إن ضن الجواد بها ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود

وقوله:

وإني وإسماعيل يوم وداعه ... كالغمد يوم الروع فارقه النصل

فإن أغش قوماً بعده أو أزورهم ... فكالوحش يدنيها من الأنس المحل

كيف يقال لهذا القول إنه فاسد، لا يقول ذلك إلا من لا علم له بجواهر الكلام.

أول من رثى نفسه يزيد: وهو ابن حذاق العبدي، وشعره أول شعر قيل قي ذم الدنيا:

هل للفتى من تبات الدهر من واق ... أم هل له من حمام الموت من راق

قد رحلوني وما رحلت من سغب ... وألبسوني ثياباً غير أخلاقي

ورفعوني وقالوا: أيما رجل ... وأدرجوني كأني طي مخراق

وأرسلوا فتية من خيرهم نسباً ... ليسندوا في ضريح الترب أطباقي

وأقسموا المال وأرفضّت عوائدهم ... وقال قائلهم: مات ابن حذاق

هون عليك ولا تولع بإشفاق ... فإنما مالنا للوارث الباقي

كأنني قد رماني الدهر من غرض ... بنافذات بلا ريش وأفواق

أول من قال أيدك الله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: قال عمر رضي الله عنه ذلك، لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه.

أول أطم بني بالطائف: أخبرنا أبو احمد قال: حدثنا الجلودي قال: حدثنا المغيرة بن محمد قال: حدثنا إبراهيم بن محمد بن عبد الرحمن قال: حدثنا العتبي عن أبيه قال: خرج أبو سفيان بن حرب وركب من قريش وثقيف يريدون بلاد كسرى بتجارة لهم، فلما ساروا ثلاثاً جمعهم أبو سفيان، فقال: إنا في مسيرنا هذا لعلى خطر، قدومنا على ملك لم يأذن لنا بالقدوم عليه، وليس لنا بمتجر، فأيكم يذهب بالعير، فإن أصيب فنحن براء من دمه، وإن يغنم فله نصف الربح؟ فقال غيلان بن سلمة الثقفي: أنا أمضي بالعير، فقال:

فلو رآني أبو غيلان إذ حسرت ... عني الأمور بأمر ما له طبق

لقال رغب ورهب أنت بينهما ... حب الحياة وهول النفس والشفق

أما منيف على مجد ومكرمة ... أو أسوة لك فيمن تهلك الورق

وخرج بالعير، وكان أبيض طويلاً جعداً، فتخلق ولبس ثوبين أصفرين، وشهر نفسه، وقعد بباب كسرى، حتى أذن له فدخل عليه، وشباك من ذهب بينه وبينه، فقال له الترجمان: يقول لك الملك: ما أدخلك بابي بغير إذني؟ فقال: لست من أهل عداوة أكن جاسوساً، وإنما حملت تجارة، فإن أردتها فهي لك، وإن كرهتها رددتها، قال: وإنه ليتكلم إذ سمع صوت كسرى، فخر ساجداً فقال له الترجمان: يقول لك الملك: ما أسجدك؟ فقال: سمعت صوتاً مرتفعاً حيت لا ترفع الأصوات، فظننته صوت الملك، فسجدت، فشكر ذلك له، وأمر له بمرفقة توضع تحته، فرأى فيها صورة الملك، فوضعها على رأسه، فقال له الحاجب: الملك يقول لك: إنما بعثنا بها إليك لتقعد عليها، فقال: قد علمت، ولكني رأيت عليها صورة الملك، فوضعتها على أكرم أعضائي، فقال له: ما طعامك في بلادك؟ قال: الخبز. قال: هذا عقل الخبز، ثم اشترى منه التجارة بأضعاف أثمانها، وبعث معه من بنى له أطماً بالطائف، فكان أول أطم بني بالطائف.

قال أبو هلال- أيده الله : في هذا الخبر دليل على أن الأمر الذي عقده نوفل بن عبد مناف بين العرب والفرس، كان قد انقضى.

قال: وهذا آخر ما خرج إلينا من الأوائل وإن خرج شيء آخر ألحقناه به وبالله التوفيق، وفرغنا من إملائه يوم الأربعاء لأربع عشرة خلت من شعبان، سنة خمس وتسعين وثلاثمائة وحسبنا الله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الأكرمين وسلم.

الفهرس